

الطبعة
الثانية

السَّيِّخُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ

الدُّرُغَاتُ

مُجَدِّدُ الْمَدْرَسَةِ الشَّافِعِيَّةِ فِي الْأَحْسَاءِ

تَقْرِئُظ

السَّيِّخُ يَحْيَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْمَلَّا الْأَحْسَائِيَّ الْحَنْبَلِيَّ
السَّيِّخُ د. قَيْسُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَلَّا الْأَحْسَائِيَّ الْمَالِكِيَّ
السَّيِّخُ د. أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْعَرَفِيِّ الشَّافِعِيِّ
السَّيِّخُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ بْنِ مُحَمَّدِ الْبُنْيَانِ الْأَحْسَائِيَّ الْحَنْبَلِيَّ

تَأَلَّفُ

د. عَبْدِ الْإِلَهِ بْنِ حُسَيْنِ الْعَرَفِيِّ



دار الفتح
للدراسات والنشر

السَّيِّحُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
الدُّرُغَانِيُّ
مُجَدِّدُ الْمَدْرَسَةِ الشَّافِعِيَّةِ
فِي الْأَحْسَاءِ

الشيخ أحمد بن عبد الله الدوغان مجدد المدرسة الشافعية في الأحساء

تأليف: د. عبد الإله بن حسين العرفج

الطبعة الثانية: ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©

قياس القطع: ٢٤×١٧

الرقم المعياري الدولي (ISBN): ٩٧٨-٩٩٥٧-٢٣-٤٠٧-٢

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢٠١٦/٩/٤٤٣٦)



دارالفتح للدراسات والنشر

رقم الهاتف: ٦٤ ١٦٣٥ ٦٥١٦٣٥ (٠٠٩٦٢)

رقم الجوال: ٤٦٧ ٩٢٥ ٧٧٧ (٠٠٩٦٢)

ص.ب: ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن

البريد الإلكتروني: info@daralfath.com

الموقع الإلكتروني: www.daralfath.com



الدّراسات المنشورة لا تُعبّر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي سابق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing from the publisher.

الشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ

الدُّرُغَاتُ

مُجَدِّدُ الْمَدْرَسَةِ الشَّافِعِيَّةِ
فِي الْأَحْسَاءِ

تَأَلَّفَ

الدُّكْتُورُ عَبْدُ الْإِلَهِ بْنِ حُسَيْنِ الْعَرَفَجِ

تَقْرِئُظ

الشَّيْخُ يَحْيَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْمَلَّا الْأَحْسَائِيَّ الْحَنْفِيَّ

الشَّيْخُ د. قَيْسُ بْنُ مُحَمَّدِ آلِ الشَّيْخِ مُبَارَكِ الْأَحْسَائِيَّ الْمَالِكِيَّ

الشَّيْخُ د. أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّطِيفِ الْعَرَفَجِ الْأَحْسَائِيَّ الشَّافِعِيَّ

الشَّيْخُ عَبْدُ الْمُحْسِنِ بْنِ مُحَمَّدِ الْبَنِيَانِ الْأَحْسَائِيَّ الْحَنْبَلِيَّ



دارالفتح

للدراستات والنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله الذي رفع درجة العلماء الربانيين، وأقام بهم دعائم الملة والدين، وجعلهم نجومًا هاديةً للمهتدين، وشهبًا راصدةً للمعتدين، وأصلّي وأسلم على الصادق الأمين، الشافع المشفق يوم الدين، سيدنا وقدوتنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، واجعلنا اللهم منهم وفيهم ومعهم يا رب العالمين، أما بعد،،

عندما صدرت الطبعة الأولى للكتاب، وانتشر في الأرجاء والرحاب، تليقتُ من البشائر ما يبعث السرور، وينشر الأُنس والحبور، وإليكم بعضًا منها:

• أرسل لي أحد الأصدقاء رسالةً صوتية، فسمعت صوته متغيرًا على غير عادته، فقال في رسالته: «ما الذي فعلت بي يا أبا حسان؟! شرعتُ في قراءة كتاب: الشيخ أحمد الدوغان، فأدهشتني أخبارُ الشيخ وأخلاقه، وطريقته في التعليم والتربية والدعوة، فاعترتني نوباتٌ متكررةٌ من البكاء، فأخفيتُ وجهي عن جلسائي حتى هدأتُ قليلًا، ثم تابعتُ القراءة، فتكررتُ نوباتُ البكاء، فأكملتُ القراءة في سيارتي، فعاودتني نوباتُ البكاء»، وواصل حديثه متأسفًا على فواتِ فرصة الالتقاء بالشيخ والنهلِ من علمه وأخلاقه.

• كتب لي أحد طلاب العلم: «هذا الكتاب مليءٌ بالمشاعر، أشعر أنه بشرٌ له روح، كالصبح إذا تنفس، قرأته فشعرتُ أنني أعيشُ مع الشيخ، أفرح لفرحه بطلابه، وأحزن

لحزنه عند سفر أحدهم، عشتُ معه صعوبة الحياة في أول حياته، سافرتُ معه من مكانٍ إلى مكانٍ بحثاً عن القوت، وكأني من باع الكتابَ بريالين، أُقبلُ غلافَ الكتاب قبل وداعه، عشتُ معه وهو يبحثُ عن الطلاب، ثم عشتُ معه وقد فتح اللهُ عليه بعد سنِّ الخامسة والستين وحواله مجموعةً من النجباء، وقد جدد المدرسة الشافعية في الأحساء».

• اتصل بي رجلٌ، ليس بيني وبينه سابقُ معرفة، وبعد أن عرّف بنفسه قال: «أردتُ أن أعبّر لك عن مشاعري حول أحدِ كتبك»، فظننتُ أنه سيحدثني عن كتابي: «مفهوم البدعة»؛ لأنّ تفاعل قارئه معي كبيرٌ جداً، ثم أكمل حديثه قائلاً: «وهو كتاب: الشيخ أحمد الدوغان، فقد قرأته كاملاً، وغلب عليّ البكاء، ودعوتُ لك ولشيخك»، وتحدث حديثاً جميلاً عن تقديره للشيخ وجهده العظيم في التعليم والتربية والدعوة.

• زارني رجلٌ، ليس بيني وبينه سابقُ معرفة، ورغب في الحصول على عددٍ من نسخ الكتاب ولو بالشراء، وأخبرني عن سببِ رغبته قائلاً: «سنقيم حفلاً للمتقاعدين، وسأوزع عليهم الكتاب؛ ليتخذوا من الشيخ نموذجاً في العطاء بعد مرحلة التقاعد».

• أخبرني عددٌ كبيرٌ من قُرّاء الكتاب أنه شرع في قراءته، فما استطاع قطعها حتى أتمّه كاملاً في ليلة واحدة.

تلك كانت بعض ردود الأفعال الإيجابية على الكتاب، وكنت أتساءل عن سببِ استشارة الكتاب لمشاعرٍ كثيرٍ من قارئيه تجاه الشيخ رغم عدم معرفتهم السابقة به، فما أجدُ جواباً إلا أنّ تلك المشاعر الصادقة تعكس إخلاصَ الشيخ لربه في تعلّمه وعمله، وتعليمه وتربيته ودعوته.

وأجدُ من المناسبِ الآن أن أفشي سراً للقراء، وهو أنني وقعتُ أسيراً لهذا الكتاب، مع أنني صائغُ حروفه الذهبية وناشرُ نفاحاته المسكية، لم تأسرنِي حروفه وكلماته، ولا جُمَله وعبارته، ولا أسطره وصفحاته، إنما أسرنِي صاحبه بحسن سيرته، وصفاءِ سريره، وبهاءِ مظهره، ولطافةِ معشره، وسُمُو خُلُقِه، وواسعِ أفقه،

واعتدال طريقتيه، ورحابة وسطيته، فصرتُ أعيد القراءة فيه كثيراً، وما قرأتُ فيه مرةً إلا غلبتني عيني، وسَمَتُ نفسي، وتجددَ عزمي، وتمثلتُ بقول أبي العتاهية رحمه الله (١٣٠-٢١١هـ):

وكانتُ في حياتك لي عِظَاتُ وأنتَ اليومَ أوعظُ منك حيًّا

ثم لما صدرت الطبعة الأولى طلب كثيرٌ من القراء الإفصاح عن أسماء طلاب الشيخ وأصحابه الذين حدثت لهم معه المواقف المذكورة في الكتاب، فاستشرت خاصة طلاب الشيخ، فأشاروا بوجاهة هذا الطلب، فكشفت اللثام، وأزلت الإبهام، إلا أسماءً قليلةً، رغب أصحابها في بقاء الأمر على ما هو عليه، ثم زدت فيه من المواقف والقصص ما يؤكد الشخصية التجديدية للشيخ رحمه الله، ثم ألحقت في آخره مزيداً من صور الشيخ وطلابه، وصور أقرانه وأصحابه، من العلماء الربانيين، الذين اختلفت مذاهبهم، وصفت مشاربهم، ورقت شمائلهم، وطابت أوائلهم، كما قال الشيخ عبدالعزيز بن حمد آل الشيخ مبارك رحمه الله (١٢٧٩-١٣٥٩هـ) في وصف مجلس من مجالس علماء الأحساء، انعقد مساءً، ولم تنحل عقده إلا في صباح اليوم التالي، التقوا على غير ميعاد، وانفصلوا عن صفوٍ وداد، تحدثوا وتسامروا، وأكلوا وشربوا، وأنشدوا وطربوا، وناموا وقاموا، فقال:

لطائف الأنس في طي المقادير	فاغنم إذا لاح منها وجه تيسير
فإن رأيت ثمار الأنس دانيةً	فلا أراك أخا عجزٍ وتقصير
ما أمكنت فرصة الإمكان إذا أرب	فمال عنها لتسويقٍ وتأخير
يا حبذا ليلة جاد الزمان بها	حسبتني نلت فيها ملك سابور
الأنس يبسم في أرجائها طرباً	والسعد يهتف فيها بالتباشير
حيث اجتمعنا بمن تذكأر وصلهم	أشهى لنا من وصال الخرد الحور
هم البحور ندى بل والبدور عللاً	بل والصدور بتوريدٍ وتصدير

رَقَّتْ شَمَائِلُهُمْ طَابَتْ أَوَائِلُهُمْ
 مِنْ كُلِّ مَتَدَبٍّ بِالمَجْدِ مَكْتَفِلٍ
 لَوْ شِئْتُ مَدَحَهُمْ أَمَلْتُ فِضَائِلَهُمْ
 دَاعٍ مِنَ الرِّشْدِ أَمْسَى هَاتِفًا بِهِمْ
 رَاحُوا مَلِيئِينَ فِي الأَثَارِ دَعْوَتَهُ
 بَيْنَ الفِدَا وَعَجِيبَاتٍ نَدَاوِلِهَا
 أَكْرِمَ بِهَا لَيْلَةً مَا كَانَ أَجْدَرَهَا
 فَالْوَصْلُ مُتَّصِلٌ وَالصَّدُّ مُنْفَصِلٌ
 وَمَطْرَبُ الحَيِّ يَشْدُو فِي رِقَائِقِهِ
 وَفِي الغُصُونِ بَقَايَا نَشْوَةِ عَرَضَتْ
 وَبَلْبَلِ الدَّوْحِ يَتْلُو مَا تُلْقِنَهُ
 وَالأَفْقُ طَلُقَ وَسَاقِينَا يَدَاوِلُنَا
 وَالصَّبْحُ مَذْ أَدْرَكَتْهُ غَيْرَةٌ حَنِقُ
 فَجَاءَ مُسْتَعْجَلًا طَلُقَ العِنَانُ وَقَدْ
 كُنَّا بِنُورٍ وَصَالٍ فِي الدُّجَى فَآتَى
 يَا رَبِّ فَاجْعَلْ لِيَا لَيْنَا مَفْصَلَةً

أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَرْحَمَ الشَّيْخَ أَحْمَدَ الدَّوْغَانَ، وَيَرْفَعَهُ إِلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ الجَنَانِ،
 وَيُبَارِكَ فِي العُلَمَاءِ الرِّبَانِيِّينَ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمْ عَلَى سَيِّدِ وَلَدِ عَدْنَانَ،
 وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ المَلِكِ الدَّيَّانِ.

عبدالإله بن حسين العرفج

١٤٤١/١/١٥ هـ

تقرير الشيخ يحيى بن محمد ابن أبي بكر الملا الأحسائي الحنفي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي رفع منار العلم والعلماء بقوله سبحانه: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقوله جل شأنه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وخصهم بفضائل لا تُعدُّ ولا تُحصَى في الدنيا وفي العقبى بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وميزهم بما زاد فضلهم وفخرهم على لسان حبيبه وصفيه فأخبر: أنهم ورثة الأنبياء.

والصلاة والسلام على سيد المعلمين، وإمام المرين والداعين، سيدنا ونبينا محمد الذي حث على طلب العلم، وأوصى بطلابه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد،

فإن هذه البلاد المباركة كان لها دور متميز في نشر العلم والدعوة، وأثر بارز امتد إلى ما حولها من البلدان، حتى صارت مقصداً لطلاب العلم، يرحلون إليها، وينهلون من علوم شيوخها، ومن أدبهم وسمتهم، وسلوكهم وتربيتهم، ورجاحة عقلهم، واعتدال منهجهم.

ولهذه الأسباب توافدت أعداد الطلاب على هذه البلاد، فأنشئت المدارس

والأربطة التي كان لها دور رائد في نشر العلم، ونبذ التعصب والتطرف.

ورغم هذا كله - وللأسف - فإننا نفتقد الكثير من تراجم علمائها، وأخبار رجالها، حتى ضاعت أخبارهم، واندثرت آثارهم، وإن بقي شيء من ذلك فنزريسير، وحكايات متناثرة.

ففي بلدنا الأحساء مثلاً لا تكاد تعرف شيئاً عن علماء أجلاء، ومربين كبار، ومصالحين عظام، قد بلغوا الغاية في الفقه والنحو واللغة والتربية والسلوك وغير ذلك. بل إن جُلَّ علمائنا الذين احتفظت ذاكرة الأجيال بأسمائهم، لا تكاد تعرف عنهم شيئاً، وكما نجهل الكثير عن حياتهم وتراثهم كذلك نجهل الكثير عن مماتهم، ففقدنا الكثير من التاريخ الشفوي بموت رجاله ومصادره.

ولهذا أسباب عدة، من أهمها: ميل علماء الأحساء إلى الخمول والتواضع، وعدم رؤية النفس.

ولا يخفى أن في تراجم العلماء العاملين فوائد عظيمة، ومنافع جسيمة، حيث تتناول سير حياة الأعلام الذين تركوا أثراً في المجتمع.

ولم أر أمثال الرجال تفاوياً إلى المجد حتى عُدَّ ألفٌ بواحد فتنشط الهمم في طلب العلم مع آدابه عند الاطلاع على كيفية أحوالهم، وصبرهم وقناعتهم، إلى غير ذلك من الفوائد الجليلة، والمزايا التي تبعث على الاقتداء والتأسي بأحوالهم.

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم بعد الممات جمال الكتب والسِّير وهذه سيرة علم من علماء المسلمين، وصرح من صروح العلم في الأحساء، وهو شيخنا: الشيخ أحمد بن عبد الله الدوغان الشافعي الأحسائي، تغمده الله بواسع فضله ورحمته.

فهو مثال يحتذى به، فقد نذر نفسه وجهده لخدمة العلم النافع، وتجرد لنشره وبذله بقوله وفعله، مع التوجيه والإرشاد، غير مُبتغٍ من أحدٍ جزاء ولا شكوراً إلا الاحتساب عند ربه.

فقد كان رحمه الله آية في العلم، مع غاية في التواضع، وهضم النفس، والزهادة الحميدة في الدنيا، وكانت أماكن دروسه تغص بكبار الطلاب ونوابغهم.

وَجُلُّ هؤلاء يحمل عنه رحمه الله ذكريات طيبة عطرة، فلو سجل كل واحد انطباعه عنه أو رأيه فيه لتوفر لدينا كتابٌ نفيس وكبير عن هذا الرجل العالم الرباني.

وممن بادر بالكتابة عنه تلميذه البار الأخ الدكتور عبد الإله بن حسين العرفج، المعروف بحبه ووفائه لشيخه، والعناية بنشر فضائله، والتعريف بحياته وعلمه من خلال ما كتبه، وقد أحسن في هذا العمل الجليل لهذا العالم النبيل.

وإذا سخر الإله أناساً لسعيد فإنهم سعداء

فبارك الله في جهود الأخ الدكتور عبد الإله في خدمة العلم، وكتب له الأجر فيما يبتغيه من تحقيق عوائد هذه الترجمة ومنافعها على طلاب العلم، والمشتغلين به من المسلمين حالاً ومآلاً.

والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه المفتقر إلى عفو المولى:

يحيى ابن الشيخ محمد بن أبي بكر الملا

عفا الله عنه

في ١٥/٤/١٤٣٧هـ

تقريظ الشيخ د. قيس بن محمد آل الشيخ مبارك الأحسائي المالكي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فقد رحلَ حَكِيمُ الأُمَّةِ الصَّحَابِيِّ الجليل عويمر بن مالك الأنصاري الخزرجي، المكنى أبو الدرداء، إلى الشام، فحين طاب له بها المقام، كتب لأخيه الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنهما: «هَلُمَّ إِلَى الأَرْضِ المَقَدَّسَةِ»، فأجابه سيِّدُنَا سلمانُ الفارسيُّ بقوله: «إِنَّ الأَرْضَ لا تُقَدَّسُ أَحَدًا، وَإِنَّمَا يُقَدَّسُ الإنسانَ عَمَلُهُ».

هذه الكلمة العظيمة عنوانٌ كبيرٌ وتاجٌ جليلٌ على رؤوس العظماء، ومن هؤلاء الكبار الشيخ الجليل أحمد بن عبد الله الدوغان، رحمه الله وأسكنه أعلى عليين، فإنه إذا ذُكرَ يستحضرُ المرءُ هذه العبارة، فقد أكرمه الله بعدد كبير من الطلبة الذين انتفعوا به، ونفع الله بهم خَلْقًا من عباده.

ومن هؤلاء الطلبة الصديقُ العزيز، العالم الفقيه، البَحَّاثُ الدكتور، عبد الإله ابن حسين العرفج، وهو اليوم يكتب كتاباً يلخصُ فيه مسيرة حياة شيخه، لتكونَ نموذجاً يُحتذى به، ومثالاً يسير المصلحون على هُديهِ.

فهذه السيرة العطرة مثالٌ للعالم الذي نفع الله بعلمه، وأجرى على يديه الخير، بأن

هَيَّأَ لَهُ عِدَدًا مِنْ الطَّلَبَةِ النَّابِهِيْنَ الْأَصْفِيَاءِ، انْتَفَعُوا بِعِلْمِهِ، بَلْ انْتَفَعُوا بِأَدَبِهِ قَبْلَ عِلْمِهِ، فَصَارَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ مَدْرَسَةً عَمَّ نَفْعُهَا، وَازْدَادَتْ الْأَحْسَاءُ - بِبِرْكَةِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ - بِهَوِّ لَاءِ الطُّلَابِ النَّجْبَاءِ الْأَوْفِيَاءِ، فَقَدْ اجْتَمَعَ فِيهِمُ الْعِلْمُ وَالْعِبَادَةُ، وَالْعَقْلُ وَالْأَخْلَاقُ الْعَالِيَةُ.

وَقَدْ كُنْتُ مِمَّنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِالتَّلْمِذَةِ بَيْنَ يَدَيْ شَيْخِي الْجَلِيلِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ الدَّوْعَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقَدْ طَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يُخَصِّصَ لِي مَعَ بَعْضِ الطُّلَابِ دَرَسًا فِي التَّجْوِيدِ، وَقَدْ كُنْتُ فِي حَرْجٍ شَدِيدٍ، كَيْفَ أَطْلُبُ مِنْهُ عِلْمًا مَيَسُورًا عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْقُرَّاءِ، وَهُوَ مَنْشَغُلٌ بِعِلْمِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا الْقَلِيلُ، وَرَغْمَ كَثْرَةِ دُرُوسِهِ وَكِبَرِ سِنِّهِ وَضَعْفِ جِسْمِهِ، فَقَدْ وَافَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِكُلِّ سُرُورٍ وَانْشِرَاحٍ، فَخَصَّصَ لَنَا هَذَا الدَّرْسَ، أَظْنَاهُ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ أَوْ خَمْسَةَ أَيَّامٍ فِي الْأُسْبُوعِ، كَانَ يَلْتَقِينَا بِانْشِرَاحٍ، وَيَعَامِلُنَا بِحِلْمٍ، وَيَكْرُمُنَا بِعَطْفِهِ، وَيَجِيبُ عَلَيَّ اسْتَفْسَارَاتِنَا بِأَرْيَحِيَّةٍ، كَأَنَّكَ تَعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ، وَانْتَهَيْنَا مِنْ قِرَاءَةِ هَذَا الْفَرْسِ، فَرَأَيْنَا أَنَّنَا اسْتَفَدْنَا مِنْ أَدَبِ الشَّيْخِ وَسَمَّتِهِ وَهَدْيِهِ قَبْلَ اسْتِفَادَتِنَا مِنْ عِلْمِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَتَمْضِي الْأَيَّامُ فَإِذَا بِالصَّدِيقِ الْعَزِيزِ الدُّكْتُورِ عَبْدِ الْإِلَهِ يَرْسِلُ إِلَيَّ كِتَابَهُ الَّذِي كَتَبَهُ عَنِ شَيْخِنَا النَّقِيِّ النَّقِيِّ، يَسْرُدُ فِيهِ سِيرَتَهُ وَمَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ بَذْلِ وَعَطَاءٍ، مَعَ زَهْدٍ وَوَرَعٍ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ السَّيْرَةُ مِنْ نُكْرَانٍ لِلذَّاتِ، وَنَسْيَانٍ لِحَظِّ النَّفْسِ، وَهَذَا شَأْنُ الصَّالِحِينَ، كَلِمَا عَظُمَتْ أَعْمَالُهُمْ أَوْ غَلَوُا فِي نُكْرَانِهِمْ لَذَاتِهِمْ، وَانْكَسَارِهِمْ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

جَزَى اللَّهُ الشَّيْخَ عَبْدِ الْإِلَهِ خَيْرًا عَلَى مَا قَدَّمَ لِلْمَكْتَبَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ نَفِيسِ هَذِهِ السَّيْرَةِ النَّبِيَّةِ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لِشَيْخِنَا، وَأَنْ يَجْمَعَنَا بِهِ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى.

وَكْتَبَهُ:

قَيْسُ بْنُ مُحَمَّدِ آلِ الشَّيْخِ مَبَارِكُ

أَسْتَاذُ الْفِقْهِ بِجَامِعَةِ الْمَلِكِ فَيَصِلُ بِالْأَحْسَاءِ

تقريظ الشيخ د. أحمد بن عبد اللطيف العرفج الأحسائي الشافعي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المولى الملك العلام، والصلاة والسلام على خير الأنام، المربي بحسن سيرته كل من رام الاقتداء به على التمام، المقتدى به في كل أحواله، المنتفع به في جميع أقواله وأفعاله، القائل: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه البررة الكرام.

وبعد،

فإن من أعظم ما يحرك الهمم ويوقدها، ويحث على طلب العلم ومدارسته، وينشط على العمل به وتطبيقه، ويجعل الدين تطبيقاً على النفوس والأبدان، وليس بين الأسطر ودفتي الكتب فقط، قراءة تراجم العلماء العاملين، والدعاة المخلصين الربانيين، الذين أخلصوا الله سبحانه وتعالى في حياتهم كلها، ومنها تعلمهم للعلم، وتعليمهم إياه، المنصرفين عن ملذات الدنيا وشهواتها، إلى إعمار الآخرة باستغلال الدنيا وتربية الأجيال.

وقد مضى سلفنا الصالح على هذا قرناً متطاولة، وكان من آخرهم شيخنا الشيخ أحمد بن عبد الله الدوغان الذي جمع بين العلم والعمل والتربية، وقد كان من

أعظم القدوات لنا بعد رسول الله ﷺ؛ لأننا عايشناه، والإنسان يتأثر بما يراه ويحس به أكثر مما يقرأه ويتخيله، ولذا كان تأثر الصحابة رضوان الله عليهم برسول الله ﷺ أكثر من غيرهم.

وشيخنا - رحمه الله - الذي هو بقية السلف، يذكرنا بالسلف الصالح في كثير من المواقف التي رأيناها منه، وعشنا معه فيها، وسترى - أخي القارئ - طرفاً من هذه المواقف في هذا الكتاب المبارك إن شاء الله، وما هذه المواقف إلا قليل من كثير، وغيض من فيض، وهي رموز تشير إلى الكثير مما ظهر وخفي من حياة شيخنا رحمه الله، وأحسن مثواه.

ولهذا أشكر أئحانا الشيخ د. عبد الإله ابن العم حسين بن الشيخ محمد العرفج، الذي صاغ هذه الترجمة لشيخنا رحمه الله، والمواقف والحوادث، بأسلوبه الجميل والصياغة المشوقة.

نسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب كل من اطلع عليه، وأن يديم النفع به؛ حتى تظهر لنا أجيال متجددة، تسلك سبيل سلفنا الصالح، فتبقى سلسلة السلف متصلة لا تنقطع، فتعم بركتهم والافتداء بهم على مر العصور، بفضل الله وكرمه، إنه سميع مجيب، وصلى الله على خير خلقه أجمعين، سيدنا وقدوتنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

كاتبه:

أحمد بن عبد اللطيف العرفج

تقريظ الشيخ عبد المحسن بن محمد البنيان الأحسائي الحنبلي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه
ومن والاه.

وبعد،

فإن العلماء ورثة الأنبياء، ولهم دور عظيم في نشر العلم، والدفاع عن الدين،
وإرشاد الناس، ودالاتهم إلى معالم دينهم، ومحاربة البدع، والإصلاح بين الناس.
ومن حق العلماء الأعلام على طلابهم وتلامذتهم ألا ينسوه، وأن يشيدوا
بمآثرهم، وأن يدونوا سيرتهم وتاريخهم؛ لتنهل منه الأجيال القادمة، وليستفيدوا
منه، وينهلوا من معينهم.

والله سبحانه وتعالى قد أثنى على العلماء في كتابه العزيز، فقال عز وجل:
﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا
لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ
مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال سيدنا محمد ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السماوات

والأرض، حتى الحيتان في البحر، يُصَلُّون على معلِّمي الناس الخير»، وقال ﷺ: «فضل العالم كفضلي على أدناكم»، وقال ﷺ: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط».

وقد وفق الله الشيخ الدكتور عبد الإله بن حسين بن الشيخ محمد العرفج لتأليف رسالة في سيرة شيخنا فضيلة الشيخ أحمد بن عبد الله الدوغان، ذكر فيها سيرته العطرة، وطلبه للعلم، ومشايخه، وتنقله لطلب العلم، وكفاحه، وأعماله التي زاولها، ثم تفرغه بعد تقاعده للتدريس والتعليم احتساباً، والشيخ أحمد رحمه الله عالم جليل، متضلع في الفقه والتفسير والحديث والنحو، ومرجع في فقه الأحكام للشافعي رحمه الله ورضي عنه، وأنا أحد طلابه في المدرسة الأميرية بالهفوف، وأشهد له بالعلم والفضل، وهو رجل جاد وقور، بشوش متواضع، محبوب من أقرانه وطلابه وجيرانه ومعارفه، فأسأل الله أن يجزيه الجزاء الأوفى على ما قدم من الأعمال الصالحة، ونشر العلم، وبذله لطلابه، وأن ينزله منازل الأبرار، وأن يسبغ عليه الرحمة والرضوان.

كما أشكر فضيلة الشيخ الدكتور عبد الإله بن حسين العرفج على جهوده في تسجيل سيرة شيخنا الشيخ أحمد رحمه الله، والشكر موصول لفضيلة الشيخ الدكتور عصام بن عبد العزيز بن محمد الخطيب الجعفري على جهوده في هذا السبيل، شكر الله صنيعهما، وضاعف لهما الأجر والمثوبة، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه وسلم.

عبد المحسن بن محمد بن عبد العزيز البنيان


١٤٢٤/٤/٦

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على رسوله الأمين، نبينا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الكرام الميامين، ومن تبعهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين، واجعلنا اللهم منهم وفيهم ومعهم يا رب العالمين.

أما بعد،

فإن أعظم قدوة عرفتها البشرية، وأمر بالاعتداء بها رب البرية، رسول الله، ونبيه ومصطفاه، محمد بن عبد الله، عليه من الله أتم سلام وأكمل صلاة، فقال جل في علاه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وكيف لا؟ وقد زكاه الله، وهذب به واجتباها، فقال عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وكان من فضل الله على عباده المؤمنين، أن يسر لهم رواية وتدوين سيرة سيد المرسلين، فحفظت للأمم أخلاقه وشمائله، وخصائصه وفضائله، بل بلغت الدقة في تدوين كل ما يتعلق بجناحه الأعظم، ومقامه الأفخم ﷺ، أن نقل لنا عدد الشَّعرات البيضاء، في وجهه الوضاء، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «ما عددت في رأس رسول الله ولحيته إلا أربع عشرة شعرة بيضاء»، رواه عبد الرزاق في مصنفه، ومن طريقه رواه أحمد في مسنده، والترمذي في شمائله.

ولمَّا كان العلماءُ ورثةَ الأنبياءِ - كما رواه أبو داودَ والترمذيُّ وابنُ ماجه -، فإنَّهم لَمْ تَقْتَصِرْ وراثتهم على العِلْمِ والمعرفة، بل امتدَّت إلى الأخلاقِ المشرفَّة، فكما كانوا حريصين على نَيْلِ حظِّهم من العِلْمِ المحمَّدي، فقد كانوا حريصين على إدراكِ نصيبهم من الخُلُقِ النَّبويِّ.

وقد جاء في دواوين الإسلامِ ما يؤكدُ حرصَ المؤمنين، على التَّشْبُهِ بسيدِ المرسلين، قالت عائشةُ رضي الله عنها: «ما رأيتُ أحداً كان أشبهَ سَمْتاً وهدياً ودلاًّ برسولِ الله ﷺ من فاطمةَ كَرَمَ اللهُ وجهها»، رواه أبو داودَ والترمذيُّ، والسَّمْتُ هو الاعتدالُ والاستقامة، والهدْيُ هو الطريقةُ والسيرَةُ، والدُّلُّ هو الحالةُ والهيئة.

وسُئِلَ حذيفةُ بنُ اليمانِ رضي الله عنه عن رجلٍ قريبِ السَّمْتِ والهدْيِ من النبيِّ ﷺ؛ لِيُؤَخِّدَ عنه وَيُسْمَعَ منه، فقال: «ما أعرفُ أحداً أقربَ سَمْتاً وهدياً ودلاًّ بالنبيِّ ﷺ من ابنِ أمِّ عبدٍ - أي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه - حتى يُوارِيَه جدارُ بيته»، رواه البخاريُّ وأحمدُ والترمذيُّ.

ثم كان التابعونَ ومن بعدهم، يُشَبَّهونَ بمن قبلهم؛ حرصاً منهم على الاقتداءِ والاهتداءِ، بسيرةِ العلماءِ ورثةِ الأنبياءِ، فكما كان عبدُ الله بن مسعودٍ رضي الله عنه (...- ٣٢هـ) يُشَبَّه بالنبيِّ ﷺ، فقد كان علقمةُ بنُ قيسٍ (...- ٦٢هـ) يشبَّه بعبدِ الله بن مسعود، وكان إبراهيمُ النخعيُّ (٤٦- ٩٦هـ) يشبَّه بعلقمة بن قيس، وكان منصورُ بنُ المعتمرِ (...- ١٣٢هـ) يشبَّه بإبراهيمَ النخعي، وكان سفيانُ الثوريُّ (٩٧- ١٦١هـ) يشبَّه بمنصورِ بنِ المعتمر، وكان وكيعُ بنُ الجراحِ (١٢٩- ١٩٧هـ) يشبَّه بسفيانِ الثوري، وكان أحمدُ بنُ حنبلٍ (١٦٤- ٢٤١هـ) يشبَّه بوكيع بنِ الجراح، وكان أبو داودَ (٢٠٢- ٢٧٥هـ) يشبَّه بأحمدَ بنِ حنبلٍ، رحمهم اللهُ جميعاً، ذكره الخطيبُ البغداديُّ في تاريخِ بغداد (٥٨/٩).

وكان من عناية الله، بأمة نبيه ومصطفاه، أن أخرج لهم على مرّ الأيام، وتجدد الأعوام، وتوالي العصور، وتعاقب الدهور، أئمة يهتدي بهم السالكون، ويقتدي بهم الناسكون، يُجددون للأمة أمر دينها، ويبعثون فيها حياةً من موتها، أولئك هم العلماء، والصالحون الفضلاء، والدعاة البصراء، والقادة الحكماء، يقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»، رواه أبو داود، ويقول ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ، لَا يُدْرِي أَوْلَهُ خَيْرٌ أَوْ آخِرُهُ»، رواه أحمد والترمذي، ويقول ﷺ: «لَيُدْرِكَنَّ الْمَسِيحُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَقْوَامًا، إِنَّهُمْ لَمِثْلُكُمْ أَوْ خَيْرٌ - ثلاث مرات -، ولن يُخزِي الله أمةً أنا أولها والمسيح آخرها»، رواه ابن أبي شيبة.

وهذا الكتاب الذي بين يديك كتابٌ يُلخّص سيرة رجل، اجتمع في شخصه عدّة شخصيات، فقد كان عالماً مريباً، وعابداً متوارياً، وداعياً بصيراً، وحليماً صبوراً، وأخاً صديقاً، وأباً مشفقاً، إنه الشيخ أحمد بن عبد الله الدوغان، رفع الله منزلته إلى أعلى الجنان.

وقد لازمت هذا الشيخ ولازمه غيري، مُدّة تقاربُ أربعة عقودٍ من عمري، فخبّرناه عن قريب، ولازمناه ملازمة رقيب، في دروسه وحلقاته، وفي سفره ورحلاته، وفي بيته ومسجده، وفي بستانه ومعهدّه، فرأيناه مثلاً يُحتذى، وقُدوةً بها يُقتدى.

ونظراً لأهمية تخليد سير النبلاء، وتوثيق مناهج العلماء، وتقديم القُدوات للأجيال؛ ليتعرّفوا على حقائق الرجال، ولما لشيخنا علينا من عظيم المنّة، ولما أسدى إلينا من علوم الكتاب والسنة، فقد توجّب على طلابه توثيق سيرته، وتخليد منهجه وطريقته، فقيّدوا ما لديهم من معلومات، وجمّعوا ما أمكنهم من متفرقات، ثم اختاروا أحاهم للكتابة، راجين له التوفيق والإصابة.

وقد أسميت هذا الكتاب: «الشيخ أحمد بن عبد الله الدوغان: مجدّد المدرسة

الشافعية في الأحساء»، وقَسَّمَتْهُ إلى هذه المقدمةِ وتسعةِ فصولٍ وخاتمةٍ، كما يلي:

الفصل الأول: المكان والزمان.

الفصل الثاني: السيرة الشخصية.

الفصل الثالث: تأسيس المدرسة.

الفصل الرابع: أخلاق الشيخ.

الفصل الخامس: الشيخ المُعَلِّم.

الفصل السادس: الشيخ المُربِّي.

الفصل السابع: الشيخ الداعية.

الفصل الثامن: وفاة الشيخ.

الفصل التاسع: الشيخ في عيون محبيه.

وبعد أن يَسَّرَ اللهُ إتمامَ كتابتِهِ، وإكمالَ سَبْكِه وصياغَتِهِ، قرأناه في منزلِ شيخنا في ضحى أيامِ السبتِ مِن كلِّ أسبوعٍ، في عدةِ مجالسٍ، بدأتُ في ٣/١/١٤٣٧ هـ، وانتهت في ٢٢/٣/١٤٣٧ هـ، بحضورِ جمعٍ من تلاميذه وطلابِهِ، وأهلِهِ وأحبابِهِ.

واللهُ أسألُ أن يجزيَ خيراً كلَّ مَنْ أسْهَمَ في بروزِ هذا الكتابِ بهذا المَخْبِرِ والمَظْهَرِ، سواءً بعلمٍ أو جهدٍ أو وقتٍ أو مالٍ، وأسألهُ سبحانه أن يحقِّقَ الكتابُ غايَتَهُ، وأن يجدَ طالبُ العِلْمِ فيه بُغيَتَهُ، وأن يُخْلِصَ لنا النيةَ، ويُبارِكِ في الأهلِ والذريةِ، ويُصلِحَ الراعيَ والرعيةَ، وصَلَّى اللهُ وسلَّم على سيدنا ونبينا محمدٍ، وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، وتابعيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين، والحمدُ لله ربَّ العالمين.

عبد الإله بن حسين العرفج

١٤٣٧/٥/٥ هـ

الفصل الأول

المكان والزمان

وُلِدَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الدَّوْغَانِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَامَ ١٣٣٢ هـ فِي حَيِّ الكُوتِ، مِنْ أَحْيَاءِ مَدِينَةِ الْهَفُوفِ، فِي مَحَافِظَةِ الْأَحْسَاءِ، إِحْدَى مَحَافِظَاتِ الْمُنَطَقَةِ الشَّرْقِيَّةِ، فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ، وَتُوفِّيَ عَامَ ١٤٣٤ هـ، أَيْ أَنَّهُ عَاشَ قَرْنَاً مِنَ الزَّمَانِ، وَقَدْ كَانَ لِبَيْتِهِ الْمَكَانِيَّةِ وَالزَّمَانِيَّةِ تَأْثِيرٌ عَلَى تَكْوِينِهِ الشَّرْعِيِّ وَمَنْهَجِهِ الْفِكْرِيِّ، وَقَدِيمًا قِيلَ: «الإنسانُ ابنُ بَيْتِهِ».

وَكَلِمَةُ «الأحساء» جَمْعُ حَسِيٍّ، وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي تَشْرَبُهُ الْأَرْضُ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَى طَبَقَةٍ صَلْبَةٍ أَمْسَكَتَهُ، فَيُمْكِنُ اسْتِخْرَاجُهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْحَفْرِ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْأَحْسَاءَ تَشْتَهَرُ بِكَثْرَةِ عَيُونِهَا السُّطْحِيَّةِ، وَكَانَ اسْمُ الْأَحْسَاءِ يُطْلَقُ سَابِقًا عَلَى أَجْزَاءٍ كَبِيرَةٍ مِنَ السَّاحِلِ الشَّرْقِيِّ لِلْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، ثُمَّ صَارَ يُطْلَقُ عَلَى الْإِقْلِيمِ الْمُتَمَدِّدِ مِنَ الْبَصْرَةِ إِلَى عُمَانَ، وَمِنْ سَاحِلِ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ إِلَى نَجْدٍ، ثُمَّ اقْتَصَرَتْ التَّسْمِيَةُ عَلَى مَحَافِظَةِ الْأَحْسَاءِ الْحَالِيَّةِ بِمَدْنِهَا وَقُرَاهَا وَبَوَادِيهَا.

وَتَتَكُونُ مَحَافِظَةُ الْأَحْسَاءِ مِنْ خَمْسِ مَدُنٍ: الْهَفُوفِ وَالْمُبَرِّزِ وَالْعُيُونِ وَالْجَفْرِ وَالْعُمْرَانَ، وَعَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْقُرَى وَالْهَجَرِ، أَمَّا مَدِينَةُ الْهَفُوفِ فَهِيَ مَقَرُّ حُكْمِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ فِي كِلَا دَوْرَيْهَا (٩٥٦-١٠٨٢ هـ) و(١٢٨٨-١٣٣١ هـ)، وَالدَّوْلَةِ السُّعُودِيَّةِ فِي أَدْوَارِهَا الثَّلَاثَةِ (١٢٠٧-١٢٣٣ هـ) و(١٢٤٦-١٢٨٨ هـ) و(١٣٣١-الوقت الحاضر)، وَمِنْ أَحْيَائِهَا الْقَدِيمَةِ: الكُوتِ - وَهُوَ أَشْهَرُهَا، وَمَرْكَزُ

الحُكْم، ومَقَرُّ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ، وَمَسْقَطُ رَأْسِ الشَّيْخِ الدَّوْغَانِ - وَالنَّعَائِلُ وَالرَّفْعَةُ وَالرُّقَيْقَةُ وَالصَّالِحِيَّةُ، وَيَتَّبَعُهَا عَدَدٌ مِنَ الْقُرَى، وَقَدْ تَقَاسَمَهَا ثَلَاثَةُ مَذَاهِبَ فِقْهِيَّةٍ: الْمَذْهَبُ الْحَنْفِيُّ وَالْمَذْهَبُ الْمَالِكِيُّ وَالْمَذْهَبُ الشَّافِعِيُّ - وَهُوَ الْأَكْثَرُ - .

أَمَّا مَدِينَةُ الْمُبَرَّزِ فَهِيَ مَقَرُّ حُكْمِ دَوْلَةِ بَنِي خَالِدٍ فِي كِلَا دَوْرَيْهَا (١٠٨٢ - ١٢٠٧ هـ) و(١٢٣٣ - ١٢٤٦ هـ)، وَمِنْ أَحْيَائِهَا الْقَدِيمَةِ: السِّيَاسِبُ وَالْعُيُونِيُّ وَالْمُقَابِلُ وَالْقَدِيمَاتُ، وَيَتَّبَعُهَا عَدَدٌ مِنَ الْقُرَى - وَمِنْهَا قَرْيَةُ الْكِلَابِيَّةِ الَّتِي يَوْجَدُ بِهَا مَسْجِدُ جُوَاثَا الَّذِي صُلِّيَتْ فِيهِ ثَانِي جُمُعَةٍ فِي الْإِسْلَامِ -، وَقَدْ تَقَاسَمَهَا ثَلَاثَةُ مَذَاهِبَ فِقْهِيَّةٍ: الْمَذْهَبُ الْمَالِكِيُّ - وَهُوَ الْأَكْثَرُ - وَالْمَذْهَبُ الشَّافِعِيُّ وَالْمَذْهَبُ الْحَنْبَلِيُّ .

وَقَدْ كَانَتْ الْأَحْسَاءُ آهَلَةً بِالْمَدَارِسِ الشَّرْعِيَّةِ، الَّتِي تَعْتَنِي بِتَدْرِيسِ الْعُلُومِ النَّقْلِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ، الْأَمْرُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى نَشَاطِ الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَازْدَهَارِهَا، وَحَيَوِيَّتِهَا وَانْتِشَارِهَا، وَقَدْ تَعَدَّدَتِ الْمَدَارِسُ الشَّرْعِيَّةِ، تَبَعًا لَتَعَدُّدِ الْمَذَاهِبِ الْفِقْهِيَّةِ .

فَمِنْ مَدَارِسِ السَّادَةِ الْحَنْفِيَّةِ:

• مَدْرَسَةُ الْقُبَّةِ، وَتَقَعُ فِي حَيِّ الْكُوتِ بِالْهَفُوفِ، قُبَالَةَ قَصْرِ إِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ أَوْقَفَهَا الْأَمِيرُ عَلِيُّ بَاشَا سَنَةَ ١٠١٩ هـ .

• الْمَدْرَسَةُ الشُّلْهُوبِيَّةُ، وَتَقَعُ فِي حَيِّ الْكُوتِ بِالْهَفُوفِ، وَقَدْ أَوْقَفَهَا بَكْرُ ابْنِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَصْرِيِّ الزُّبَارِيِّ الْقَطْرِيِّ سَنَةَ ١١٨٣ هـ .

• الْمَدْرَسَةُ الْقِبْلِيَّةُ، وَتَقَعُ فِي حَيِّ الْكُوتِ بِالْهَفُوفِ، وَقَدْ أَوْقَفَهَا الشَّيْخُ أَبُو بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِ الْمَلَا سَنَةَ ١٢٥٧ هـ بَوَكَالَتِهِ عَنِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ بْنِ عَثْمَانَ ابْنِ جَامِعِ قَاضِي الْبَحْرَيْنِ بَوْلَايَتِهِ عَنِ الشَّيْخِ جَمْعَةَ بْنِ خَلِيفَةَ .

• المدرسة الجديدة، وتقع في حي الكوت بالهفوف، وقد أوقفها عليُّ ابن دهنيم العُماني سنة ١٢٩٢ هـ.

• رِباطُ آلِ أبي بكر الملا، ويقع في حي الكوت بالهفوف، وقد قام ببنائه الشيخُ عبدُ الله بنُ أبي بكر الملا، وأوقفه سنة ١٢٨٤ هـ بوكالته عن عبد الله وسليمانِ ابني أحمد بن عيسى من البحرين، أصالةً عن نفسيهما وولايةً عن أخويهما محمد وعلي، وذلك لكثرة الإقبالِ من الأحساءِ وخارجها على طلبِ العلومِ الشرعية.

• مدرسة القرآن الكريم، وتقع في حي الكوت بالهفوف، وقد أوقفها سليمانُ ابن أحمد بن عيسى وإخوانه عبدُ الله ومحمدٌ وعليُّ من البحرين سنة ١٢٩٥ هـ.

ومن مدارسِ السادةِ المالكية:

• مدرسة الكثير، وتقع في حي العيوني بالمبرز، وقد أوقفت سنة ١١٤٣ هـ.

• مدرسة ابنِ غرّيبين، وقد أوقفها حمدُ بنُ موسى بنِ غرّيبين سنة ١١٧٥ هـ.

• مدرسة النعائل، وتقع في حي النعائل بالهفوف، وقد بناها وأوقفها الشيخُ

مباركُ بنِ علي بنِ قاسم التميمي في العَقْدِ الأخيرِ من القرنِ الثاني عشر الهجري.

• مدرسة الشّهازنة، وتقع في حي الرفعة بالهفوف، وقد بناها محمدُ بنُ

خليفة الحملي في أواخرِ القرنِ الثاني عشر الهجري.

• مدرسة الخليفة، وتقع في حي المقابل بالمبرز، وقد بناها الشيخُ خليفةُ

ابن محمد الخليفة من أمراءِ البحرين، ويُرجَّح أنها بُنيت في أواخرِ القرنِ الثاني

عشر الهجري.

• مدرسة الزّواوي، وتقع في حي العيوني بالمبرز، وقد أوقفها بكرُ بنُ

أحمد البصري الزُّباري القطري في أواخرِ القرنِ الثاني عشر الهجري.

- مدرسة المصري، وتقع في حي العتبان بالمبرز، وقد أوقفها عبدُ الله بنُ حسين الفارسي في أواخر القرن الثاني عشر الهجري.
 - مدرسة الملحَم، وتقع في حي النعائل بالهفوف، وقد أوقفها الشيخُ سعيدُ ابنُ إسماعيلَ الحمد الملحَم؛ لتعليم القرآن الكريم، ويُقدَّر وقتُ إنشائها ما بين سنتي ١١٦٣هـ و١٢٦٣هـ.
 - مدرسة الدوسري أو مدرسة الجبري، وتقع في حي القديمات بالمبرز، وقد أوقفها جبرُ الدوسري.
 - مدرسة الشَّرِيفَة، وتقع في حي الرفعة بالهفوف، وقد أوقفها عبدُ الله بنُ سليمان بن دهنيم وراشدُ بنُ محمد القاسمي سنة ١٣٠٥هـ.
 - مدرسة الصالحية، وتقع في حي الصالحية بالهفوف، وقد أوقفها الشيخُ إبراهيمُ بنُ عبد اللطيف الشيخ مبارك عن موكله ناصر بن عبد الله بن لوتاه من دُبي سنة ١٣٢٨هـ.
 - مدرسة الدَّرِيبِيَّة، وتقع في حي النعائل بالهفوف، وقد أسسها الشيخُ عبدُ الله بنُ صالح العمر الملحَم سنة ١٣٨٩هـ.
- ومن مدارسِ السادةِ الشافعية:
- المدرسةُ الباشَوِيَّة، وتقع في حي الكوت بالهفوف داخل قصر إبراهيم، وقد أوقفها الأميرُ علي باشا في القرن الحادي عشر الهجري.
 - مدرسةُ العثمان، وتقع في حي الكوت بالهفوف، وقد أوقفها مصطفى ابنُ محمد باشا في القرن الحادي عشر الهجري، ثم انهار جزءٌ منها، فبناه إبراهيمُ ابنُ نصر وجمعانُ بنُ محمد بن جمعان من البحرين سنة ١٢٣٦هـ.

- مدرسة العُمَيْر، وتقع في حي الكوت بالهفوف، وقد بناها الشيخُ عبدُ الله ابنُ محمد العمير، وأوقفها ابنُه عثمانُ بطريقِ الوصاية عن أبيه سنة ١١٦٧ هـ.
 - مدرسة النُّعَيْم، وتقع في حي النعائل بالهفوف، وقد أوقفها عليُّ بنُ غانم وراشدُ بنُ ماجد وحسنُ بنُ محمد بنِ قرص سنة ١١٩٥ هـ.
 - المدرسة الشماليَّة، وتقع في محلة العتبان بالمبرز، وقد أوقفت علي الشيخ عبد الله بن أحمد العبد القادر سنة ١٢٢١ هـ.
 - مدرسة المُجَيْلِس، وتقع في حي النعائل بالهفوف، وقد بناها عبدُ الله بن راشد المؤمن سنة ١٢٦٠ هـ.
 - مدرسة العبد اللطيف، وتقع في حي الكوت بالهفوف، وقد أوقفها عبدُ الرحمن بنُ راشد الخليفة من البحرين سنة ١٢٦٢ هـ.
 - مدرسة الفلاح، وتقع في حي الكوت بالهفوف، وقد أوقفها حسنُ بنُ محمد بنِ خاطر البوعيين سنة ١٢٧٢ هـ.
 - مدرسة السُّعدون، وتقع في حي السياسب بالمبرز، وقد أوقفها سعدونُ ابنُ سيف السعدون سنة ١٢٧٤ هـ.
- ومن مدارسِ السادةِ الحنابلة:
- مدرسة العفالق، وتقع في حي القديمات بالمبرز.
 - مدرسة الفَيْرُوز أو مدرسة الرُّمَيْص، وتقع في حي العيونى بالمبرز.
- وقد ضُمَّت الأحساءُ في صدرِها عدداً كبيراً من العلماء، مِن مُختلفِ المذاهبِ الفقهيَّة الأربعة، منذُ عدةِ قرون، وقد رحل إليها عددٌ كبيرٌ من طلابِ العِلْمِ مِنَ البلادِ المحيطةِ بها، كدُولِ الخليجِ والعراقِ وفارسِ ونجد، وأسهمتْ

إسهاماً فعّالاً في تقدّم الحركة العلمية في تلك الأقطار، وهاتيك الأمصار^(١).
وممن شهدوا للأحساء بمكانتها العلمية من العلماء الوافدين عليها الشيخ
العلامة محمد بن أحمد العمري الموصلي الشافعي رحمه الله (...-١٢١٢هـ)^(٢)،
فقد وفد على الأحساء في العقد الأخير من القرن الثاني عشر الهجري، فأدهشه
نشاطها العلمي، فاستوطنها، ونظم في علمائها قصيدته التي مطلعها:

قَصْرَتْ لَعَمْرُكَ هِمَّةُ الْجُوزَاءِ عَنْ نَيْلِ شَأْوٍ مَرَاتِبِ الْعَلِيَاءِ
إِلَى أَنْ قَالَ:

جُبْتُ الْفِيَايَ وَالْقِفَارَ جَمِيعَهَا بَرًّا وَبِحِرَاكِي أَنْالَ مُنَائِي
وَشَرَعْتُ فِي السَّفَرِ الْحَمِيدِ بِلَدَّتِي دَارِ الْأَفْضَلِ مُوَصِّلِ الْحَدْبَاءِ
وَبَقَيْتُ مُتَقَلِّلاً إِلَى أَنْ جِئْتُ فِي بَلَدِ الْكِرَامِ مَعَادِنِ الْإِسْدَاءِ
أَعْنِي بِهَا الْأَحْسَاءَ أَحْسَنَ كُلِّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ بَلَدٍ بَغِيرِ مَرَاءِ
فَأَقَمْتُ فِيهَا مُدَّةً أَجْنِي جَنِي ثَمَرَاتِ رَوْضَةٍ لَذَّتِي وَصَفَائِي
وَوَجَدْتُ أَهْلِيهَا مَشَايخَ سَادَةً صَافِينَ مِنْ حَسَدٍ وَمِنْ بَغْضَاءِ
وَرَأَيْتُهُمْ أَهْلَ اعْتِقَادٍ صَادِقٍ وَبِهَا اجْتَمَعْتُ بِغَالِبِ الْعِلْمَاءِ

(١) انظر كتابي «أضواء على الحياة العلمية في الأحساء في التاريخ الحديث»، فقد ذكرت فيه
أبرز علماء الأحساء، ومؤلفاتهم العلمية، ونماذج من علاقاتهم الشخصية، وتفاعلهم مع الشأن
العام، ومدارسهم الشرعية، ومنهجهم الفقهي، وأساليبهم العلمية، وعلاقاتهم العلمية بالعالم
الإسلامي، وقصيدة العمري الآتية.

(٢) انظر ترجمته في هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/٣٤٤)، تأليف إسماعيل
البغدادي، ومعجم المؤلفين (٨/٢٩٨)، تأليف عمر كحالة، والأعلام (٦/١٦٦)، تأليف
خير الدين الزركلي.

ولذلك فلا عجب أن غدت الأحساء مركزاً علمياً رائداً على مستوى العالم الإسلامي، فقد قال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام رحمه الله (١٣٤٦هـ) - (١٤٢٣هـ): «وكان يُقال: لا يبلُغ طالبُ العِلْمِ كماله - والكمالُ لله - حتى يتخرَّجَ أو يحضُرَ دروساً في سبعِ مدارسٍ في سبعةِ بلدان: مدرسة الدُّويحسِ في الزُّبير، ومدرسة آل أبي بكرٍ في الأحساء، ومدرسة آلوسِيّ في بغداد، والأزهرِ في مصر، ومدرسة المُرادية في دمشق، وكان طالبُ العِلْمِ إذا استوفى يؤمُّ الحرمين الشريفين لحضورِ بعضِ حلقاتِ شيوخِ الحرمين في مكة والمدينة، ثم يُعرجُ على عُيُنة والقصيم، وكان عصرُ العِلْمِ قد استنارَ في القرنينِ الثالث عشر والرابع عشر الهجريين»^(١).

ذلكم كان المكان، أمّا الزمانُ فقد وُلِدَ الشيخُ الدوغان عامَ ١٣٣٢هـ، وتُوفِّيَ عامَ ١٤٣٤هـ، وخلال تلك المدة كانت الأحساء تنعمُ بأمنٍ واستقرار، إذ قبلَ ولادةِ الشيخِ الدوغان بسنةٍ واحدة، وبالتحديد في ليلةِ الخامس من شهرِ جُمادى الأولى من عام ١٣٣١هـ، انضمت الأحساء للدولة السعودية الثالثة بقيادة مؤسسها الملكِ عبد العزيز آل سعود رحمه الله، وقد نتج عن هذا إنقاذُ الأحساء من الفوضى واختلالِ الأمنِ إثرَ انهيارِ الدولة العثمانية، ومُنذُ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا والأحساء تنعمُ - مع بقيةِ مدنِ المملكة العربية السعودية - بأمنٍ واستقرارٍ ورخاء.

في تلك البيئة التي يسحُّ منها العِلْمُ سحّاً، ويتشرُّ فيها الأمنُ مساءً وصباحاً، وُلِدَ الفتى أحمدُ الدوغان، مَحْوَطاً بِالْعِلْمِ وَالْأَمَانِ، فَأَيَقَظَتْ فِيهِ هِمَّةً لِحَفْظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْذُ نَعُومَةِ أَظْفَارِهِ، وَلَطَبِ الْعِلْمِ الشَّرِيفِ قَبْلَ نَبَاتِ عِدَارِهِ.

(١) علماء نجد خلال ثمانية قرون (١/٣٩٠)، تأليف عبد الله بن عبد الرحمن البسام.

ولكنَّ العائقَ الأعظم، والحائلَ الأطم، الذي كان يقفُ أمامَ طالبِ العلمِ، فهو الفاقةُ والفقر، وعَضَّةُ أنيابِ الدَّهرِ، إذ إنَّه لَمَّا نَهَلَ مِنْ معينِ العلمِ وذاقَ حلاوته، وكرَعَ مَنْ كاساتِ الشرعِ وأدركَ طلاوته، حَجَزَتْهُ عوائقُ الفاقةِ والفقر، عن مواصلةِ التحصيلِ والسَّيرِ، فاضطَّرَّ للسفرِ إلى الهند، وقد بلغَ في طلبِ العلمِ غايةَ الجِدِّ، ثم لَمَّا عادَ الرجلُ مشتاقاً للأهلِ والأرضِ، كان أشياخُه قد وُسدوا طباقَ الأرضِ، فتزوَّجَ ثم رحَلَ ثانيةً إلى مدينةِ عَنَكِ في طلبِ الكفافِ؛ لسدِّ حاجةِ بطونٍ خفافِ.

ولَمَّا رجعَ الشيخُ للأحساء، واصلَ مسيرةَ العلمِ والبناءِ، أستاذًا في المدارسِ النظاميةِ، ومُعلِّمًا للعلومِ الشرعيةِ، ولَمَّا تَأَهَّلَ لتبليغِ الأمانةِ، أخذَ يبحثُ عن ذَوِي الفَهْمِ والْفَطَانَةِ، فلمْ يجدْ لبضاعتهِ المشتري، وصدَّقَ فيه قولُ القائلِ: «لَمَّا غلا ثَمَنِي عَدِمْتُ المشتري»، وتلك كانت مشكلته الأخرى، ومعضلته الكبرى.

فقد اجتذبت الحياةُ الجديدةُ، التي تزامنت مع قيامِ الدولةِ الوليدةِ، بمدارسها النظاميةِ، وجامعاتها العلميةِ، ووظائفها المُغرِيةِ، وعوائلها المُجزِيةِ، اجتذبت أنظارَ الشبابِ، وأسالتْ بشهاداتها ورواتبها منهم اللُّعابِ.

فصبرَ الشيخُ على تلك المصيبةِ صبرًا، مُتَجَرِّعًا مِنْ غُرْبَةِ العلمِ مُرًّا، فبدأتْ عجلةُ العلمِ تتباطأ، وكادتْ رؤوسُ أهلِ العلمِ تتطاطأ، فأخذَ الشيخُ يسألُ اللهَ فتحًا، وأن يُعقِبَ الليلَ صباحًا، فانفجرتْ الأزمَةُ على غيرِ ميعادِ، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ [الأنفال: ٤٢]، وإذا بطلابِ العلمِ حولَ شيخهم يتحلَّقون، ومن معينِ علمه يستقون، فاتصلَ مِنَ العلمِ إسنادهُ، وأقيمَ مِنَ البيتِ عمادهُ، وصدحتْ مزاميرُ العلمِ في كلِّ نادٍ، واستظلَّ في وارفِ ظلِّه حاضرٌ وباد.

الفصل الثاني السيرة الشخصية

هو الشَّيْخُ الفقيهُ المرَبِّيُّ أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ حُسَيْنِ ابنِ سالمِ الدُّوغانِ، من المَهَاشِيرِ من قبيلةِ بني خالد، وُلِدَ عام ١٣٣٢ هـ في حيِّ الكُوتِ في مدينةِ الهُفوفِ في محافظةِ الأحساءِ، في بيتِ فَضْلِ وعِلْمٍ وصلاحٍ وتقوى، فقد كان والده من طُلَّابِ العِلْمِ ومُحِبِّي العُلَمَاءِ، أمَّا جدُّه محمدٌ فقد كان من العُلَمَاءِ، وكذلك جدُّه الأعلى حُسين، أما أمُّه فهي عائشةُ بنتُ محمدِ العثمانِ العَرَفَجِ، وله أخوانٍ شقيقان: محمدٌ وعبدُ الرحمن، وأختانٍ شقيقتان، وأختٌ لأب.

كان الفَقْرُ وضيُّقُ الحالِ وشَظْفُ العَيْشِ يُحِيطُ ببيئَةِ المولودِ الجديدِ، وممَّا يدلُّ على ذلك أنَّ والدته قامت في ساعةِ عُسْرَةٍ وضيُّقِ بَتْنَحِيَةِ رضيعِها الباكيِ جانباً، فأخذته امرأةٌ أخرى بجانبِها، وقالت لأُمَّه: «خُذِيه، فلعلَّه يكونُ عالمًا»، وقد كان.

وفي مرحلةٍ مُبَكَّرَةٍ من عُمُرِهِ رَغِبَ الصَّبِيُّ أن يتعلَّم مبادئَ القراءةِ والكتابةِ، فلم يكن عند والده ما يدفعه للمعلِّم، فاضْطُرَّت والدته أن تبيع شيئاً من حُلِيِّها المتواضِعِ - وكانت أساورَ - بثمانيةِ رِيالاتٍ؛ لتوفيرِ أجرَةِ مُعلِّمٍ لصبيِّها الصَّغيرِ، الذي لم يَدُرْ في خَلْدِها أنَّه سيكونُ في يومٍ من الأيامِ شيخَ العُلَمَاءِ في الأحساءِ.

تعلّم الصَّبِيُّ مبادئَ القراءةِ والكتابةِ، ثمّ التَّحَقَّ بحلقةِ القرآنِ الكريمِ في المدارسِ الشَّرعيةِ القديمةِ، وكان المُقَرِّئُ هو الشيخُ أحمدُ بنَ عبدِ العزيزِ بنِ فُرَيْنِ رحمه الله، فطَلَبَ مِنْهُ المُقَرِّئُ أَنْ يَأْتِيَ بِمصحفِهِ الخاصِّ بِهِ، فطَلَبَ الصَّبِيُّ المُتَشَوِّقُ لتعلُّمِ القرآنِ مِنَ والدِهِ أَنْ يُوفِّرَ لَهُ مصحفاً؛ لِيبدأَ طريقَ تَعَلُّمِ القرآنِ وَحِفْظِهِ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ والدِهِ مِنَ المَالِ ما يَسْتَطِيعُ بِهِ شِراءَ مِصحفٍ، فَقَدَ وَعَدَهُ أَنْ يَتَوَلَّى تَدْرِيسَهُ القرآنَ الكَرِيمَ بِنَفْسِهِ.

كان الصَّبِيُّ يَجْلِسُ عِنْدَ والدِهِ، وَيُذَكِّرُهُ بِوَعْدِهِ، فَيُبدَأُ والدُهُ بتعليمِهِ قِصَارَ السُّورِ، مُنتَقِلاً بِهِ مِنْ سُورَةٍ لِأُخْرَى، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْشَغَلَ الوالدُ عَنِ ولِدِهِ بِأَعْبَاءِ الحِياةِ الاقْتِصادِيَّةِ والاجْتِماعِيَّةِ، فإِذَا هَمَّ بالخروجِ مِنْ منزلِهِ تَشَبَّثَ الوالدُ بثوبِ والدِهِ، وَأَخَذَ يُذَكِّرُهُ بِوَعْدِهِ لَهُ، فَيُضْطَرُّ الوالدُ تَحْتَ وطأةِ الإلحاحِ أَنْ يَتَرَيَّثَ قَلِيلاً؛ لِيُعَلِّمَ ولِدَهُ ما يَرَوِي ظَمَأَهُ وَيَقْضِي نَهْمَتَهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكْتَفِ بِهَذَا المِقْدَارِ اليَسِيرِ مِنَ القرآنِ، وَكانَ لِأَبْدٍ مِنْ مُعَلِّمٍ مُتَفَرِّغٍ، فَلَمَّا عَلِمَتْ خالَتُهُ مَرِيماً عَنِ إِصرارِهِ، وَكانتْ تَحْفَظُ القرآنَ الكَرِيمَ، عَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ تَتَوَلَّى تَعليمَهُ، فَصارَ يَذْهَبُ إِلَيْها، وَيَتَعَلَّمُ مِنْها.

واصَلَ الوالدُ مَسِيرَةَ حِفْظِ القرآنِ الكَرِيمِ، وَكانَ عُمُرُهُ إِذْ ذاكَ مُتَجاوزاً سِنَّ البلوغِ بِقَليلٍ، وَرَغِبَ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ أَنْ يَلْتَحِقَ بِالحَلِقِ العِلْمِيَّةِ؛ لِدراسةِ العِلْمِ الشَّرعيةِ واللُّغويَّةِ، وَلَمَّا كانَ والدُهُ مِنَ أَصحابِ العالِمِ الشَّيخِ مُحَمَّدِ بْنِ حُسَيْنِ العَرَفِجِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ (١٢٧٨ - ١٣٦٠ هـ) فَقَدَ دَفَعَ بولِدِهِ لِصاحبِهِ؛ لِيَتَوَلَّى تَدْرِيسَهُ، فَأَوْلَاهُ شَيْخَهُ اهِتماماً بِالغَا؛ لِلصِّلَةِ الأَخوِيَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ والدِهِ، وَلِلْهِمَّةِ العالِيَةِ الَّتِي وَجَدَها فِيهِ، وَمُنْذُ ذاكَ اليَوْمِ تَوَثَّقَتْ صِلَةُ عِلْمِيَّةٍ وَأَبوِيَّةٍ بَيْنَ الشَّيخِ

وتلميذه، حتى إنَّ والده كان يقول له: «أنت ابنُ الشيخِ محمدِ بنِ حُسين»، وكان عُمرُه إذْ ذاك سَبْعَ عَشْرَةَ سنةً.

وعلى الطريقةِ الأصيلَةِ التي كان العلماءُ يُؤسِّسون بها طلابَهم، فقد بدأ طالبُ العلمِ بحفظِ عددٍ من المُتُونِ العلميَّة، منها مَتْنُ الزُّبَديِّ في الفقهِ الشافعي لشهابِ الدين أحمدَ بنِ رسلان، ومَتْنُ الرَّحْبِيِّ في الفرائضِ والموارِيث لأبي عبدِ اللهِ محمدِ بنِ علي الرَّحْبِيِّ، وقِرابَةُ ثلثِ أَلْفِيَّةِ ابنِ مالِكٍ في النَّحو، وقد كان هذا الحِفظُ مُتزامناً مع قِراءةِ عددٍ من الكُتبِ، منها: مواهبُ الصِّمدِ شرحُ منظومةِ الزُّبَديِّ للشيخِ أحمدَ الفَسْني، وفتحُ المُعِينِ شرحُ قُرَّةِ العَيْنِ للشيخِ زينِ الدِّينِ المِليباري، وفتحُ الوهابِ شرحُ منهجِ الطلابِ للقاضي زكريا الأنصاري، كُلُّها في الفقهِ الشافعي.

وَجَدَ طالبُ العِلْمِ بُغِيَّتَهُ عِنْدَ شَيْخِهِ مُحَمَّدِ بْنِ حُسَيْنِ العَرَفِجِ، وَنَاسَبَتْهُ طَرِيقَتَهُ فِي التَّعْلِيمِ، فَقَدْ كَانَ الشَّيْخُ يَشْرَحُ العِبْرَاتِ شَرْحاً وَافِياً، ثُمَّ يَتَأَكَّدُ مِنْ فَهْمِ طَلَابِهِ لَهَا، فَيَسْأَلُهُمْ قَائِلاً لَهُمْ: «ظَاهِرٌ؟» أَي هَلْ ظَهَرَ لَكُمْ المَعْنَى؟ فَيُجِيبُونَ: «نَعَمْ، ظَاهِرٌ»، وَيَسْكُتُونَ أَحْيَاناً، فَيَسْأَلُهُمْ سُؤْلاً، فَيَتَرَدَّدُونَ فِي الإِجَابَةِ، فَيَضْحَكُ الشَّيْخُ، ثُمَّ يُعِيدُ شَرْحَ العِبْرَةِ لَهُمْ.

وَذَاتَ مَرَّةٍ سَأَلَهُمُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ: «ظَاهِرٌ؟» وَلَمْ يَكُنِ المَعْنَى قَدْ ظَهَرَ لَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: «نَعَمْ، ظَاهِرٌ»؛ مَجَامِلَةً لِلشَّيْخِ، وَاتَّفَقَ أَنَّ الشَّيْخَ عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ عَمْرِو العِكَاسِ الحَنَفِي رَحِمَهُ اللهُ (١٣٠٤ - ١٣٨٢ هـ) كَانَ حَاضِراً مَعَهُمْ، فَقَالَ لِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ: اطْلُبْ مِنْهُمْ أَنْ يُعِيدُوا شَرْحَ العِبْرَةِ، فَطَلَبَ مِنْهُمْ ذَلِكَ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا، فَقَالَ الشَّيْخُ العِكَاسُ: «ظَاهِرٌ عَن قُلُوبِهِمْ»، فَضَحِكَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ أَعَادَ شَرْحَهُ لَهُمْ.

ومما زاد طالب العلم تعلقاً بشيخه أنه كان يهَيِّئُ لهم بيئةً علميةً أبويةً، تَبْنِصُ بمعاني المحبة والرحمة، فكان الشيخُ يُقِيمُ دروسه أحياناً في منزله وقت الضُحَى، فإذا فرغوا من الدرسِ واصلَ الشيخُ مجلسه بطلابه، وتجاذبوا أطراف الحديث، ثم قدّم لهم بعضَ الفاكهة التي كانت تجودُ بها أرضُ الأحساء، كالرُطْبِ والعنب والتين والرُّمَّانِ والخوخِ والمشمش، فما يغادرون مجلسه إلا بطاناً: عقولاً وأرواحاً وأبداناً.

وقد قويت الصلة العلمية والأبوية بين الشيخ وتلميذه، فكان التلميذُ يَخْتَصُّ باصطحابِ شيخه الذي كُفَّ بصره في آخرِ عُمره، ويوصله إلى بيته بعد أداء الصلوات والدروس، فكان التلميذُ يُمسِكُ بيدِ شيخه، إلا أنَّ الشيخَ لَمْ يَكْتَفِ بذلك، بل كان يتَحَسَّسُ طريقه بيده الأخرى، فيَعْتَمِدُ على جدران المنازل التي يَمُرُّون بها، وذات مرة قال التلميذُ لشيخه - مُتَدَلِّلاً عليه -: «ألا يكفيك أن أمسك بيدك؟» فقال الشيخُ لتلميذه - على البديهة -: «يا ولدي، إنَّ نبيَّ الله موسى أمره الله أن يلتقط العصا، وقد رآها حيَّةً تسعى، وقال له: «خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى»، وكان على موسى مدرعةً، فأدخل كفَّه فيها، وأمسك بالعصا، فقال له المَلَكُ: يا موسى، أرايت لو أنَّ الله أذنَ بما تكرهه، هل كانت مدرعتك تمنعك شيئاً؟ فقال موسى: لا، ولكنني ضعيفٌ، ومن ضَعْفٍ خُلِقْتُ»، فكان التلميذُ يستدلُّ بهذه القصة على سرعة بديهة شيخه، وعنايته به، ودلاله عليه.

ولم يقتصر هذا القربُ النفسي والجسديُّ على هذا، بل إنَّ الشيخَ محمدَ ابنَ حسينٍ لَمَّا ثَقُلَ سَمْعُهُ آخِرَ عُمره كان تلميذه الوفيُّ يتولَّى تبليغه أسئلة الطلابِ واستفساراتهم، فكان التلميذُ يتذكَّرُ تلك الأوقات جيداً، حتى إنَّني سألتُه

في آخر عُمره - وقد كُنْتُ أقوم له بما كان يقوم به لجدي -: «مَنْ الذي كان يُبَلِّغُ الكلامَ للشيخ محمد بن حسين؟» فقال: «أنا»، فقلتُ له: «وهل تَكَلَّفْتَ؟» فقال: «لا، بل تَشَرَّفْتُ»، فكان درساً في الوفاء.

وقد تَتَلَمَذَ طالبُ العلمِ على عِدَّةِ علماء - إضافةً لشيخه الشيخ محمد ابن حسين العرفج -، منهم الشيخُ أحمدُ بنُ محمد العلي العرفج رحمه الله (١٢٨٢ - ١٣٥٧ هـ)، ومما قرأ عليه متنُ أبي شجاع في الفقه الشافعي، والشيخُ عبدُ الله بنُ عبد اللطيف العمير رحمه الله (١٢٩١ - ١٣٧٧ هـ)، ومما قرأ عليه نَظْمُ الآجُرُومِيَّةِ للعَمْرِيَّيْ، وقَطْرُ النَّدى لابن هشام، وكان شيخه يَطْلُبُ منه إعرابَ المتن، والشيخُ عبدُ الرحمن بنُ محمد القاضي رحمه الله (١٣٠٧ - ١٣٨٣ هـ) في التجويد، وكُلُّهم شافعيَّةُ المذهبِ الفقهي، والشيخُ عبدُ العزيز ابنُ صالح العلجي المالكي رحمه الله (١٢٩٠ - ١٣٦٢ هـ) في النحو، والشيخُ محمدُ بنُ أبي بكرِ الملا الحنفي رحمه الله (١٣٢٢ - ١٣٩٥ هـ) في النحو.

كان طالبُ العلمِ يقرأ الكُتُبَ، وَيَحْفَظُ المتونَ، وفي الوقتِ نفسِه كان مُواصِلاً حِفْظَ القرآنِ الكريمِ، مُصِرّاً على إتمامِ حِفْظِه، وكان يُنَافِسُه في الحفظِ زميلُه في طلبِ العلمِ محمدُ بنُ عبد الرحمن العُمير رحمه الله (١٣٣٥ - ١٤١٦ هـ)، فكان الطالبُ أحمدُ الدوغان متقدِّماً على زميلِه محمدِ العمير، ولكنه كان يُخْفِي عنه نهايةَ حِفْظِه، وطالَما حاول زميلُه أن يَعْرِفَ ما انتهى إليه حِفْظُه، ولكن دُونَ جَدْوَى، وكان أحياناً يَدْخُلُ المسجدَ متَخَفِياً، وَيَقْتَرِبُ مِنْ زميلِه شيئاً فشيئاً؛ لِيَعْرِفَ نهايةَ حِفْظِه، فيُحِسُّ به، فيُغَيِّرُ صفحةَ حِفْظِه، فلَمَّا أتمَّه - ولَمَّا يتجاوز العشرين سنة - أَقْبَلَ على شيخِه الشيخِ محمد بنِ حسين العرفج لِيُبَشِّرَه، فلَمَّا أَخْبَرَه الخبرَ فرِحَ شيخُه، وأنشده بيتاً من الشعر - سَمِعَهُ مِنْهُ لَأوَّلِ مَرَّةٍ -:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم وقد تكررت منافسة طالب العلم في حفظ متن الزبد في الفقه الشافعي، ولكن هذه المرة مع زميله وابن عمه عبد العزيز بن عبد الله الدوغان رحمه الله (١٣٢٦ - ١٣٨٠ هـ)، وانتهت المنافسة بتفوق طالب العلم على زميله.

تابع طالب العلم مسيرة العلم الشرعي، وأعطاه نفسه وكلَّيته، متمثلاً: «أعطِ العلمَ كُلَّكَ يُعْطِكَ بعضه، وأعطه بعضك يُفْتِكَ كُلَّهُ»، فجمع وحوى، وحفظ وأوعى، وذاق للعلم حلاوة، ووجد لمعانيه طلاوة، وقويت همته لمواصلة السير، منصرفاً للعلم عن كل غير، وقد توسم فيه مشايخه نبوغاً مبكراً، فشبهه شيخه الشيخ عبد الله العمير بأنه وزميله محمد بن عبد الرحمن العمير أو زميله محمد بن عبد الرحمن العرفج (١٣٣٦ - ١٤١٩ هـ) رحمهما الله - مقارنةً ببقية طلابه - كأفضل نخيل البستان.

كان معظم شيوخ طالب العلم يسكنون في حي الكوت، ولم يكن يجد صعوبة في الوصول إليهم، ولكن شيخه العلجي كان يسكن في حي الرفعة، فكان طالب العلم يخرج من بيته قبل الفجر، ويسير في طرق مظلمة؛ ليحضر درس شيخه بعد صلاة الفجر، ثم يرجع إلى حي الكوت بعد طلوع الشمس، فيلزم مشايخه الآخرين في دروسهم إلى وقت الصبح، ثم ينصرف معهم إلى مجالسهم إلى صلاة الظهر، كل يوم في مجلس أحدهم، فيستمع إلى نقاشاتهم ومحاوراتهم العلمية، ثم يرجع إلى بيته بعد صلاتها.

كانت عادة الناس حينذاك تناول الغداء قبل صلاة الظهر، فكان طالب العلم يتأخر على أسرته، فكان والده يلومُه على التأخير، ويحثه على التبكير، وقال له ذات يوم معاتباً - بعد عودته من شيخه العلجي -: «هل تريد أن تكون مثل

الشيخ أبي بكر - وكان من كبار علماء المذهب الحنفي -، يُدرّس في المساجد والمدارس! ولكن العلم جرى من طالبه مجرى الدم، وسيطر عليه في اليقظة والنوم، فلم يكن يلتفت إلى عتاب أو لوم.

ومما يدل على شغف طالب العلم به أنه توجه إلى درس شيخه الشيخ عبد الله العمير، وكان ذلك اليوم شديد الحرارة والرطوبة، فتأخر الشيخ في الخروج إليهم، ولم يصلهم إلا وثيابهم تقطر ماءً، فلما وصل الشيخ أبدى أحد الطلاب شفقة عليه، وعرض على الطلاب أن يعذروا الشيخ عن أداء الدرس، فحصل ذلك، فتضايق طالب العلم من ذلك الطالب تضايقاً شديداً؛ لتفويته الدرس عليهم ذلك اليوم، وكأنه يقول:

إذا كان يؤذيك حرّ المصيف ويؤبس الخريف وبرد الشتاء
ويلهيك حُسنُ زمانِ الربيع فأخذك للعلم قل لي متى؟

وفي تلك المدة من تحمّل العلم، رأى طالب العلم رؤيا طيبة، استبشر بها، وكانت دافعاً إضافياً للاجتهاد في طلب العلم فوق دافعه الذاتي، فقد رأى نفسه يدخل الحرم المكي، وكان مملوءاً ماءً، فأخذ يسبح حتى وصل إلى باب الكعبة، فدخلها وأخذ يشرب من الماء، أو أنه صعد على سطحها، وأخذ يشرب من ماء مطرٍ متجمّع فوقها، حتى ارتوى، فأوّلّه بالعلم، وقد كانت رؤياه تلك قبل أن يسافر إلى مكة، وذكر أنه لما رأى الحرم والكعبة على الحقيقة طبقت ما رآه في منامه.

وفيما كان الشاب يقطف من العلم ثماراً جنيّة، ويكتسب منه حلاًلاً سندسية، نزل بوالده ريب المنون، وقد قارب أن يمضي من عمره عشرون، فثقل كاهل

الشابُّ بهذا المصاب، وسُدَّتْ في وجهه من الرُّزْقِ الأبواب، وقَطَعَ ضَيْقُ العَيْشِ عليه خَلْوَتَهُ، وَمَنَعَهُ لَذَّتَهُ وَنَشْوَتَهُ، وَلَكِنَّ شَيْخَهُ مُحَمَّدَ بنِ حَسِينِ أَوْلَاهِ بِرَّهُ وَعِنَايَتَهُ، وَأَحْسَنَ وَصَلَهُ وَرِعَايَتَهُ، فَكَانَ الشَّابُّ يَتَذَكَّرُ إِكْرَامَ شَيْخِهِ لَهُ، وَأَنَّهُ فِي إِحْدَى زِيَارَاتِهِ أَطْعَمَهُ فَاكِهَةً بِيَدِهِ، وَوَضَعَهَا فِي فَمِهِ.

أَخَذَ الشَّابُّ يَبْحَثُ عَنِ مَصْدَرِ رِزْقِهِ، يَسْتَعِينِي بِهِ عَنِ الخَلْقِ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بَعْضُ أَقَارِبِهِ بِالسَّفَرِ إِلَى الهِنْدِ، وَقَدْ كَانَتْ مَقْصِدًا كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ البَلَدِ، فَأَخَذَ يَسْتَشِيرُ مَشَايخَهُ وَأَهْلَ الرَّأْيِ مِنْ قَوْمِهِ، فَاسْتَشَارَ الشَّيْخَ أَبَا بَكْرٍ بنَ عَبْدِ اللَّهِ بنِ أَبِي بَكْرِ المَلَا رَحِمَهُ اللَّهُ (١٢٨٠-١٣٦٦هـ)، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِعَدَمِ السَّفَرِ، وَأَلْمَحَ لَهُ بِالِاِكْتِفَاءِ بِالقَلِيلِ مِنَ الرِّزْقِ، وَقَالَ لَهُ: «يَا بُنَيَّ، اقْنَعْ بِالقَلِيلِ، يَكْفِيكَ تَمْرَةٌ وَشَرْبَةٌ لَبَنٌ»، فَقَالَ الشَّابُّ فِي نَفْسِهِ: «يَا سَيِّدِي، أَنْتَ تَجِدُ ذَلِكَ، وَلَكِنِّي لَا أَجِدُهُ»، ثُمَّ اسْتَشَارَ شَيْخَهُ المَقْرَبَ إِلَيْهِ، وَهُوَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بنُ حَسِينِ العَرَفِجِ، فَأَذِنَ لَهُ، وَوَأَفَقَهُ عَلَى رَغْبَتِهِ.

سَافَرَ الشَّابُّ إِلَى الهِنْدِ بَعْدَمَا تَجَاوَزَ العِشْرِينَ بِقَلِيلٍ، مُتَأَلِّمًا مِنْ انْقِطَاعِ مَسِيرَةِ التَّحْصِيلِ، وَلَكِنَّ عَيْنَهُ كَانَتْ مَفْتُوحَةً عَلَى طَلَبِ العِلْمِ وَطَلَبِ العُلَمَاءِ، وَكَانَ عَمَلُهُ فِي الهِنْدِ مُنْحَصِرًا فِي إِمَامَةِ الصَّلَوَاتِ وَتَعْلِيمِ الطُّلَّابِ الصَّغَارِ، وَكَانَتْ أُجْرَةُ تَعْلِيمِ الوَاحِدِ مِنْهُمْ لِشَهْرٍ كَامِلٍ رُبِّيَّتَيْنِ، وَكَانَ أحيانًا يَخْطُبُ الجُمُعَةَ وَيُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ نِيَابَةً عَنِ الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مُحَمَّدِ المَبَارِكِ العَرَفِجِ رَحِمَهُ اللَّهُ (...-١٣٥٦هـ)، المَلَقَّبُ بِالأُرْنِيِّ - نَسَبُهُ إِلَى قَرْيَةٍ أُرْنِ التَّابِعَةِ لِمَدِينَةِ بومباي - إِذَا رَجَعَ إِلَى الأَحْساءِ، فَيَسْتَحِقُّ رَاتِبَهُ مَدَّةَ سَفَرِهِ، فَكَانَ الشَّابُّ يَفْرَحُ بِهَذَا المَالِ الزَّائِدِ، فَإِذَا عَادَ الشَّيْخُ الأُرْنِيُّ مِنَ الأَحْساءِ، تَمَنَّى الشَّابُّ لَوْ أَطَالَ الشَّيْخُ الأُرْنِيُّ مُكْثَتَهُ فِيهَا؛ لِتَمَكَّنَ مِنْ كَسْبِ بَعْضِ المَالِ.

فلَمَّا أَمَّنَ الشَّابُّ مَصَدَرَ رِزْقِهِ وَاصَلَ طَلَبَ الْعِلْمِ عَلَى يَدِ شَيْخٍ قَادِمٍ مِنَ الْحِجَازِ، حَنَفِيٍّ الْمَذْهَبِ، اسْمُهُ الشَّيْخُ سَعْدُ اللَّهِ، وَكَانَتْ أَصُولُهُ مِنَ الْهِنْدِ أَوْ بَنْغَلَادِيْشَ، وَكَانَتْ دِرَاسَتُهُ عَلَيْهِ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ وَالتَّجْوِيدِ، وَقَدْ فَرِحَ بِهِ شَيْخُهُ؛ لِلْهَمَّةِ الَّتِي وَجَدَهَا فِيهِ، وَلِانْصِرَافِ الشَّبَابِ عَنِ طَلَبِ الْعِلْمِ، وَمَا زَالَ الشَّابُّ يَحْتَفِظُ بِأَوْرَاقٍ، رَسَمَهَا مِنْ شَيْخِهِ، فِيهَا رَسْمُ الْفَمِ وَاللِّسَانِ وَالْأَسْنَانِ مَعَ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ وَصِفَاتِهَا، وَبَعْضِ أَحْكَامِ التَّجْوِيدِ وَالْقِرَاءَاتِ.

لَمْ يَكْتَفِ الشَّابُّ بِهَذَا الْقَدْرِ مِنَ الْعِلْمِ، فَقَدْ كَانَ يَتَطَلَّبُ الْعُلَمَاءَ، وَيَبْحَثُ عَنْهُمْ، فَلَقِيَ شَابًّا يَمْنِيًّا مُتَقِنًا لِعِلْمِ الْمَنْطِقِ، وَلَكِنَّهُ أَصْغَرَ مِنْهُ، فَلَمْ يَمْنَعَهُ صِغَرُ سِنِّهِ مِنْ طَلَبِ الْاسْتِفَادَةِ مِنْهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْبِثْ أَنْ تُوفِّيَ، فَاسْتَعَاضَ الشَّابُّ بِمَدَارِسَةِ الْعِلْمِ مَعَ أَقْرَانِهِ الْمَغْتَرِبِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَحْسَاءِ، فَكَانَ يَجْمَعُهُمْ، وَيَقْرَأُ مَعَهُمْ فِي بَعْضِ كُتُبِ الْعِلْمِ، مُسْتَعِيزًا بِهِمْ عَنِ الْعُلَمَاءِ.

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَغْفِ الشَّابِّ بِالْعِلْمِ أَنَّهُ اشْتَرَى كِتَابَ الْمَنْهَاجِ لِلْإِمَامِ النَّوَوِيِّ بِخَمْسِ رُبِّيَّاتٍ، وَهِيَ ضِعْفُ ثَمَنِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؛ رَغْبَةً فِي قِرَاءَتِهِ وَحِفْظِهِ فِي أَوْقَاتِ فَرَاحِهِ، فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ مَا أَرَادَ؛ بِسَبَبِ ظُرُوفِ الْعَيْشِ وَكَسْبِ الرِّزْقِ، وَمِنْ الْكُتُبِ الَّتِي اشْتَرَاهَا أَيْضًا: حَاشِيَةُ إِعَانَةِ الطَّالِبِينَ عَلَى فَتْحِ الْمُعِينِ لِلشَّيْخِ بَكْرِي شَطَّافِي الْفَقْهِ الشَّافِعِيِّ، وَالسِّيَرَةُ الْحَلَبِيَّةُ لِبرهانِ الدِّينِ الْحَلَبِيِّ فِي السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ.

مَكَثَ الشَّابُّ فِي الْهِنْدِ خَمْسَ سِنَوَاتٍ تَقْرِيْبًا، ثُمَّ رَجَعَ مِنْهَا قَبْلَ بَلُوغِهِ الثَّلَاثِينَ مِنَ الْعُمُرِ، وَقَدْ رَحَلَ بَعْضَ مَشَايخِهِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ كَالشَّيْخِ أَحْمَدَ الْعَلِيِّ الْعَرْفَجِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَلَكِنَّ شَيْخَهُ الْأَثِيرَ عَلَى نَفْسِهِ - الشَّيْخَ مُحَمَّدَ بْنَ حُسَيْنِ الْعَرْفَجِ رَحِمَهُ اللَّهُ - مَا زَالَ حَيًّا، فَوَاصَلَ طَلَبَ الْعِلْمِ عِنْدَهُ وَعِنْدَ بَقِيَّةِ مَشَايخِهِ.

وَرَعَمَ اِكْتِسَابِ تِلْكَ السَّنَوَاتِ الْخَمْسِ فِي الْهِنْدِ لَمْ يَتِمَكَّنِ الشَّابُّ الْمَتَطَلِّعُ إِلَى إِعْفَافِ نَفْسِهِ مِنْ جَمْعِ مَا يُمَكِّنُ دَفْعَهُ مَهْرًا، فَمَكَثَ سُنَيَاتٍ قَلِيلَةً يَعْمَلُ مَا يُدِرُّ عَلَيْهِ رِزْقًا، ثُمَّ تَزَوَّجَ فِي سِنِّ الثَّلَاثِينَ سَنَةً تَقْرِيبًا مِنْ عَائِشَةَ بِنْتِ شَيْخِهِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ الْقَاضِي بِمَهْرٍ مَقْدَارُهُ أَرْبَعُمِئَةٍ وَخَمْسُونَ رِيالًا، وَأُمُّهَا شَرِيفَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُبَارَكِ الْعَرَفِجِ، وَقَدْ أَنْجَبَ مِنْهَا أَرْبَعَ بَنَاتٍ، وَثَلَاثَةَ أَبْنَاءَ: عَبْدِ اللَّهِ الْأَسْتَاذَ الْمَشَارِكَ فِي الْقِيَاسِ وَالتَّقْوِيمِ، وَمُحَمَّدًا الْأَسْتَاذَ الْمَشَارِكَ فِي الْأَدَبِ، وَعَبْدَ الْعَزِيزِ الْمُحَاضِرَ فِي الْعُلُومِ الزَّرَاعِيَّةِ وَالْأَغْذِيَّةِ.

وَاصَلَ الْفَقْرُ خِنَاقَهُ عَلَى الرَّجُلِ وَأَسْرَتَهُ الْجَدِيدَةَ مَعَ مَا تَتَطَلَّبُهُ مِنْ مَسْئُولِيَّةِ وَرِعَايَةٍ، فَوَصَلَ بِهِ الْحَالُ أَنْ يُصْبِحَ أَيَّامًا وَلَيْسَ فِي مُلْكِهِ مَا يَسْتَطِيعُ بِهِ شِرَاءَ قُوَّتِهِ وَقُوَّتِ عِيَالِهِ، فَاضْطَرَّه الْأَمْرُ ذَاتَ يَوْمٍ أَنْ يَبِيعَ أَحَدَ كُتُبِهِ بِرِيَالَيْنِ، وَمَا أَشَدَّ بَيْعَ الْكُتُبِ عَلَى الْعُلَمَاءِ! كَمَا قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْفَالِي رَحِمَهُ اللَّهُ (...-٤٤٨هـ) عِنْدَمَا بَاعَ كِتَابَ جَمَهْرَةِ اللُّغَةِ لِابْنِ دُرَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ (...-٣٢١هـ):

أَنْسْتُ بِهَا عَشْرِينَ حَوْلًا وَبِعْتُهَا	فَقَدْ طَالَ وَجَدِي بَعْدَهَا وَحَنِينِي
وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنَّنِي سَأَبِيعُهَا	وَلَوْ خَلَدْتَنِي فِي الشُّجُونِ دِيُونِي
وَلَكِنْ لِضَعْفٍ وَافْتِقَارٍ وَصِيبِيَّةٍ	صِغَارٍ عَلَيْهِمْ تَسْتَهْلُ شُؤُونِي
فَقُلْتُ وَلَمْ أَمْلِكْ سَوَابِقَ عَبْرَةٍ	مَقَالَةَ مَكْوِيِّ الْفُوَادِ حَزِينِي
وَقَدْ تُخْرِجُ الْحَاجَاتُ يَا أُمَّ مَالِكِ	كَرَائِمَ مِنْ رَبِّ بِهِنَّ ضَنْينِي

ثُمَّ لَاحَتْ لِلرَّجُلِ فِرْصَةٌ لِلْكَسْبِ الشَّرِيفِ، فَقَدْ طَلَبَ رِجَالًا مِنْ قَبِيلَةِ بَنِي خَالِدِ الْمُتَوَطَّنِينَ فِي مَدِينَةِ عَنَّاكَ الْوَاقِعَةِ عَلَى السَّاحِلِ الشَّرْقِيِّ رِجَالًا عَالِمًا، يَسْتَقْرُّ عِنْدَهُمْ شَيْخًا وَإِمَامًا وَخَطِيبًا لِمَسْجِدِهِمْ فِي جَزِيرَةِ جَنَّةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ مَدِينَةِ الْجَبِيلِ،

وَعَرَّضُوا الْأَمْرَ عَلَى بَعْضِ عُلَمَاءِ الْأَحْسَاءِ كَالشَّيْخِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّطِيفِ الْمَلَّاءِ رَحِمَهُ اللَّهُ (١٣١٣-١٤٠٢هـ)، فَأَشَارَ عَلَيْهِم بِالرَّجُلِ الْمُؤَهَّلِ لِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ، فَسَافَرُوا إِلَيْهِمْ إِمَاماً وَخَطِيباً لِمَسْجِدِهِمْ، وَمُعَلِّماً لَهُمْ، وَكَانَتْ أُجْرَتُهُ السَّنَوِيَّةُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ رِيالاً وَخَمْسَةَ عَشَرَ مِئْبَعَةً - وَهِيَ كَيْلٌ مِنَ التَّمْرِ مِقْدَارُهُ ثَلَاثُونَ كَيْلًا -، وَقَدْ عَرَّضُوا عَلَيْهِ الزَّوْجَ بِامْرَأَةٍ مِنْهُمْ؛ رَغْبَةً فِي اسْتِقْرَارِهِ بَيْنَهُمْ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ اعْتَدَرَ مِنْهُمْ بِلُطْفٍ، وَمَكَثَ فِيهَا خَمْسَ سِنَوَاتٍ تَقْرِيباً.

وَمِنَ الْقِصَصِ الطَّرِيفَةِ الَّتِي وَقَعَتْ عِنْدَهُمْ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً ثَانِيَةً، فَاشْتَرَطُوا عَلَيْهِ أَنْ يُطَلِّقَ زَوْجَتَهُ الْأُولَى، فَأَحْضَرَ شَاهِدَيْنِ، وَأَخْبَرَهُمَا أَنَّ سَيُطَلِّقُ زَوْجَتَهُ الْأُولَى طَلَاقًا صُورِيًّا؛ لَكَيْ يَتِمَّكَنَ مِنَ الزَّوْجِ بِالْمَرْأَةِ الثَّانِيَةِ، وَأَنَّهُ لَا يَقْصِدُ إِيقَاعَ الطَّلَاقِ، فَفَعَلَ وَهُمَا حَاضِرَانِ، ثُمَّ تَزَوَّجَ الْمَرْأَةَ الثَّانِيَةَ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَعُودَ لَزَوْجَتِهِ الْأُولَى مَنَعَهُ أَهْلُهَا؛ لِأَنَّهُ طَلَّقَهَا، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ طَلَّقَهَا طَلَاقًا صُورِيًّا، وَأَنَّهُ غَيْرُ جَادٍّ فِيهِ، وَأَحْضَرَ شَاهِدَيْهِ، فَصَدَّقَاهُ بِمَا قَالِ، فَقَالَ أَهْلُهَا: «لَا نَقْبَلُ إِلَّا أَنْ نَسْأَلَ الشَّيْخَ»، فَسَأَلُوهُ عَنْ حُكْمِ طَلَاقِهِ، فَأَجَابَهُمْ بِأَنَّ الطَّلَاقَ صَحِيحٌ نَافِذٌ.

عَادَ الرَّجُلُ إِلَى الْأَحْسَاءِ وَقَدْ قَارَبَ الْأَرْبَعِينَ مِنَ الْعُمُرِ، مُحْتَفِظًا فِي ذَاكِرَتِهِ بِأَيَّامِ الْفَقْرِ الَّتِي نَاءَ بِهَا كَاهِلُهُ، وَلَمْ تَغَادِرْ ذَاكِرَتَهُ إِلَى آخِرِ حَيَاتِهِ، وَمِمَّا يَدُلُّ لِدَلِّكَ أَنَّهُ مَرِضٌ يَوْمًا فِي شَيْخُوخَتِهِ، فَرَاغَعَ الطَّيِّبَ، ثُمَّ ذَكَرَ ذَلِكَ لِتَلْمِيذِهِ الشَّيْخِ د. عَصَامِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخَطِيبِ، وَقَالَ لَهُ: «أَخْبَرَنِي الطَّيِّبُ أَنَّ ضَغْطِي مَرْتَفِعٌ»، فَقَالَ تَلْمِيذُهُ لَهُ - وَهُوَ يَعْلَمُ مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ الْهَمِّ -: «خَفَّفْ عَلَى نَفْسِكَ يَا شَيْخَنَا، فَأَنْتَ تَهْمُ نَفْسَكَ بِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ»، فَقَالَ الشَّيْخُ لِتَلْمِيذِهِ - وَهُوَ مَمْسِكٌ بِلِحْيَتِهِ الْبَيْضَاءِ -: «لَقَدْ لَزَمَنِي الْهَمُّ مِنْ أَيَّامِ الشَّبَابِ، هَمُّ الْفَقْرِ وَالْجُوعِ، وَإِنَّ

أقساه على الإنسان حين يتزوّج، فيكون مسؤولاً عن زوجة وأولاد، فيخرج من بيته باحثاً عن لقمة العيش التي يسدُّ بها رمقهم، عملت بسبب ذلك سنوات إماماً عند البدو، ثم اضطررت للعمل مُدرّساً،... لقد حفظكم الله ممّا رأينا، لقد كان فقراً لا أستطيع وصفه».

ولمّا رجع الرجل إلى أهله وداره كانت المدارس النظامية قد افتتحت في الأحساء، ونظراً لما يمتلكه الرجل من علوم الشريعة فقد تمّ ترشيحه للعمل فيها معلماً، إلا أن والدته رفضت أن يلتحق ولدها بالوظائف الحكومية، وكانوا يتورعون عن روايتها؛ حذراً من وجود شبهة فيها، وأخبرته بأنها لن تُساكنه، ولن تأكل منه طعاماً، فلبى الرجل البارز رغبة أمه، وانصرف عن الوظيفة رغم حاجته لها.

فلما توفيت والدته رحمها الله، استشار الرجل شيخه الشيخ محمد بن أحمد العبد اللطيف رحمه الله (١٣١٧-١٣٩٥هـ) بشأن الالتحاق بالوظيفة الحكومية التي رفضتها أمه، وهل يعدُّ هذا عقوقاً منه، فرخص له الشيخ في ذلك، فالتحق الرجل بالوظيفة الرسمية عام ١٣٧٠هـ، معلماً للقرآن الكريم والتجويد وبعض العلوم الشرعية، فبدأ الحال يتحسن شيئاً فشيئاً، ومكث المعلم في التدريس سبعة وعشرين عاماً إلى عام ١٣٩٧هـ.

كان المعلم خلال مدة عمله في التعليم مثلاً للمعلم الجاد، المتصف بالصبر والحلم في تعليم طلابه، المتعامل معهم معاملة الأب لأبنائه، الحرص على تعليمهم ما ينفعهم، المتأمل أن يغرس فيهم حب العلم وتعلمه وتعليمه. ومن المواقف التي حصلت للمعلم أثناء تدريسه النظامي، والدالة على

شِدَّةِ تَعْظِيمِهِ لِكِتَابِ اللَّهِ، وَوَقُوفِهِ عِنْدَ حُدُودِهِ، وَالْمُؤَكَّدَةِ لِعُمُقِ عِلْمِهِ وَدِقَّةِ فَهْمِهِ، أَنَّ أَسْتَاذًا كَانَ يُدْرَسُ مَعَهُمْ، فَتَكَلَّمَ الْأَسْتَاذُ عَنْ قِصَّةِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، وَكَادَ يَقَعُ فِي إِخْوَتِهِ، فَاعْتَرَضَ الشَّيْخُ الْمَعْلَمُ عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ: «هَلْ تَكَلَّمَ الْقُرْآنُ فِي حَقِّهِمْ بِذَمٍّ؟ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا اسْتِغْفَارُ أَبِيهِمْ وَأَخِيهِمْ لَهُمْ، فَلِمَاذَا تَتَكَلَّمُ فِيهِمْ؟»

فِي تِلْكَ الْمَدَّةِ اسْتَمَرَ الشَّيْخُ فِي مَسِيرَةِ تَحْصِيلِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ عِنْدَ كِبَارِ تَلَامِيذِ مَشَايِخِهِ، مِنْهُمْ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْعَبْدِ اللَّطِيفِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَدْ قَرَأَ عِنْدَهُ شَرْحَ الْقِسْطِ اللَّائِيَّ عَلَى صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، وَشَرْحَ النَّوَوِيِّ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ، وَفَتَحَ الْوَهَّابَ لِلْقَاضِي زَكْرِيَا الْأَنْصَارِيِّ، وَمُغْنِي الْمَحْتَاكِ لِلْخَطِيبِ الشَّرِينِيِّ، كِلَاهُمَا فِي الْفِقْهِ الشَّافِعِيِّ، وَالشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّطِيفِ الْخَطِيبِ رَحِمَهُ اللَّهُ (١٣١٣-١٣٩٤هـ)، وَقَدْ قَرَأَ عِنْدَهُ عُمْدَةَ السَّالِكِ وَعُدَّةَ النَّاسِكِ لِلشَّيْخِ شَهَابِ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنِ النَّقِيبِ فِي الْفِقْهِ الشَّافِعِيِّ.

وَلَمَّا تَوَفَّاهُمُ اللَّهُ وَاصَلَ الْمُدَارَسَةَ الْعِلْمِيَّةَ بِمَشَارَكَةِ أَقْرَانِهِ، كَالشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الدُّوْعَانَ (١٣٢٦-١٣٨٠هـ)، وَالشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَصْطَفَى (١٣١٨-١٣٩٧هـ)، وَالشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُحَمَّدِ الْعُبَيْدِ اللَّهِ (١٣١٨-١٤٠٨هـ)، وَالشَّيْخِ عَبْدِ اللَّطِيفِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُسَيْنِ الْعَرْفَجِ (١٣٢٥-١٤٠٩هـ)، وَالشَّيْخِ عَبْدِ اللَّطِيفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْعَبْدِ اللَّطِيفِ (١٣٢٧-١٤٠٩هـ)، وَالشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعَمِيرِ (١٣٣٥-١٤١٦هـ)، وَالشَّيْخِ عَبْدِ اللَّطِيفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبِرَاهِيمِ الْعَرْفَجِ (١٣٤٢-١٤١٦هـ)، وَالشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَطِيبِ (١٣٣١-١٤١٩هـ)، وَالشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعَرْفَجِ (١٣٣٦-١٤١٩هـ)، وَالشَّيْخِ أَحْمَدَ ابْنِ أَبِي بَكْرٍ الْمَلَا (١٣٢٨-١٤٢٠هـ)، وَالشَّيْخِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ السَّيِّدِ الْهَاشِمِ «النَّحْوِيِّ» (١٣٣٤-١٤٢٦هـ)، وَالشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

محمد العبد اللطيف (١٣٣٩ - ١٤٣١ هـ)، وغيرهم من أقرانه وأترابه رحمهم الله.

كان أولئك العلماء أو بعضهم يتبادلون الزيارات في منازلهم في أوقات الضحى، ويلتقون في مساجدهم ومدارسهم الشرعية بعد صلاة العصر والمغرب، فيقرأون كتب التفسير والحديث والسيرة والفقهاء، قرأوا تفسير البغوي، وشرح القسطلاني على صحيح البخاري، وشرح النووي على صحيح مسلم، والسيرة الحليّة لبرهان الدين الحلبي، والسيرة النبوية للشيخ أحمد زيني دحلان، وفتح الوهاب شرح منهج الطلاب للقاضي زكريا الأنصاري، والتمشية شرح الإرشاد لابن المقرئ، وفتح الجواد شرح الإرشاد لشهاب الدين ابن حجر الهيتمي، والإقناع شرح متن أبي شجاع، ومغني المحتاج شرح المنهاج، كلاهما للخطيب الشربيني، كلها في الفقه الشافعي، ومقامات الحريري، والبركة في فضل السعي والحركة للشيخ محمد بن عبد الرحمن الوصابي، وغيرها من مؤسوعات العلوم الشرعية واللغوية.

لقد كانت تلك المجالس مفتوحة للعلماء وطلاب العلم والضيوف، سواء من أهل الأحساء أو من قاصديها، وكان أصحابها يعمرونها بالمذاكرة العلمية والمسامرة الأدبية وإنشاد المدائح النبوية.

ثم دخل عام ١٣٩٢ هـ، وفيه بلغ الشيخ الستين من العمر، وهو سن التقاعد النظامي، ثم تم التمديد له خمسة أعوام إضافية؛ لأنه كان يحفظ القرآن الكريم، وقد كان نظام التقاعد ينص على ذلك.

وقبل بلوغه سن التقاعد النظامي بسنوات قليلة افتتح الشيخ حلقة لتعليم القرآن الكريم في مدرسة القرآن الكريم الواقعة جنوب مسجد آل أبي بكر

الملا في حيِّ الكوت، وهي مدرسة أُوقِفَها بعضُ أهلِ الخيرِ من البحرين سنة ١٢٩٥ هـ، وأسندوا نظارتها للشيخ عبد الله بن أبي بكر الملا الحنفي رحمه الله (١٢٤٣-١٣٠٩ هـ)، وتعدُّ هذه الحلقة من أوائل حلقات تحفيظ القرآن الكريم في الأحساء إن لم تكن أول حلقة فيها.

أخذ الشيخ يتخطى السنة تلو السنة، وبلغ الثالثة والستين، وهي سنُّ وفاة النبي ﷺ، وهو القائل - بأبي هو وأمِّي -: «أعمارُ أمّتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلُّهم من يجوز ذلك»، رواه الترمذي وابن ماجه، وكأني بالشيخ المحبِّ للعلم يتأسف على تقدُّم العمرِ بدونِ توريثِ العلمِ لجيلٍ جديد، ولكن أين الطلاب؟!!

لقد بلغ حُبُّ الشيخ للعلم المتزامن مع خوفه الشديد من انقطاعه أنه كان يبحث عن الطلاب الراغبين في تحصيل العلوم الشرعية واللغوية، فيأتيه بعض طلاب المدارس النظامية والمعاهد العلمية، طالبين منه بعض الدروس التي تُعينهم في دراستهم واختباراتهم، وخصوصاً في علم النحو والفرائض، فيُظهر استعدادَه لتعليمهم، ويحثُّهم على مواصلة التعلُّم بعد الاختبارات، ولكن ما تكاد تنتهي تلك الاختبارات حتى يصبح أولئك الطلاب أثراً بعد عين.



الفصل الثالث

تأسيس المدرسة

خِلالَ قُرُونٍ مَضَتْ كَانَتْ عَجَلَةُ الْعِلْمِ فِي الْأَحْسَاءِ تَدُورُ بِانْتِظَامٍ، وَكَانَ عُلَمَاؤُهَا يُرَوِّونَ النَّازِلَ بِهِمْ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ كَوْبِلِ الْغَمَامِ، وَكَانَ صَوْتُ عِلْمَائِهَا وَطُلَّابِهِمْ يَهْدِرُ فِي جَنَابَاتِ مَدَارِسِهَا وَمَسَاجِدِهَا، سِوَاءً مِنْ دَاخِلِ الْأَحْسَاءِ أَوْ خَارِجِهَا، يَغْدُونَ إِلَيْهِمْ خِمَاصًا، وَيُرْوَحُونَ بِطَانَا.

بل كان العلماء المغتربون يحلون في أرض الأحساء، فينسيهم علمها وأدبها الأهل والأبناء، ومن أبرز أولئك العلماء، الشيخ عبد الله بن محمد البيتوشي الكردي الشافعي رحمه الله (١١٣٥-١٢١١هـ)^(١)، المولود في كردستان العراق، والمتوفى في البصرة، فإنه قدم الأحساء سنة ١١٧١هـ، فأدهشه كثرة علمائها ووفرتهم، وأبهره حسن أخلاقهم وطيب معشرهم، ورأى ساحات المساجد والمدارس معمورة، وأبصر رايات العلم والأدب بأصحابها منشورة، فاستوطنها لسنوات طويلة، بلغت ثلاثين سنة، وطاب له المقام فيها، وأرسل رسالة أدبية رائعة لشيخه في بغداد الشيخ عبيد الله أفندي بن صبغة الله الحيدري رحمه الله (... - ١٢٠٠هـ)، ومما جاء فيها: «و حال التاريخ أنا في الأحساء، أتقلب في

(١) تحفة المستفيد في تاريخ الأحساء القديم والجديد (٢/ ٣٧٥)، تأليف محمد بن عبد الله العبد القادر، ومظاهر ازدهار الحركة العلمية في الأحساء (١٠٥)، ومن أعلام مدينة المبرز (١٥٣)، كلاهما تأليف عبد الله بن عيسى الذرمان.

رَوْضٍ مِنَ الْعَيْشِ أَرِيضٍ، وَأَتَبَخَّرْتُ فِي بُرْدٍ مِنَ الْعَافِيَةِ طَوِيلٍ عَرِيضٍ، بَيْنَ سَادَةِ سُمَحَاءٍ، يُكْرِمُونَ وَلَا يَمْكُرُونَ، وَيُطْعَمُونَ وَلَا يَطْمَعُونَ، وَيُبْهَرُونَ وَلَا يُرْهَبُونَ، وَيَبْتَكِرُونَ وَلَا يَرْتَكِبُونَ، لَا تَمَلُّ مَنَاجِئَهُمْ، وَلَا تُخْشَى مُدَاجِئَهُمْ، إِلَى أَخْلَاقٍ فِي رِقَّةِ النَّسِيمِ، وَمُحَاوَرَةٍ فِي عُدُوبَةِ التَّسْنِيمِ، لَا تَكْبُؤُ فِي حَلْبَةِ الْفَخَّارِ جِيَادُهُمْ، وَلَا تَصْلُدُ فِي مَشَاهِدِ النَّوَالِ زِنَادُهُمْ، ثَابِتٌ لَدَيْهِمْ كَمَا أَبْتَغِي قَدَمِي، مُجْرَى عِنْدَهُمْ مَا نَفَثْتُ بِهِ فَمِي أَوْ كَتَبَهُ قَلَمِي،

لَا عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى أَنْ النَّزِيلَ بِهِمْ يَسْلُو عَنِ الْأَهْلِ وَالْأَوْطَانِ وَالْحَشَمِ»^(١)
 وَفِي الْعُقُودِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ الْهَجْرِيِّ كَانَتْ الْأَحْسَاءُ تَزَخَّرُ بِالْعُلَمَاءِ مِنْ مَخْتَلَفِ الْمَذَاهِبِ الْفَقْهِيَةِ الْأَرْبَعَةِ، فَمِنْ عُلَمَاءِ الْحَنْفِيَّةِ - حَسَبَ وَفِيَاتِهِمْ -: الشَّيْخُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ عَمْرِ الْعَكَّاسِ (١٣٠٤ - ١٣٨٢ هـ)، وَالشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرِ الْمَلَّا (١٣٢٢ - ١٣٩٥ هـ)، وَالشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّطِيفِ الْمَلَّا (١٣١٣ - ١٤٠٢ هـ)، وَالشَّيْخُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَحْمَدَ الْجُعَيْمَانَ (١٣٣٧ - ١٤١١ هـ)، وَالشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي بَكْرِ الْمَلَّا (١٣٢٨ - ١٤٢٠ هـ)، وَالشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرِ الْمَلَّا (١٣٢٣ - ١٤٢١ هـ)، وَالشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرِ الْمَلَّا (١٣٤٥ - ١٤٢٢ هـ)، وَالشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَلَّا (١٣٣٤ - ١٤٢٨ هـ)، وَالشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّطِيفِ الْمَلَّا (١٣٥٣ - ١٤٢٨ هـ)، وَالشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرِ الْمَلَّا (١٣٥٠ - ١٤٣٩ هـ) رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وَمِنْ عُلَمَاءِ الْمَالِكِيَّةِ: الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّطِيفِ بْنُ مُحَمَّدِ الْعَفَالِقِ (١٢٩١ - ١٣٨٢ هـ)، وَالشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ حَمْدِ الْعُمَيْرِ (١٣٠٣ - ١٣٨٧ هـ)، وَالشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عَبْدِ اللَّطِيفِ الشَّيْخِ مَبَارَكِ (١٣٢٢ - ١٣٩٤ هـ)، وَالشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ فَهْدِ أَبُو شَيْبِيبِ (١٣١٨ - ١٤٠٣ هـ)، وَالشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمِ الشَّيْخِ مَبَارَكِ (١٣٢٠ - ١٤٠٤ هـ)،

(١) تحفة المستفيد (٣٧٩/٢)، تأليف العبد القادر.

والشيخُ مباركُ بنُ عبدِ اللطيفِ الشيخِ مبارك (١٣٢٢-١٤٠٤هـ)، والشيخُ عبد اللطيفُ بنُ عبدِ العزيزِ الشيخِ مبارك (١٣٢٣-١٤٠٦هـ)، والشيخُ عبدُ الله بنُ عبدِ الرحمنِ الشيخِ مبارك (١٣٢٩-١٤٠٦هـ)، والشيخُ محمدُ بنُ عبدِ الله العِمْر المِلحَم (١٣٥٥-١٤٠٨هـ)، والشيخُ أحمدُ بنُ عبدِ العزيزِ الشيخِ مبارك (١٣٢٦-١٤٠٩هـ)، والشيخُ عبدُ الرحمن بنُ إبراهيمِ الشيخِ مبارك (١٣٣١-١٤٠٩هـ)، والشيخُ عبدُ الله بنُ محمدِ العِكلِي (١٣٢١-١٤١٠هـ)، والشيخُ يوسفُ بنُ راشدِ الشيخِ مبارك (١٣١٨-١٤١٦هـ)، والشيخُ عبدُ الله ابنُ صالحِ العَمْر المِلحَم (١٣٤٠-١٤١٨هـ)، والشيخُ عبدُ الرحمن بنُ محمدِ المِلحَم (١٣٤١-١٤٣٢هـ)، والشيخُ عبدُ الله بنُ محمدِ الرومي (١٣٣٧-١٤٣٩هـ)، رحمهم الله.

وَمِنْ عُلَمَاءِ الشَّافِعِيَّةِ: الشيخُ عبدُ العزيز بنُ عبدِ الله الدوغان (١٣٢٦-١٣٨٠هـ)، والشيخُ عبدُ الرحمن بنُ محمدِ القاضي (١٣٠٧-١٣٨٣هـ)، والشيخُ عليُّ بنُ عبدِ الله الخطيبِ الخالدي (١٣٢٩-١٣٨٥هـ)، والشيخُ عبدُ الرحمن بنُ أحمدِ السيدِ الهاشم (١٣٠٨-١٣٨٧هـ)، والشيخُ محمدُ بنُ عبدِ الله العبدِ القادر (١٣١٢-١٣٩١هـ)، والشيخُ عبدُ الله بنُ عبدِ الرحمنِ السالم (١٣٢٠-١٣٩٢هـ)، والشيخُ محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ الجُعَيْمان (... - ١٣٩٣هـ)، والشيخُ عبدُ الله ابنُ عبدِ اللطيفِ الخطيب (١٣١٣-١٣٩٤هـ)، والشيخُ محمدُ بنُ أحمدَ العبدِ اللطيف (١٣١٧-١٣٩٥هـ)، والشيخُ عبدُ الرحمن بنُ أحمدَ العثمان (١٣٢٤-١٣٩٦هـ)، والشيخُ عبدُ العزيز بنُ عبدِ الرحمنِ المُصْطَفَى (١٣١٨-١٣٩٧هـ)، والشيخُ عبدُ المحسن بنُ عبدِ الله العبدِ القادر (١٣١٤-١٤٠٧هـ)، والشيخُ عبدُ اللطيف بنُ عبدِ الله العمير (١٣٢٢-١٤٠٧هـ)، والشيخُ عبدُ العزيز بنُ محمدِ العُبَيْدِ الله (١٣١٨-١٤٠٨هـ)، والشيخُ عبدُ الرحمن بنُ محمدِ العثمان

(١٣١٥-١٤٠٩هـ)، والشيخُ عبدُ اللطيفِ بنُ عبدِ الرحمنِ الحُسَيْنِ العرفج
(١٣٢٥-١٤٠٩هـ)، والشيخُ عبدُ اللطيفِ بنُ عبدِ اللهِ العبدِ اللطيفِ (١٣٣١-
١٤٠٩هـ)، والشيخُ حسنُ بنُ حسينِ العبدِ القادرِ (١٣٢٨-١٤١٠هـ)، والشيخُ
أحمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ السيدِ الهاشمِ (١٣٣٧-١٤١٢هـ)، والشيخُ محمدُ بنُ
عبدِ الرحمنِ العميرِ (١٣٣٥-١٤١٦هـ)، والشيخُ عبدُ اللطيفِ بنُ عبدِ اللهِ
البراهيمِ العرفجِ (١٣٤٢-١٤١٦هـ)، والشيخُ عبدُ اللطيفِ بنُ محمدِ النُّعَيْمِ
(١٣٣٤-١٤١٨هـ)، والشيخُ محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ الخطيبِ (١٣٣١-
١٤١٩هـ)، والشيخُ محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ العرفجِ (١٣٣٦-١٤١٩هـ)،
والشيخُ محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ الجعفريِ (١٣٣٤-١٤٢٠هـ)، والشيخُ أحمدُ
ابنُ عبدِ اللهِ العميرِ (١٣٣٠-١٤٢٢هـ)، والشيخُ عبدُ الرحمنِ بنُ عبدِ اللهِ
العميرِ (١٣٣٩-١٤٢٣هـ)، والشيخُ أحمدُ بنُ محمدِ السيدِ الهاشمِ «النَّحْوِي»
(١٣٣٤-١٤٢٦هـ)، والشيخُ عبدُ الرحمنِ بنُ عبدِ اللهِ العبدِ اللطيفِ (١٣٢٤-
١٤٢٩هـ)، والشيخُ أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ الخطيبِ (١٣٤٠-١٤٢٩هـ)، والشيخُ
عبدُ اللهِ بنُ محمدِ العبدِ اللطيفِ (١٣٣٩-١٤٣١هـ)، والشيخُ أحمدُ ابنُ عبدِ اللهِ
الدوغانِ (١٣٣٢-١٤٣٤هـ)، والشيخُ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمنِ بو عيسى العميرِ
(١٣٤٢-١٤٣٩هـ)، رحمهم الله.

وَمِنْ عُلَمَاءِ الحنابلةِ: الشيخُ عبدُ اللهِ بنُ عمرِ الدَّهَيْشِ (١٣٢٠-١٤٠٦هـ)،
والشيخُ محمدُ بنُ عبدِ المحسنِ الخيَّالِ (١٣١٨-١٤١٣هـ)، والشيخُ عبدُ العزيزِ
ابنُ يحيى اليحيى (١٣٤٧-١٤٣٤هـ) رحمهم الله.

وَرَغِمَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ الْأَحْسَاءَ أَصَابَهَا جَزْرٌ عِلْمِيٌّ وَرَكَوْدٌ مَعْرِفِيٌّ بَعْدَ أَنْ تَرَبَّعَتْ
مِنْصَتَهُ، وَامْتَطَّتْ مِنْبَرَهُ لِقُرُونٍ مِتْطَاوَلَتْ، وَيَرْجِعُ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَمْرَيْنِ:

أحدهما: انصرافُ جيلِ الشَّبابِ إلى الحياةِ الجديدةِ التي تبلورتْ معالمُها بعدَ اكتشافِ البترول، وتأسيسِ المدارسِ النظامية، ووفرةِ الوظائفِ الرَّسمية، وقد أدَّت هذه العواملُ إلى إقبالِ الشبابِ على التعليمِ والعملِ في شكلِهما الجديد؛ طلباً منهم لتحسينِ أوضاعِهم الاقتصاديةِ والاجتماعيةِ.

ثانيهما: طغيانُ موجةٍ من المفاهيمِ والأفكارِ المُستوردةِ والغريبةِ على الأُمَّةِ الإسلاميَّة، تدورُ كُلُّها في فَلَكِ الطَّعنِ في الإسلامِ وازدراءِ علومه واحتقارِ رجاله، كالشُّيوعيَّةِ واليساريَّةِ والقوميَّةِ، وقد تأثَّرَ بها بعضُ شبابِ ذلك الجيل، فوصلَ الأمرُ عندَ بعضهم إلى اعتقادِ أنَّ سببَ تأخُّرِ المسلمينَ هو تمسُّكُهم بالإسلام، وأنَّ المسلمينَ يجبُ عليهم عَزْلُ الدِّينِ عن الحياةِ إنَّ أرادوا اللَّحاقَ بالأُممِ المتقدِّمة، كما فَعَلَتْ أوروبا عندما أَعْلَنَتْ عَزْلَ الكنيسةِ عن التأثيرِ في الحياةِ السياسيَّةِ والاقتصاديَّةِ والاجتماعيةِ والعلميةِ.

فأصابَ الأحساءَ -كغيرها من كثيرٍ من مُدنِ العالَمِ الإسلامي- فترَةٌ عن العِلْمِ الشرعيِّ وزُهْدٌ في تعلُّمه، ومرَّ عليها ما يقرُّبُ من عشرينَ سنةً، لا تكادُ تُوجدُ فيها حلقةٌ واحدةٌ منتظمةٌ لتعليمِ العِلْمِ الشرعيِّ في مدارسِها الشرعيةِ الأصيلةِ، التي صدَحَتْ مزاميرُ العِلْمِ في رحابِها، وتزيَّنتْ بالعلماءِ وطُلابِهم في أفنيتها، فتعطلَّتْ كثيرٌ من المدارسِ الشرعيةِ، واقتصرَ دورُها على إقامةِ دروسِ الوَعظِ العام، لكبارِ السَّنِّ والعوام، ولم يَتَعَدَّ دَوْرُ المساجِدِ إقامةَ الصَّلواتِ الخمسِ المفروضةِ، مُتزامنًا مع انصرافِ عامَّةِ النَّاسِ إلى مواكبةِ الحياةِ الحديثةِ في طفرتها الجديدة.

وفي يومٍ مُباركٍ من أوائلِ أيَّامِ عامِ ١٣٩٧هـ، أشرقتْ شمسُه على الأحساءِ حِسًّا ومعنى، وقبل تقاعدِ الشيخِ بعدةِ أشهرٍ، تقدَّم شابٌ في المرحلةِ الثانوية،

وهو عبد العزيز بن أحمد العبد القادر رحمه الله (١٣٧٦ - ١٤٣٠ هـ)، وعَرَضَ على الشيخ رَغْبَتَه في افتتاحِ درسٍ شرعيٍّ له ولبعضِ زملائه، فتردَّدَ الشيخُ قليلاً، وأحالَه على زميله الشيخ محمد بن عبد الرحمن الخطيب، ولكنَّ الشابَّ ألحَّ عليه، فلبَّى الشيخُ طلبه، وانعقدَ الدَّرْسُ الأوَّلُ بَعْدَ صلاةِ العِشاءِ في مسجدِ أبي عيسى في حيِّ الكُوت، وكان كِتَاباً الدَّرْسِ عُمْدَةَ السَّالِكِ وَعُدَّةَ النَّاسِكِ في الفِقهِ الشَّافعيِّ للشيخِ شهابِ الدين أحمد بن النقيب، والفوائد الشَّنْشُورية شرح المنظومة الرَّحبية للشيخ عبد الله الشَّنْشُوري في الفرائض.

وكعادةٍ كثيرٍ من الدُّروسِ لَمْ تَكُدْ تَمْضِي سَنَةً واحِدَةً إِلَّا وقد تَسَرَّبَ كثيرٌ من أولئك الطلاب، فقد التحقوا بالدراسة الجامعية بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية في مدينة الرياض؛ لأنَّ فرعَ الجامعة في الأحساء لم يُفْتَحْ بَعْدَ.

لكنَّ الدَّرْسَ ما زالَ مُنْعَقِداً، إذ إنَّ أولئك الطلابَ لَمْ يَنْفُضُوا حَوْلَ شيخهم إِلَّا وقد التَّحَقَّتْ به مجموعةٌ أخرى من طُلَّابِ المرحلة المتوسطة والثانوية، وقد شكَّلت النواة الحقيقية للدَّرْسِ الذي انتقل في تلك المدة إلى مسجد المَرابدة في حيِّ الكُوت.

استمرَّ الدرسُ بتلك المجموعة التي لا تكادُ تتعدَّى عشرة طلابٍ لمدة ثلاثِ سنوات، وكأني أسمعُ الشيخَ يدعو ربَّه أن يُثَبِّتَهُم على طريقِ العلم، وأن لا تشغلهم الشواغلُ وتقطعهم القواطعُ كما فعلتْ بغيرهم، وكأني أراه يُلاطفهم أتمَّ الملاطفة؛ لِيُرَغِّبَهُم في العلمِ ومواصلةِ التحصيل، مُتَمَثِّلاً قَوْلَ الإمام الشَّافعيِّ رحمه الله عن أصحابه وطلابه:

أُهَيْنُ لَهُمْ نَفْسِي فَهُمْ يُكْرِمُونَهَا وَلَنْ تُكْرِمَ النَّفْسُ الَّتِي لَا تُهَيِّئُهَا

وفي عام ١٣٩٨ هـ انتقل الدرس إلى مسجد العبد اللطيف في حي الكوت، ويُعدُّ هذا المسجد محطةً مهمةً في تاريخ الدرس، إذ استمرَّ تدريس الشيخ فيه لمدة ثمانية أعوام، أي إلى عام ١٤٠٥ هـ، وفي تلك المدة التحق بالركب مجموعةٌ أخرى من طلاب العلم، وكانت أعمارهم كأعمار من سبقهم، وقد شكَّلت هذه المجموعة مع من سبقهم أساس الدرس وقاعدته الرئيسة التي نهضت به في مسيرته المباركة.

ومن الكتب التي أقرأها الشيخ لطلابه في تلك المدة - إضافةً لكتابي عمدة السالك والتحفة الخيرية -: مواهب الصمد شرح منظومة الزبد للشيخ أحمد الفشني، والنفحات الصمدية للشيخ عبد الرحمن الجهنّي على طريقة سؤال وجواب، وفتح الوهاب شرح منهج الطلاب للقاضي زكريا الأنصاري، كلها في الفقه الشافعي، والإيضاح في مناسك الحج على مذهب الإمام الشافعي للإمام النووي، وقطف الثمار في أحكام الحج والاعتماد للشيخ عبد الرحمن الجهنّي، وشرح مُتمِّمة الأجر وميَّة للشيخ محمد الرُّعيني الحطّاب في علم النحو، وعظيم قدره رحمته الله ورفعة مكانته عند ربه عز وجل للشيخ خليل مُلاً خاطر، والتبيان في آداب حملة القرآن للإمام النووي.

وفي شهر ذي الحجة من عام ١٣٩٩ هـ حجَّ الشيخ مع طلابه آخرَ حجة له، وقد استفاد أولئك الطلاب المستجدون في رحاب العلم درساً عملياً تطبيقياً عن أحكام الحج والعمرة، وكيفية أدائهما، وشاهدوا عن قرب أخلاق الشيخ وأحواله.

وكان من طلاب الشيخ الذين حجوا معه: ابناه الشيخ د. محمد والشيخ عبد العزيز، والشيخ عبد العزيز بن أحمد العبدالقادر، والشيخ عبد الله بن عبد العزيز الفلاح، وجعله الشيخ أمير الرحلة، والشيخ وليد بن عبد اللطيف البراهيم العرفج، وجعله الشيخ مفتي الرحلة، وأخوه الشيخ د. أحمد بن عبد اللطيف البراهيم العرفج، والشيخ عبد اللطيف بن حمد العثمان العرفج، والشيخ عبد اللطيف بن محمد البراهيم العرفج، والشيخ عبد الرحمن بن محمد العثمان العرفج، والشيخ محمد بن عبد الله الصوفي العرفج، وابن عمه الأستاذ محمد بن حمد الصوفي العرفج، والشيخ أحمد بن عبد الله الدوغان - سَمِيَّ الشيخ -، وجعله الشيخ مسؤولاً مالياً للرحلة، والشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف العصفور، والسيد علي بن عبد الرحمن الخليفة، والأستاذ نجيب بن عبد العزيز القاضي.

وعندما سافر الشيخ مع طلابه إلى مكة لأداء الحج، وتوقفَ الدرس، جلستُ ذات يوم بعد صلاة المغرب في المسجد مع ابن العم الشيخ محمد بن عبد اللطيف البراهيم العرفج - وهو صاحب الفضل عليّ في التحاقني بالدرس -، وأخذنا نتأسف على توقفِ الدرس، وفواتِ مرافقةِ الشيخ في الحج، فسقطتُ من عيوننا دموعٌ تُعبّر عن مكانةِ الشيخ والدرس في قلوبنا.

وخلال تلك الرحلة المكية حدثت للشيخ مع طلابه مواقف كثيرة، تدلُّ على حلم الشيخ وحكمته، فمن ذلك أن طلابه كانوا حديثي العهد بطلب العلم، فكانوا يُكثرون الأسئلة على الشيخ، بحيث لو أن أحدهم سقطت شعرة منه لسأل الشيخ عنها، فكان الشيخ يُجيبهم بكل أريحية، ويؤوِّدهم من العلم ما يحتاجونه في أداء نسكهم.

وحدّث أنّ أحدَ طلابِ الشيخِ طاف طوافَ الإفاضةِ يومَ العيد، ولم يَرْمِ
جمرةَ العقبة، ولم يَحْلِقْ أو يُقَصِّرْ، فظنَّ أنه تحلّل التحللَ الأول، فلبس ثيابه،
وأقبل على أصحابه فرحًا بتحلُّله، فلما جرى الحديثُ بينهم أخبره أصحابُه
أنَّ تحلُّله غيرُ صحيح، فارتبك ولم يَدْرِ ما يفعل، فأخبروه أنه يكفيهِ أن يتنفَّ
ثلاثَ شعراتٍ من رأسه على الفورِ، ففعل.

ومن المواقفِ الطريفةِ أيضًا أن الشيخَ وطلابَه لما تحلّلوا التحللَ الثاني،
ورجعوا من مكةَ إلى منى بعد أدائهم طوافَ الإفاضة، صَلَّى الشيخُ بطلابِه إمامًا
في صلاةِ المغرب، فسَلَّمَ من ركعتين، فسَبَّح بعضُ طلابِه، فلم يَعْلَمِ الشيخُ
سببَ تسييحهم، فالتفتَ إليهم وقال: «مالكُم»، فقال تلميذهُ الشيخُ عبد الله
ابن عبد العزيز الفلاح: «لقد سلَّمتَ من ركعتين»، فقام الشيخُ وأتى بالركعةِ
الثالثة، وسجد للسهوِ وسَلَّمَ، ثم التفتَ إلى طلابه، وقال: «أيُّها الأميرُ - يقصد
تلميذه الفلاح -، قُمْ فأعدْ صلاتك».

وهذا الحكمُ بإعادةِ الصلاةِ يحتاجُ مناقشةً فقهيةً، ذلك أنه وَرَدَ في
الحديثِ الصحيح أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام سلَّم من ركعتين في صلاةِ
الظهرِ أو العصر، وفي القومِ أبو بكرٍ وعمرُ رضي الله عنهما، فهابا أن يكلماه
في شأنِ سلامه من ركعتين، وكان في القومِ رجلٌ في يديه طُول، يقال له: ذو
اليدين، فقال: يا رسولَ الله، أنسيت؟ أم قصرت الصلاة؟ فقال ﷺ: «لم أنس،
ولم تقصر»، فقال: بل نسيتَ يا رسولَ الله، فالتفتَ رسولُ الله ﷺ إليهم، وقال:
«أكمَا يقول ذو اليدين؟» فقالوا: نعم، فتقدَّم فصلَّى ما ترك، ثم سجد للسهوِ،
رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

فقد دلَّ الحديثُ على أنَّ النبيَّ ﷺ سجدَ للسهو، ولم يأمرْ ذا اليدين بإعادة الصلاة مع أنه تكلم مع النبيِّ ﷺ، فما بأل الشيخ يأمرُ تلميذه بإعادة الصلاة مع أنه تكلمَ معه بكلامٍ أقلَّ من كلامِ ذي اليدين مع النبيِّ ﷺ؟

والجوابُ عن هذا الإشكالِ ما ذكره الإمامُ الشافعيُّ رضي الله عنه في كتابه الأم (١٤٧/١-١٤٨) بقوله: «ومن تكلم في الصلاة، وهو يرى أنه قد أكملها، أو نسي أنه في صلاة، فتكلم فيها، بنى على صلاته وسجد للسهو، ولحديث ذي اليدين، وأن من تكلم في هذه الحال فإنما تكلم وهو يرى أنه في غير صلاة، والكلام في غير الصلاة مباح، ...، ولا يجوز الكلام في الصلاة على الذكر أن المتكلم في الصلاة، وإذا كان هكذا تفسد الصلاة، وإذا كان النسيان والسهو، وتكلم وهو يرى أن الكلام مباح، بأن يرى أن قد قضى الصلاة، أو نسي أنه فيها، لم تفسد الصلاة».

خلال تلك الأعوام الثمانية لم يتوقف الدرس يوماً واحداً إلا ما كان في إجازة نهاية الأسبوع وشهر رمضان وأيام الأعياد، وما عدا ذلك فقد كان الشيخ يجول بطلابه في بستان العلوم، يقطفون من ثماره اليانعة، وينهلون من عيون النابعة، يجتمعون في بيت من بيوت الله، تنزل عليهم الرحمة، وتعشاهم السكينة، وتحفهم الملائكة، ويذكُرهم الله فيمن عنده.

وقد كان الشيخُ مُدرِّكاً لأهمية التوازن في حياة طلابه، فكان يُوقف الدرس قبل الاختبارات النهائية بأسبوعين تقريباً؛ ليعطي طلابه الوقت الكافي للاستعداد للاختبارات والتفوق فيها، وكان يتابع نتائجهم، ويفرح بتفوقهم، ويهنئهم عند حصولهم على الشهادات الجامعية والشهادات العليا، وقد لاحظ علاقةً مُطرَّدةً بين تفوق طلابه في درّسهم ومدارسهم، فكان يقول: «المتفوقون في

درسي متفوقون في مدارسهم» - في إشارة إلى أن طلب العلم يُعين على التفوق المدرسي والجامعي.

وفي الوقت نفسه الذي كان الشيخ يُعطي طلابه تلك الإجازة، كان يُقيم درساً مختصراً مع بعض طلابه الموظفين، وخصوصاً بعد أن قطع الشيخ بطلبه مشواراً متقدماً، ومن الكتب التي أقرأها الشيخ لطلبه في أوقات الاختبارات على مدى عدة أعوام: المجالس السنية شرح الأربعين النووية للفشني، وشرح الحکم العطائية لابن عبّاد النّفزي، وشرحها للشيخ زروق والشيخ ابن عجيبة، وتنبیه المغتربين للشعراني، وحلية الأولياء لأبي نعيم، ومناقب الإمام الشافعي لابن كثير، ومناقب الإمام الشافعي لابن الأثير، والتقرب إلى الله للشيخ عبد الله سراج الدين، وتربيتنا الروحية للشيخ سعيد حوى، والدر الثمين في فضل العلم والعلماء والمتعلمين للشيخ أحمد عبد الباري عاموه، وغيرها.

ورغم كون الدرس يتوقف في بعض المناسبات والأوقات كشهري رمضان والأعياد، إلا أن الشيخ غرس في نفوس طلابه اغتنام أوقاتهم في تحصيل المزيد من العلوم الشرعية، وقد ائتمرت تربية الشيخ فيهم، فعلى سبيل المثال كان الطلاب يلتقون كل ليلة من ليالي رمضان، أحياناً في المدرسة الشلهوبية القريبة من مسجد الديري، وأحياناً في المدرسة الجديدة الواقعة شمال مسجد آل أبي بكر الملا، كلتاهما في حي الكوت، ويُناقشون في تلك اللقاءات مواضيع مختلفة حسب جدول محدد، يكملون من خلالها تكوينهم العلمي، وبناءهم المعرفي، وثقافتهم الإسلامية، وقد كانت تلك اللقاءات أشبه ما تكون بالمحاضرات والندوات، وكان يحضرها عدد من طلاب الدرس ومُحبّيه والمهتمين به، وقد

استمرت هذه الطريقة إلى يومنا هذا، مع تغيّر في المواقع، وتنوّع في المواضيع، وتعدّد في الدروس.

وفي تلك المدة كان الشيخ حريصاً على أن يتّصل بطلابه خارج نطاق التدريس في المسجد، فكان يفتح مجلسه لاستقبال طلابه بعد صلاة الجمعة أسبوعياً، فكان طلابه يؤدّون صلاة الجمعة، ثم يتسابقون إلى بيت شيخهم؛ ويأخذون أماكنهم في مجلسه العامر، وكان اللقاء يزيدهم قرباً نفسياً من شيخهم، وتعلّقاً به، واستفادة من علمه، وفي ذلك المجلس المبارك تُقرأ الكتب النافعة، وتُنشد القصائد الباعثة على التعلّق بالله سبحانه ومحبة رسوله ﷺ، ومن الكتب التي تمّت قراءتها: الشفاء للقاضي عياض، وتاريخ الخلفاء للسيوطي، ومقامات الحريري.

وفي أواخر عام ١٣٩٩ هـ أضاف الشيخ إلى درسه المسائي درساً صباحياً، يبدأ من وقت صلاة الضحى إلى ساعة ونصف تقريباً، وقد خصّصه الشيخ للراغبين من طلابه في مزيد من التحصيل العلمي، وقد استمر ذلك الدرس في أيام الدراسة أيضاً، ومن الكتب التي أقرأها الشيخ في درسه الصباحي تحديداً: كفاية الأختار في حلّ غاية الاختصار للشيخ تقي الدين الحصني، وفتح المعين شرح قرّة العين للشيخ زين الدين المليباري، كلاهما في الفقه الشافعي، وشرح المنظومة الجزريّة للقاضي زكريا الأنصاري في علم التجويد، وشرح الترتيب للشيخ عبد الله الشنشوري في الفرائض والمواريث والوصايا، وشرح الآجرومية للشيخ أحمد زيني دحلان في علم النحو، وشرح ألفية ابن مالك لابن عقيل في علم النحو، وشدور الذهب لابن هشام في النحو، والرسالة للإمام الشافعي في

أصولِ الفقه، والأشباهُ والنظائرُ للجلالِ السيوطي في قواعدِ الفقه، وفقهُ السيرة للشيخ محمد سعيد رمضان البوطي .

وفي الدرسِ الصَّباحيِّ كان الشيخُ عبدُ اللطيفِ بنُ عبدِ الله العبد اللطيفِ رحمه الله يحضُّرُ أحياناً؛ مغتبطاً ومسروراً بهذا النشاطِ العلميِّ الوليد، وكان يجلبُ معه بعضَ الفاكهةِ من مزرعته، كالرُّطبِ والتينِ والرُّمانِ، فكان يُقدِّمُ بنفسِه الفاكهةَ للطلاب، ووجهه يفيضُ سُوراً واستبشاراً، فكانت سحابةً من الأُنسِ والسَّعادةِ والسَّكينةِ تغشى ذلكَ الدرسَ .

ولكن في مطلعِ شهرِ محرمٍ من سنة ١٤٠٠ هـ حَدثَ ما لم يكن في الحُسبان، فقد ادَّعتْ جماعةٌ من المتطرِّفين خروجَ المهديِّ المنتظر، واقتحموا الحرمَ المكيَّ لإعلانِ خروجه، وقد تعطلَّت الصلاةُ فيه لمدةِ أسبوعين، وقد انتهت تلكَ الفتنةُ بمقتلةٍ عظيمةٍ في صفوفِهم، وفي صفوفِ الأمنينَ من المصلِّين والمعتَمرين .

وقد اضطرَّ الشيخُ أن يُبادِرَ بنفسِه بإيقافِ الدرسِ لعدةِ أسابيعٍ إلى أن تنجليَ هذه الغُمَّةُ، وتتكشِفَ تلكَ الكُرْبَةُ، وبعْدَ أن انتهتِ الأمورُ إلى خيرٍ استأنفَ الشيخُ دَرَسَه في مدرسةِ القرآنِ الكريمِ الواقعةِ جنوبَ مسجدِ آل أبي بكرِ الملا في حيِّ الكوت، الأمرُ الذي يَكشِفُ علاقةَ التَّعاونِ والتَّكاملِ بينِ مدارسِ المذاهبِ الفقهيةِ الأربعةِ في الأحساء .

وقد استمرَّ تدريسُ الشيخِ في تلكَ المدرسةِ إلى شهرِ شعبانٍ من تلكَ السنة، ثم توقَّفَ الدرسُ خلالَ شهرِ رمضان، ثم عاد الشيخُ بطلابه إلى درسه في مسجدِ العبد اللطيفِ مرَّةً أخرى .

وفي ذلكَ الوقتِ المبكِّرِ من عُمرِ الدرسِ، أخذَ الشيخُ يرتقي في تأسيسِ

دروسه العلمية في الفقه وأصوله وقواعده والنحو والأدب والفرائض والسيرة، وبدأت هويتهُ الدرس العلمية والتربوية تتبلور تدريجياً، وشرع الشيخ يضع بصماته، ويوضح اتجاهاته الوسطية المعتدلة تجاه عددٍ من القضايا المتعلقة بالخلاف الفقهي والتعدد المذهبي والمناهج العقديّة والمدارس التربوية والاتجاهات الدعوية.

وفي تلك المدة أيضاً ظهرت الحاجة إلى الاهتمام بالطلاب المترابدين على العلم، ومتابعيهم شخصياً، وتوجيههم إلى ما ينفعهم ويفيدهم، وإقامة دروس خاصة بهم، فقام بأعبائها الشيخ وبعض طلابه بإشرافه وتوجيهاته، فكان الشيخ يقيم درسه العام بعد صلاة العشاء، ويقيم عدة دروس لمجموعات صغيرة من الطلاب في أوقات مختلفة، بل كان أحياناً يخصص وقتاً من أوقاته الثمينة لطالب واحد؛ ليسرع به في اللحاق بأقرانه الذين سبقوه.

وقد ذكر الشيخ د. ناصر اللوغانى - وهو أحد طلاب الشيخ من الكويت - أنه التقى بالشيخ في المدينة المنورة صيف عام ١٤١٣هـ، وصرح له برغبته في دراسة كتاب فقهي بتمامه، وأن الوقت المتاح له محصور في العطلّة الصيفيّة، فأجاب الشيخ طلبه، فلمّا قدّم تلميذه إلى الأحساء خصّص له الشيخ ثلاثة دروس في اليوم، فتمكّن من إتمام كتاب شرح ابن قاسم الغزّي على متن أبي شجاع في شهر واحد، قراءة درس وتعليق وتحقيق، ينفك العبارة بأسلوب شيق سهل، ثم يصور مسائل الباب بأمثلة قريبة، ولا يتجاوز مسألة حتى يطمئن على فهم تلميذه لها، وكان الشيخ يحثه على المراجعة قبل الدرس، واستيعاب حاشية الباجوري بتمامها، وقد سمعه تلميذه وهو يوصي أصحابه بتجنّب إشغاله بغير العلم في جلسات النهار ومسامرات الليل.

امتدَّت تلك المرحلة التأسيسية لمدة ثمانية أعوام، بدأت من عام ١٣٩٧ هـ إلى عام ١٤٠٥ هـ، وخلال تلك المدة التحق بالدرس عشرات من الطلاب، يمكث بعضهم فيه لعدة أشهر، وتمتدُّ المدة ببعضهم إلى بضع سنوات، واستوفى بعضهم تلك المدة بأكملها، وبهم استوى الدرس على سوقه.

ونظراً للتَّمدد العُمُراني الذي شهدته تلك السنوات فقد انتقل الشيخ في عام ١٤٠٥ هـ من حيِّ الكُوت إلى حيِّ الخالدية بالهفوف، فانتقل الدرس من مسجد العبد اللطيف إلى جامع الحليبي القريب من منزل الشيخ، وأخذ الدرس يزداد نُموً وانتشاراً، وأقبل جيلٌ آخر من الطُّلاب - إضافةً للدفعة السابقة -، ولحقوا بركاب الدرس، وانطلق الشيخ بهم في مسيرة طلب العلم، وقد شكَّلت هذه الدفعة العمود الفقري للدرس.

وقد مكث الشيخ يواصل نشاطه العلمي في جامع الحليبي منذ ذلك العام إلى شهر شعبان من عام ١٤٢١ هـ، أي لمدة تزيد على خمسة عشر عاماً، وفي تلك المدة الطويلة اتَّضحت ملامح الدرس علمياً وتربوياً ودعويّاً، وصار له منهجه الخاصُّ المُستمدُّ من سعة علم الشيخ ورجاحة عقله ووساطة هديته.

كما ظهرت الحاجة الشديدة إلى تقسيم الدرس إلى دروس فرعية، تُناسب المُستظليين في وارف ظلّاله، ففي الوقت الذي كان فيه بعض الطلاب يخطون خطواتهم الأولى في الدرس كان بعضهم الآخر قد أمضى فيه ما يزيد على خمسة عشر عاماً، فقسَّم الدرس إلى دروسٍ متعددة، وتفاوتت مستوياته العلمية، وأخذ الشيخ يستعين بكبار طلابه في تدريس المبتدئين منهم.

وفي تلك المدة دخلت كتبٌ جديدة في الدرس، منها: الإقناع شرح متن

أبي شجاع للخطيب الشَّرِينِي، وفتح الجَوَادِ شرحُ الإرشادِ لشهابِ الدينِ ابنِ حَجَرِ الهَيْتَمِي، كُلُّهَا فِي الفَقْهِ الشَّافِعِي، وَتَفْسِيرِ القُرْآنِ لِلإِمَامِ ابنِ كَثِيرٍ، وَشَرْحُ صَحِيحِ مُسْلِمٍ لِلإِمَامِ النُّووي، وَفَتْحُ المُبْدِي شرحُ مُخْتَصَرِ الزَّيْدِي لِصَحِيحِ البَخَارِي لِلشَّيخِ عَبْدِ اللهِ الشَّرْقَاوِي، وَالأذْكَارُ المُنْتَخَبَةُ مِنْ كَلَامِ سَيِّدِ الأَبْرَارِ لِلإِمَامِ النُّووي، وَتَهْذِيبُ سِيْرَةِ ابنِ هِشَامٍ لِعَبْدِ السَّلَامِ هَارُونَ فِي السِّيْرَةِ النُّبُوِيَّةِ، وَحَيَاةُ الصَّحَابَةِ لِلشَّيخِ مُحَمَّدِ يُوْسُفِ الكَانْدَهْلَوِي.

وَفِي المَدَّةِ مِنْ عَامِ ١٤٠٨ هـ إِلَى عَامِ ١٤١٧ هـ تَوَلَّى الشَّيخُ إِمَامَةَ جَامِعِ مُوسَى بنِ نُصَيْرِ القَرِيبِ مِنْ بَيْتِهِ فِي حَيِّ الخَالِدِيَّةِ، فَأَقَامَ فِيهِ عَدَدًا مِنْ الدُّرُوسِ لِأَحَادِ الطَّلَابِ، أَمَّا دُرُوسُهُ العَامَّةُ فَقَدْ بَقِيَتْ فِي جَامِعِ الحُلَيْبِي.

وَنظراً لِمَا شَهِدَتْهُ تِلْكَ المَرْحَلَةُ مِنْ إِقْبَالِ مُتَزَايِدٍ عَلَى الدَّرْسِ، فَقَدْ ظَهَرَتْ الحَاجَةُ المَاسَّةُ إِلَى تَوْفِيرِ أَمَاكِنَ لِلطَّلَابِ، يُقْضُونَ فِيهَا أَوْقَاتَ فَرَاغِهِمْ، وَيَعْمُرُونَهَا بِمِمَارَسَةِ الأَنْشِطَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالتَّرْفِيهِيةِ وَالرِّيَاضِيَّةِ - وَخُصُوصاً فِي أَيَّامِ الإِجَازَةِ الصِّفِيَّةِ - ، فَجَرَّتِ العَادَةُ عَلَى الاسْتِفَادَةِ مِنْ مَزَارِعِ الأَحْسَاءِ لِهَذَا الغَرَضِ، وَكَانَ الشَّيخُ يُشْرِفُ عَلَى طُلَابِهِ فِيهَا، وَيَتَرَدَّدُ عَلَيْهِمُ بِالزِّيَارَةِ مِنْ حِينٍ لِآخَرَ، فَيَجْتَمِعُ الشَّيخُ بِطُلَابِهِ فِي مَجَالِسَ تَغْشَاها الرِّحْمَةُ، وَتَنْزِلُ عَلَيْهَا السَّكِينَةُ، يَتَعَلَّمُونَ وَيَتَأَدَّبُونَ.

وَفِي عَامِ ١٤٢١ هـ اِحْتِاجَ جَامِعُ الحُلَيْبِي لِلتَّرْمِيمِ، فَانْتَقَلَ الدَّرْسُ إِلَى جَامِعِ النُّوويِّ فِي حَيِّ الخَالِدِيَّةِ، وَقَدْ اِزْدَادَتْ أَعْدَادُ المُقْبِلِينَ عَلَى الدَّرْسِ بِشَكْلِ مُلْحُوظٍ، وَتَفَاوَتْ أَعْمَارُهُمْ وَحَصِيلَتُهُمُ العِلْمِيَّةُ تَفَاوُتاً بَيِّنًا، الأَمْرُ الَّذِي أَدَّى إِلَى زِيَادَةِ عَدَدِ الدَّرُوسِ، وَالاسْتِعَانَةَ بِمَسَاجِدٍ أُخْرَى لِاسْتِعَابِهَا، فَتَمَّ اخْتِيَارُ جَامِعِ الشَّيخِ عَبْدِ اللهِ

بو عيسى في حيِّ السُّنَيْدِيَّةِ لتدريسِ صِغارِ الطلابِ، وبقيَ المتوسِّطونَ والمتقدِّمونَ يُواصِلونَ تحصيلَهُمَ العِلْمِيَّ في جامعِ النووي، وخلالَ تلكَ المدةِ تَبَلَّورَ المنهجِ العِلْمِيُّ للدروسِ التي يُقيِّمُها الشيخُ وطلابُه بصورةٍ واضحةٍ.

ونظراً للكثرةِ الملحوظةِ في أعدادِ الطلابِ، وما نتجَ عن ذلكِ من صعوبةِ قيامِ الشيخِ بتدريسِهِمَ بنفسِهِ، ونظراً لرغبتِهِمَ في التَّلَقِّيِ المباشِرِ عنه، ونظراً لأنَّ الشيخَ يَرى ضرورةَ أن يَتَّصِلَ بطلابِهِ، ويلقاهمَ بشكلِ دَوْرِي، فقد فَتَحَ الشيخُ مجلسَهُ العامرَ ضَحَى كُلِّ يومٍ خميسٍ - وَبَعْدَ أن تَغَيَّرَتِ الإجازةُ الأُسبوعِيَّةُ تَغَيَّرَ مَوْعِدُهُ إلى ضَحَى السَّبْتِ -؛ لاستقبالِ طُلابِهِ ومُباَسَطَتِهِمَ وشَحْدِ هِمَمِهِمَ وتوجيهِهِمَ لِمَا يَنْفَعُهُمَ، وقد قُرئَ في هذا المجلسِ عددٌ كبيرٌ من الكتبِ التي تُحَقِّقُ تلكَ الأهدافَ، ومنها: سيدنا محمدٌ رسولُ الله للشيخِ عبدِ الله سراجِ الدين، وشمسُ الآفاقِ بنورِ ما للمصطفى ﷺ من كريمِ الأخلاقِ للشيخِ محمدِ علي ابنِ علانِ الصديقي، والرسولُ المعلمُ ﷺ وأساليبهُ في التعليمِ، وَصَفَحَاتٌ مِنْ صَبْرِ العُلَمَاءِ على شِدائِدِ العِلْمِ والتَّحْصِيلِ، كِلاهُما للشيخِ عبدِ الفِتاحِ أبو غُدَّة، وتراجُمُ مختارةٌ مِنْ طبقاتِ الشافعيةِ لتاجِ الدِّينِ السُّبْكي، وبستانُ العارفينَ للإمامِ النووي في النصيحةِ والأخلاقِ، والمَقْصِدُ الأَسْنَى لطلابِ الحُسْنَى في الوعظِ، ومَطالِعُ البرهانِ في نصيحةِ الوزيرِ سلطان، كِلاهُما للشيخِ محمدِ سعيد ابنِ عبدِ الله العُميرِ الأحسائي، ومختَصَرُ أشرافِ السَّاعةِ للشيخِ خليلِ ملا خاطر، والمُبَشِّراتُ شرحُ منظومةِ المكفَّراتِ للشيخِ عبدِ الله البيتوشي الكردي، وسراجُ الظُّلمِ في شرحِ تلخيصِ الحَكَمِ للشيخِ أبي بكر بن محمد الملا الأحسائي.

بَلْ إِنَّ الشيخَ كانَ حريصاً على مشاركةِ طُلابِهِ في مجالسِهِمَ، فَعِنْدَما فَتَحَ تلميذُهُ الشيخَ عبدَ الله بن عبد العزيز الفلاحِ مجلساً أُسبوعياً في مَنزِلِهِ بَعْدَ صلاةِ

الجمعة، شاركهم بعض جلساتهم، واقترح عليهم ألا تخلو مجالسهم من كتاب يقرؤونه، ثم انتقل المجلس إلى منزل تلميذه الشيخ عبدالحميد بن عبدالرحمن النعيم، فحضر الشيخ معهم بعض جلساتهم، وعندما انتقل المجلس إلى منزل والد تلميذه الشيخ عصام بن عبد العزيز الدوغان بعد صلاة العصر يوم الجمعة عام ١٤١٣هـ، حضر الشيخ أول مرة، وقال لطلابه - متواضعا مازحا -: «هل ترضون أن أحضر مجلسكم»؟ وقد كانت هذه المجالس مخصصة لاغتنام مساء الجمعة في الدعاء والذكر والصلاة والسلام على النبي محمد ﷺ وقراءة كتب العلم.

وقد انتظم الشيخ في حضور هذا المجلس المبارك بعد افتتاحه بسنة أو سنتين إلى عام ١٤٢٠هـ، حيث انتقل المجلس إلى مدرسة العثمان في حي الكوت، ومن الكتب التي قرئت فيه: شرح مختصر صحيح البخاري، المسمى بهجة النفوس وتحليلها بمعرفة ما لها وما عليها لابن أبي جمرة، ومختصر منهاج القاصدين لابن قدامة، ومحبة النبي ﷺ وطاعته بين الإنسان والجماد للشيخ خليل ملاً خاطر.

واصل الشيخ عطاءه العلمي والتربوي والدعوي، وكان يتفقد حلقات طلابه الذين قاموا بأعباء التعليم، ويتابع معهم مسيرة طلابهم، ويغمرهم بتوجيهاته وإرشاداته، ويعينهم بنصائحه وخبراته.

أخذ الضعف والوهن يدبان في ذلك الجسد الضعيف الذي قارب خمسة وتسعين عاماً، وبدأت إطلاات الشيخ على طلابه تقل شيئاً فشيئاً، واقتصر الشيخ على حضور بعض الدروس من حين لآخر، ولم تسعفه صحته إلا لحضور بعض الجلسات في بيته لدقائق معدودة، وأسند مهمة إقامة دروسه لطلابه، واستودعها

واستودعهم ربّه الذي لا تضيع ودائعه، فاستلموها بأيّمانهم، وواصلوا السير بها، سائرين على منهج الشيخ وطريقه الذي رسمه، مكرّسين حياتهم للتعلّم والتعليم، والإفادة والاستزادة، ومعرّضين - في الوقت نفسه - عن المعارك الجانيّة التي تستنزف الطاقات وتهدر القوى وتجهّد الفكر.

وما من طالب علم شافعيّ المذهب - بل وكثير من غيرهم - أقام في الأحساء في هذه العقود إلا وقد درس عند الشيخ أو عند طلابه، ويكاد يتجاوز عددهم الآلاف من الرجال والنساء، والكبار والصغار، من الأحساء وغيرها، في السعودية وخارجها، ولذلك فإنّ حصرهم يصعب، وسردهم يعسر.

واليوم - بحمد الله عز وجل - تستمرّ مسيرة دروس الشيخ أحمد الدوغان، بإشراف طلابه ومجّيبه، في استقطاب طلاب العلم، واحتضانهم منذ مرحلة مبكرة من أعمارهم، وتزويدهم بما ينفعهم في معادهم ومعاشهم، والسير بهم في مفترقات الحياة إلى برّ الأمان، وقد أخذوا حظّهم من علوم الشريعة وآلاتها، من عقيدة وفقه وأصول وتفسير وسنة وسيرة ولغة وغيرها، مستشعرين قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122]، وقول رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، رواه البخاريّ ومسلم وأحمد والترمذيّ وابن ماجه.



الفصل الرابع أخلاق الشيخ

الأخلاقُ صفاتٌ نفسيةٌ راسخةٌ، تَصْدُرُ عنها الأفعالُ يُسْرٍ وسُهولةً، دونَ حاجةٍ إلى تَكْلُفٍ ومجاهدةٍ، فإنَّ صَدَرَ عن تلك الصفاتِ النفسيةِ الراسخةِ أفعالٌ جميلةٌ سُمِّيَتْ أخلاقاً حسنةً، وإنَّ صَدَرَ عنها أفعالٌ قبيحةٌ سُمِّيَتْ أخلاقاً سيئةً، وأمَّا ما يَصْدُرُ مِنَ الأفعالِ نادراً أو تَكْلُفاً فلا يُسَمَّى خُلُقاً.

ولقد اختصَّ اللهُ الشيخَ بمجموعةٍ من الأخلاقِ الحسنةِ، التي دَلَّتْ عليها أفعالٌ جميلةٌ، صَدَرَتْ منه يُسْرٍ وسُهولةً، دونَ تَكْلُفٍ ومجاهدةٍ، الأمرُ الذي يَدُلُّ على أَنَّها صفاتٌ نفسيةٌ راسخةٌ، ليستْ عارضةً أو طارئةً، وقد أدَّى تَكَامُلُ هذه الأخلاقِ الحسنةِ - بعد توفيقِ اللهِ - إلى تَمَيُّزِ الشيخِ في جوانبِ حياته الأُسْريةِ والاجتماعيةِ والعلميةِ والعمليةِ، ومن أبرز تلك الأخلاقِ:

١. الإخلاص:

الإخلاصُ لله وحده في طاعته وتعلُّمه وتعليمه، وطَرْحُ حُظوظِ النَّفْسِ فيها، هكذا نحسبه، واللهُ حَسِيبُه، ولا نُزْكَي على اللهِ أحداً؛ لأنَّ الإخلاصَ عملٌ من أعمالِ القلوبِ التي لا يَطَّلَعُ عليها إلا اللهُ، ولكنَّ الإخلاصَ له أَمَارَاتٌ دَالَّةٌ عليه.

فَمِنْ أَمَارَاتِ إِخْلَاصِ الشَّيْخِ فِي طَاعَاتِهِ أَنَّهُ كَانَ يُخْفِي صَالِحَ أَعْمَالِهِ كَقِيَامِ اللَّيْلِ، فَقَدْ ذَكَرَ ابْنُهُ د. عَبْدُ اللَّهِ أَنَّهُ كَانَ يَعُودُ إِلَى الْبَيْتِ فِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنَ اللَّيْلِ، وَكَانَ يَمُرُّ عَلَى غُرْفَةِ الشَّيْخِ، وَنَافِذُهَا مَفْتُوحَةٌ، فَكَانَ يَرَاهُ عَلَى سَجَادَةِ الصَّلَاةِ، وَاسْتَمَرَ الْحَالُ أَيَّامًا، ثُمَّ تَنَبَّهَ الشَّيْخُ إِلَى مَرُورِ ابْنِهِ عَلَى غُرْفَتِهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ مِنَ اللَّيْلِ، فَأَغْلَقَ النَّافِذَةَ؛ لِكَيْلَا يَرَاهُ فِي قِيَامِهِ لِرَبِّهِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ عِنْدَمَا يَسْتَعِدُّ مَسَبِّحَتَهُ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَكَانٍ عَامٍّ، كَمَسْجِدٍ أَوْ مَجْلِسٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يُخْفِيهَا تَحْتَ بَشِيتِهِ؛ لِكَيْلَا يَرَاهُ النَّاسُ ذَاكِرًا لِلَّهِ.

وَمِنْ أَمَارَاتِ إِخْلَاصِ الشَّيْخِ فِي تَعَلُّمِهِ، وَأَنَّهُ مَا أَرَادَ بِهِ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ، أَنَّهُ طَلَبَ الْعِلْمَ فِي جَمِيعِ مَرَاكِلِ حَيَاتِهِ، فَقَدْ طَلَبَ الْعِلْمَ صَغِيرًا وَشَابًّا، وَكِهْلًا وَشَيْخًا، وَمُقِيمًا وَمُغْتَرِبًا، وَفَقِيرًا وَمَكْتَفِيًا، وَلَوْ أَنَّهُ طَلَبَ الْعِلْمَ لِغَيْرِ وَجْهِ اللَّهِ - لِشَهَادَةٍ أَوْ وَظِيفَةٍ - لَمَا تَعَلَّقَتْ رَوْحُهُ بِالتَّعَلُّمِ فِي كُلِّ تِلْكَ الْأَحْوَالِ وَالظُّرُوفِ.

وَمِنْ أَمَارَاتِ إِخْلَاصِ الشَّيْخِ فِي تَعْلِيمِهِ أَنَّهُ كَانَ يَنْهَى طُلَابَهُ عَنِ تَعْظِيمِهِ بِأَيِّ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ التَّعْظِيمِ، فَذَاتَ يَوْمٍ قَرَّبَ لَهُ تَلْمِيذُهُ السَّيِّدُ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَلِيفَةَ نَعْلِيهِ عِنْدَ انْصِرَافِهِمْ مِنَ الدَّرْسِ، فَتَضَايَقَ الشَّيْخُ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ، فَرَمَى إِحْدَاهُمَا يَمِينًا، وَرَمَى الْأُخْرَى شِمَالًا، فَهَمَّ تَلْمِيذُهُ أَنْ يَأْتِيَ بِهِمَا، فَقَالَ الشَّيْخُ: «إِنْ أَحْضَرْتَهُمَا فَسَأَذْهَبُ إِلَى الْبَيْتِ حَافِيًا»، ثُمَّ مَشَى إِلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا؛ مُرْسِلًا رِسَالَةً لِطُلَابِهِ أَنَّهُمْ بِتَصَرُّفِهِمْ هَذَا يَزِيدُونَ الْمَشَقَّةَ عَلَيْهِ.

وَمِنْهَا أَنَّ الشَّيْخَ كَانَ يَنْهَاهُمْ عَمَّا هُوَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ مُعَامَلَتُهُ مُعَامَلَةً تَشْتَمِلُ عَلَى أَدْنَى دَرَجَاتِ الْمَبَالِغَةِ وَالتَّكَلُّفِ، فَكَانَ يَنْهَاهُمْ عَنِ تَقْبِيلِ رَأْسِهِ وَيَدِهِ رَغْمَ أَنَّهُ يَكْبُرُهُمْ بِسِتِينَ وَسَبْعِينَ سَنَةً، وَكَانَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْقِيَامِ لَهُ عِنْدَ دُخُولِهِ الْمَجَالِسَ أَوْ خُرُوجِهِ مِنْهَا، وَلَا تَكَادُ تُحْصَى الْمَرَّاتُ الَّتِي يَدْخُلُ مَجْلِسَهُ وَهُوَ

يُشير بيده لطلابه قائلاً: «جلوس جلوس»، أو يتقدّم أحد أبنائه مخبراً لطلابه أنّ الشيخ سيدخل بعد قليل، وأنه يؤكّد عليهم عدم القيام له عند دخوله، فإن دخل ورآهم قائمين له وقف عند الباب، ولم يدخل حتى يجلسوا.

بل كان الشيخ يهدّد طلابه بالانصراف عن مجالستهم إن لم يستجيبوا لرغبته، وكان طلابه يحرجون عندما يكون بعض العلماء والدعاة ضيوفاً في مجلسه، فيدخل الشيخ عليهم، فلا يقوم له طلابه، فيتعجّب الضيوف من هؤلاء الطلاب، فيوضّحون لهم كراهية الشيخ للقيام له، وأمره لهم بذلك.

ومنها أنّ الشيخ كان ينهاهم عمّا هو أدنى من ذلك، وهو مدحه والثناء عليه بأيّ كلمة، ويكره أن يصفه طلابه بأنه شيخهم، فقطع السنة المادحين له: شعراً ونثراً، ولم يكن هذا النهي تكلفاً منه، بل كان سجيّة في نفسه، أي إنه لم يكن ينهي عن المدح أو يكرهه مع سكوته عن مادّحه، بل كان يتألّم لمدحه كثيراً، ويغضب على مادّحيه، وينهاهم عن العودة لمدّحه، ويترك حضور المجالس التي يظن أنّ مدحاً أو ثناءً سيَطوّلُه فيها.

فقد دعوتُ شيخنا ذات يوم إلى وليمة بمناسبة سُكناي في بيتٍ جديد، فلما استقرّ الشيخ في المجلس قلتُ - فرحاً مسروراً بشيخي -: «من أكرم منّي ضيوفاً اليوم»، فقال الشيخ لي بنبرة حازمة: «إمّا أن تسكتَ وإمّا أن أنصرف».

ومنها أنّ الشيخ كان في مجلسٍ مع طلابه، ومعهم ضيوفٌ من العلماء والدعاة، فطلب الضيوف أن يتكلّم أحد طلابه، فقدّموني للكلام، وكنت في آخر المجلس، فأضمرتُ في قلبي أن أمدح شيخي، وفي طريقي إلى صدر المجلس مررتُ عليه، فنظر إليّ نظرة حازمة، ثم قال لي: «إياك والمدّيح».

إلا أنني - أحياناً قليلة - أتمكن من البوح للشيخ بشيء من مدّحه والثناء عليه،

فقد قال لي ذات مرة - مبتدئاً -: «هذه بضاعتكم رُدَّتْ إليكم»، يقصد أن العلم الذي حصَّله من دراسته على جدِّي الشيخ محمد بن حسين العرفج قد عاد لي، ولا أشكُّ لحظةً أن الشيخ كان يقصدُ تشجيعي على مواصلة طلب العلم، وإلا فالعلم الذي عندي إلى جانب علم الشيخ كقطرةٍ إلى بحر، فاغتنمتُ هذا الموقفَ، وقلت له: «أنت الواسطة، ولولا الواسطة لذهب الموسوط»، فسكت الشيخ مبتسماً.

ومنها أنني كنتُ في مجلس الشيخ ذات يوم، ومعنا عددٌ من طلابه، وكنا نقطفُ منه العلمَ والتربيةَ ثمرًا جنيًا، فلم أتمالكُ نفسي من التعبيرِ له عن تقديرنا العظيم لجهده وبذله وتضحيتِه وعطاءه، فقلتُ له:

وَلَأَنْتَ بَحْرٌ نَحْنُ مِنْكَ جَدَاوُلٌ مُدَّتْ وَبَدَرٌ نَحْنُ حَوْلَكَ أَنْجُمٌ
 إِنْ كَانَ لِي أَصْلٌ كَرِيمٌ قَدْ ذَرَى فَلَقَدْ نَمَّا لِي مِنْكَ فَرْعٌ أَكْرَمٌ

فقال لي مبتسماً: «هذا الكلامُ ينطبقُ على جدِّك»، فقلت له: «أنت الواسطة، ولولا الواسطة لذهب الموسوط»، فسكت مبتسماً، وتلك كانت المرَّاتِ القلائِلُ التي أثَّنتُ عليه فيها، فتقبَّلها قبولاً حسناً.

ومن مواقف الشيخ في نهِّي طلابه عن مدحه والثناءِ عليه أن تلميذَه الشيخ د. خالد بن محمد الدوغان نال درجةَ الماجستير، وكتبَ في بدايةِ الرسالةِ ثناءً على الشيخ، ثم أهدى نسخةً منها له، فلَمَّا فَتَحَهَا وَقَرَأَ الثناءَ عليه قال له: «ماذا يقولُ أحمدُ الدوغان يومَ القيامة، والشافعيُّ يقول: «وَدِدْتُ لَوْ أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ انْتَشَرَ وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ»، لا أَجْعَلُكَ فِي حِلٍّ حَتَّى تُزِيلَ هَذِهِ الْوَرَقَةَ».

ومنها أن تلميذَه الشيخ د. محمد بن عبد الله الجغيمان كتبَ على أحدِ كتبه التي يقرؤها في الدرسِ مع الشيخ: «بدأنا قراءةَ هذا الكتابِ مع فضيلةِ الشيخ الصالحِ العالمِ أحمدِ الدوغان»، فاطَّلَعَ الشيخُ على الكتابِ ذاتَ يوم، فتضايق

من هذا الوصف، فكتب فوق كلمة (الشيخ) كلمة (العاجز)، وكتب فوق كلمة (الصالح) كلمة (المهمل)، وكتب فوق كلمة (العالم) كلمة (الجاهل)، وأراد بذلك أن يكون أبلغ في نهْي طلابه عن مدحه والثناء عليه.

ومنها أن الأستاذ معاذ بن عبد الله آل الشيخ مبارك ألف كتاباً عن علماء الأحساء بعنوان: «شخصيات رائدة من الأحساء»، وترجم فيه للشيخ، فلما صدر الكتاب أخذ المؤلف منه نسخة، وذهب إلى منزل الشيخ؛ ليُهديه إياها، وكان معه ابن عمه الشيخ د. قيس بن محمد آل الشيخ مبارك، فلما أطلع الشيخ على ترجمته في الكتاب قال له: «لقد قصمت ظهري».

ومنها أن الشيخ كان لا يزور مجالس العلماء مع عدد كبير من طلابه؛ لئلاً يناله مدح أو ثناء، فكثيراً ما كان يزورهم منفرداً، بل كان أحياناً يخفي شخصيته عن العلماء الذين يزورهم، وقد صرح لطلابه بأنه كان يشعر بالأنس والراحة إذا سافر إلى مكة والمدينة، ودخل الحرمين الشريفين، وأخذ يصلي ويقرأ ويطوف ويدعو ويذكر، ويقصد حلقات العلماء، دون أن يلتفت إليه أحد أو يشعر به إنسان، ولذلك فقد كان لا يلبس البشت في الحرمين؛ لئلاً يلتفت إليه أحد رغم أنه من سمته الذي لا يتركه في الأحساء، وكان يبيدي تضايقه عندما قام بعض طلابه بإشهار اسمه في مجالس علماء الحرمين، فصاروا يلتفتون إليه، ويسألون عنه، ويتابعون أحواله، وكان يقول: «الظهور يقصم الظهر».

ومن الأمثلة على ذلك أن الشيخ كان يتطلع إلى الالتقاء بالشيخ عبد الله بن سعيد اللّحجي رحمه الله (١٣٤٣-١٤١٠هـ)، المدرّس بالحرم المكي، فقصد مكة المكرمة في إحدى السنوات، وعندما كان في الحرم أخبره تلميذه الشيخ أحمد بن عبد الرحمن العثمان أن الشيخ اللّحجي موجود في الحرم، وعرض

عليه قَصْدَهُ وَالسَّلَامَ عَلَيْهِ، فَخَشِيَ الشَّيْخُ أَنْ يُثْنِيَ عَلَيْهِ تَلْمِيزُهُ، فَاعْتَذَرَ وَأَظْهَرَ انشغاله عن اللقاء، وعندما انصرف تلميذه قام الشيخ وقصد الشيخ اللحجي، وسلّم عليه، فسأله عن شخصه، فأخبره أنّه أحد كبار السن من الأحساء، فسأله عن الشيخ أحمد الدوغان - وكانت سيرته قد سبقت إليه -، فأخبره أنّه بخير وعافية، ثم سأله الشيخ مسألة فلم يُجب عنها، ولكنه قال له: «إذا رجعت إلى الأحساء فاسأل الشيخ أحمد الدوغان»، ثم انصرف مخفياً عنه أنّه المسؤول عنه والمُحال عليه، وفي اليوم التالي التقى الشيخ اللحجي بأحد طلاب الشيخ، وهو الشيخ أحمد بن عبد الله الدوغان - سمي الشيخ -، فأخبره أنّ شيخاً كبيراً من الأحساء، صفته كذا كذا، قد جاءه بالأمس، وسلّم عليه، وسأله مسألة، فقال الطالب: «ذلك هو الشيخ أحمد الدوغان».

لقد كان الشيخ أحياناً يترك زيارة العلماء - مع محبته الشديدة لهم، ورغبته في مجالستهم -؛ كراهية أن يعظّمه أحد منهم، فيدخل نفسه عُجْبٌ أو كِبَرٌ، ومن الأمثلة على ذلك أنّه كان في الحرم المكي قبيل المغرب، فجاءه تلميذه الشيخ أحمد بن عبد الرحمن العثمان، وأخبره أنّ عدداً من العلماء سيجتمعون الليلة، وأنها فرصة للاجتماع بهم، فلم يرغب الشيخ في الذهاب مع طلابه، فراجع تلميذه مرة أخرى، فاحمر وجه الشيخ، وتقاطرت دموع ساخنة على لحيته البيضاء، وقال: «ستقولون: هذا شيخنا، وهذا وهذا،... من أراد العزة بغير الله أذله الله».

بل كان الشيخ ينهاهم عمّا هو أدنى من ذلك، وهو اعتقاد علمه وفضله، ومن أدلة ذلك أنّه كان مع طلابه يقرّون كتاب الدرّ الثمين في فضل العلم والعلماء والمتعلمين للشيخ أحمد عبد الباري عاموه، فكان المؤلف يذكر الآداب التي

يَنْبَغِي عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ مُرَاعَاتُهَا مَعَ شَيْخِهِ وَمُعَلِّمِهِ، فَقَالَ الشَّيْخُ لَطَالِبِهِ: «لَسْتُ أَنَا، وَإِنَّمَا مِثْلُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَطِيبِ»، يَقْصِدُ صَاحِبَهُ.

ولذلك فلا عَجَبَ أَنْ كَانَ الشَّيْخُ يَنْهَى عَنْ كِتَابَةِ تَرْجُمَةٍ عَنْهُ، فَقَدْ كَانَ تَلْمِيزُهُ الشَّيْخُ د. عَصَامُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخَطِيبِ يَسْأَلُهُ السُّؤَالَ تِلْوَةَ السُّؤَالِ عَنْ مَشَائِخِهِ وَدِرَاسَتِهِ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ الشَّيْخُ يُجِيبُهُ، ثُمَّ انْتَبَهَ الشَّيْخُ إِلَى كَثْرَةِ أَسْئَلَةِ تَلْمِيزِهِ، فَقَالَ لَهُ: «هَلْ تَرِيدُ أَنْ تَعْمَلَ لِي تَرْجُمَةً؟ لَا تَعْمَلْ، وَقُلْ: أَكْسَلُ الْكُسَالَى أَحْمَدُ الدَّوْعَانُ».

فَإِذَا تَبَيَّنَ مَقْدَارُ تَضَائِقِ الشَّيْخِ مِنْ كَلِمَةٍ مَدْحٍ لَهُ أَوْ ثَنَاءٍ عَلَيْهِ، تَبَيَّنَ مَقْدَارُ الْحَرَجِ الْبَالِغِ الَّذِي أَصَابَهُ عِنْدَمَا قَامَ تَلْمِيزُهُ الشَّيْخُ الشَّاعِرُ د. عَبْدِ الرَّؤُوفِ بْنِ مُحَمَّدِ الْعَبْدِ اللَّطِيفِ بِإِنْشَاءِ قَصِيدَةٍ فِيهِ، تَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانِي الْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ، وَالْحُبِّ وَالْوَفَاءِ، فِي مَجْلِسِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيِّ آلِ الشَّيْخِ مَبَارِكِ رَحِمَهُ اللَّهُ (١٣٣٧-١٤٣١هـ)، وَبِحُضُورِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْفَتْاحِ أَبُو عُذَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ (١٣٣٦-١٤١٧هـ)، وَأَمَامَ عَدَدٍ مِنَ الضُّيُوفِ وَالطُّلَابِ.

لَقَدْ كَانَ مَوْقِفًا عَصِيبًا عَلَى الشَّيْخِ، أَحْمَرَّ وَجْهَهُ، وَاعْرَوْرَقَتْ بِالْذَمِّ عَيْنَاهُ، وَاخْتَنَقَتْ الْكَلِمَاتُ فِي حَنَجْرَتِهِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَزِيدَ عَلَى قَوْلِهِ: «هَذِهِ مَبَالِغَةٌ، لَسْتُ أَهْلًا لِذَلِكَ»، فَردَّ عَلَيْهِ الشَّيْخُ عَبْدُ الْفَتْاحِ: «نَعَمْ، مَبَالِغَةٌ فِي التَّقْصِيرِ»، فَلَمَّا انْتَهَى الْمَجْلِسُ، وَخَلَا الشَّيْخُ بِتَلْمِيزِهِ، عَاتَبَهُ عِتَابًا شَدِيدًا، وَأَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ وَالْمَوَاتِقَ أَنْ يُتْلَفَ الْقَصِيدَةُ، وَأَلَّا يُظَهَّرَهَا لِأَحَدٍ، فَلَبَّى التَّلْمِيزُ طَلِبَ شَيْخِهِ إِلَى حِينٍ، وَهِيَ الْقَصِيدَةُ كَامِلَةٌ:

أَنْهَارُ عِلْمِكَ فِي الْبِلَادِ تَدْفُقُ وَالشَّمْسُ فِي قَسَمَاتِ وَجْهِكَ تُشْرِقُ

وضيَاءُ طَلَعَتِكَ الْبَهِيَّةِ إِنْ بَدَا
 أَجْلُو الصَّدَى وَالرَّانَ عَنْهَا إِنِهَا
 وَأَعْبُ مِنْ رَاحِ الْعُلُومِ فَأَنْتَشِي
 فَلَكُمْ أَنْزَتْ عَقُولَنَا بِفَوَائِدِ
 وَلَكُمْ زَرَعْتَ سَكِينَةً بِقُلُوبِنَا
 نَأْتِيكُمْ لِنُغِيثَ أَنْفُسَنَا تُقَى
 مَا زَالَ فِي سَمْعِي رَنِينَ حَدِيثِكُمْ
 أَبْنِي عَيْشُوا لِلْعُلُومِ فَخَيْرُكُمْ
 لَا تَقْبَلُوا غَيْرَ الْعُلَا وَتَجَنَّبُوا
 وَخُذُوا بِدَرْبِ الْعِلْمِ دَرْبًا وَاجْعَلُوا
 قُوَّوَا الْمُتُونَ وَلَا يُقَوِّيهَا سِوَى
 عَلَّمْتَنَا أَدَبَ التَّعَلُّمِ جَاهِدًا
 عَلَّمْتَنَا حُبَّ النَّبِيِّ وَصَحْبِهِ
 مَا زِلْتُ أُمَطِّرُ مِنْ سَحَابِ فَضْلِكُمْ
 مَا زِلْتُ أَعْرِفُ مِنْ مَوَارِدِ جُودِكُمْ
 عُدْرًا لِتَقْصِيرِي بِحَقِّكَ سَيِّدِي
 فَأَنَا أَقَلُّ مِنَ الْقَلِيلِ بِجَنْبِكُمْ
 وَاللَّهِ لَوْ ظَلَّتْ تُسَطَّرُ أَنْمَلِي
 لَمْ تَبْلُغِ الْمَعْشَارَ مِنْ أَفْضَالِكُمْ

أَلْفَيْتُنِي بِسْتَانُ رُوحِي يُورِقُ
 بِالْبُعْدِ وَالْعِصْيَانِ كَادَتْ تَخْلُقُ
 طَرَبًا وَمِنْ أَخْلَاقِكُمْ أَتَخَلَّقُ
 وَفِرَائِدٍ مِنْ ثَغْرِكُمْ تَتَدَفَّقُ
 فَغَدَّتْ تَبَسُّمٌ بِهَجَّةً وَتُصَفِّقُ
 فَنَرَاكُمُ وَسَنَا تُقَاكُمُ يَبْرِقُ
 فَحَدِيثِكُمْ فِي الْأُذُنِ دَوْمًا يَطْرُقُ
 مَنْ عَاشَ يَقْرَأُ يَسْتَفِيدُ يُحَقِّقُ
 أَهْوَاءَ مَنْ عَشِقُوا الْحَيَاةَ وَطَلَّقُوا
 أَفْوَاهِكُمْ بِشَذَا الْمَعَارِفِ تَعْبِقُ
 حِفْظِ الْمَتُونِ فَأَيْكُمْ مَنْ يَسْبِقُ
 كَيْفَ الْوَقَارُ وَمَا يَكُونُ الْأَلِيْقُ
 فَغَدَّتْ مَدَائِحُنَا بِهِ تَتَأَلَّقُ
 وَأَشْمُ مِنْ زَهْرِ زَرَعْتَ وَأَنْشِقُ
 مِنْحًا وَمِنْ تِلْكَ الْمَوَارِدِ أَعْجِبُ
 إِنَّ السَّكُوتَ لَفِي مَقَامِي أَلِيْقُ
 أَوْ كَيْفَ أَجْرُؤُ بِالْمَدِيحِ وَأَنْطِقُ
 بِمَدِيحِكُمْ أَبْيَاتَهَا وَتَنْمِقُ
 وَلَكُنْتُ مِنْ عَدِّ الْمَكَارِمِ أَرْهَقُ

فَأْمُنْ عَلَيَّ بِرَفْعِ كَفِّكَ لِلسَّما تَدْعُو بَأْنِي فِي الْحِياةِ أَوْقُقْ
وَإِذا سَأَلْتُكَ أَنْ أُقْبَلَ كَفِّكُمْ فَأَذِنْ لِشَعْرِي فَهُوَ صَبُّ وَامِقْ

وكان الذي دعا تلميذه وشجعه على إلقاء هذه القصيدة في هذا الجمع الكبير ما ذكره بقوله: «في عام ١٤١٢هـ، كنت في المرحلة الجامعية، وكنت قد بدأت في كتابة الشعر ونظمه، فزار الأحساء رجل كريم وشيخ فاضل، هو الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، فالتقى بالشيخ أحمد الدوغان والشيخ أحمد بن علي آل الشيخ مبارك رحمهما الله، وكان الشيخ أحمد بن علي أستاذاً لي في الأدب والشعر، وكان مُحفِزاً كبيراً في هذا المجال، فالتقينا في إحدى المزارع، وكان الشيخ أحمد قد دعا الشيخ عبد الفتاح والشيخ أحمد الدوغان في منزله العامر في مجلس الأحديّة في ضحى أحد الأيام، فقال لي - وقد كان يعرف أنني بدأت في نظم الشعر، ولكنني لا أجرؤ على إلقاءه أمام الناس -: «الآن جاءتك الفرصة، فمن المناسب أن تنظم قصيدة، تمدح فيها الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وترحب به في مقدمه للأحساء»، فامتثلت لهذا الأمر، وأخذت الورقة والقلم، وما كدت أبدأ حتى رأيت أنه من العُقوق عليّ أن أنظم مدحاً في أي شخص في هذه الدنيا قبل أن أمدح أستاذاً وشيخي ومن ربّاني في هذه الدنيا بعد أبي رحمه الله، فشرعت في نظم قصيدة في مدحه، وجئت في اليوم التالي، وأخبرت الشيخ أحمد بن علي، ففرح فرحاً شديداً، وأعرض عما كان قد طلبه مني، وبعد أن أدينا صلاة الظهر، وجلسوا مجالسهم، قال الشيخ أحمد بن علي للشيخ عبد الفتاح: «طوبى لمن طلاب الشيخ أحمد الدوغان - وكنت لم ينبت شعري لحياتي بشكل جيد - عنده قصيدة، ففرح الشيخ أحمد الدوغان عندما سمع هذا الكلام، يظنّها أنها في الشيخ عبد الفتاح، - وهي في مدح الشيخ أحمد الدوغان»، عند ذلك

رأيتُ الشيخَ قد تَغَيَّرَ لونهُ، وتَغَيَّرَتْ تعابيرهُ وجهه، حتى خَشِيتُ على نفسي من الإثم، ولكنْ لَمْ يَكُنْ هناكُ بُدٌّ من إلقاءِ هذه القصيدةِ، فبدأتُ في قراءتها، وبعْدَ بَيِّنَةٍ أو ثلاثةِ رفعتُ رأسي عن الورقة، فرأيتُ الشيخَ قد بكى حتى بَلََلَ لِحْيَتَهُ من البكاء، وَسَمِعْتُ الحاضرينَ من طلابه يَبْكُونَ، فحَنَقْتَنِي العبرة، والشيخُ عبدُ الفتاح يقول: «نعم، نعم، أكْمَل»، ولا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكْمَلَ إِلَّا بَيْتاً بَيْتاً، والقصيدةُ من بداياتي الشعريَّة، ولكنها تَحْمِلُ عَبَقَ مديحِ الشيخِ أحمدِ الدوغان؛ لأنِّي لَمْ أَنْظِمَ غَيْرَهَا، وقد ظَلَّ الشيخُ عاتباً عليّ مدَّةً، واعتذرتُ له كثيراً عن هذا الأمر، فلمْ يَقْبَلْ اعتذاري حتى أَخَذَ عهداً عليّ، وقال: «أنا شيخُك، وتريدُ رضايَ عليك، أَلَا تَعُودُ لِمِثْلِ هذا الأمرِ، وهذه القصيدةُ أَحْرَقَها أو ادفنَها»، وما زلتُ أَذْكَرُ هاتين الكلمتين، ولكنْ يَبْدُو أَنَّ أَحَدَ الحاضرينَ من طلابه أو غيرهم قد سَجَّلَ صوتي، فانتشَرتِ القصيدةُ.

وخلِصَةُ الأمرِ أَنَّ الشيخَ كانَ حازماً في تعامله ضِدَّ كُلِّ ما يُكَدِّرُ عليه إخلاصه أو يُشَوِّشُ عليه نِيَّتَه، فما كانَ يريدُ من أَحَدٍ جزاءً ولا شكوراً، ولا مدحاً أو ثناءً، بل كانَ في حالةِ يَقْظَةٍ دائمةٍ من مداخلِ الشيطانِ من خِلالِ ثَغراتِ النَّفْسِ الباحثةِ عن المصلحةِ والشُّهْرَةِ.

بل كانَ الشيخُ يَخْشَى على نَفْسِهِ من نَفْسِهِ، يَخْشَى أَنْ يَدْخُلَها غرورٌ أو عُجْبٌ أو كِبَرٌ، وخصوصاً إذا أَوْشَكَ على الدُّخُولِ على طلابه، فقد ذَكَرَ ابنُه الشيخُ عبدُ العزيزِ أَنَّ الشيخَ رَغِمَ اشتدادِ المرضِ به في آخِرِ حياتِه، وتَعَكَّرَ مزاجه، وقُوَّةُ آلامه، كانَ يقوِّدُ به الكرسيَّ المتحرِّك، ويذهبُ به إلى المجلس، حيثُ يجتمعُ الطلابُ والضيوفُ، فكانَ يسمعُ الشيخَ يتعوَّذُ باللهِ مِنَ الغرورِ والكِبَرِ.

٢. الورع:

الْوَرَعُ والاحتياطُ واتِّقاءُ الشُّبُهَاتِ، ولستُ مُبَالِغاً إِنْ قُلْتُ: إِنَّ الشَّيْخَ بَلَغَ مَبْلَغاً فِي الْوَرَعِ يُقَارِبُ وَرَعَ السَّلَفِ الصَّالِحِ الْمُدَوَّنِ فِي كِتَابِ التَّرَاجِمِ وَالطَّبَقَاتِ، فَمِنْ وَرَعِهِ أَنَّهُ كَانَ يُعَامِلُ نَفْسَهُ بِالْأَشَدِّ وَالْأَحْوَطِ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ الْفَقْهِيَّةِ حَتَّى لَوْ كَانَ التَّيْسِيرُ فِي مَذْهَبِهِ الشَّافِعِيِّ، فَقَدْ كَانَ يَحْتَاجُ الْمَالَ، وَكَانَ تَحْصِيلُهُ مَيْسُوراً بِطَرِيقَةِ بَيْعِ الْعَيْنَةِ الْجَائِزِ فِي الْمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ بِتَفْصِيلِ^(١)، وَكَانَ مَتَشَرّاً بَيْنَ النَّاسِ، وَرَغَمَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ يَتَوَرَّعُ مِنَ الدُّخُولِ فِيهِ؛ مِرَاعَاةً لَخِلَافِ الْعُلَمَاءِ، وَتَطَلُّباً لِلْإِحْتِيَاظِ وَالْوَرَعِ، وَكَانَ يَتَوَضَّأُ مِنْ أَكْلِ لَحْمِ الْجَزُورِ رَغَمَ عَدَمِ انْتِقَاضِ الْوَضُوءِ بِهِ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيَّةِ.

وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ فَإِنَّ الشَّيْخَ لَمْ يَكُنْ يَأْخُذُ بِرُخْصِ الْمَذَاهِبِ الْفَقْهِيَّةِ الْآخَرَى رَغَمَ حَاجَتِهِ الشَّدِيدَةِ لَهَا، فَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، إِذَا كَانَ فِي الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ كَانَ يُحِبُّ الْإِقْتِرَابَ مِنَ الْكَعْبَةِ، وَيُحِبُّ أَنْ يُصَلِّيَ فِي صَحْنِ الْحَرَمِ؛ لَكَيْ يَرَاهَا عَيَاناً فِي الصَّلَاةِ، وَذَاتَ يَوْمٍ لَمَسَتْهُ امْرَأَةٌ أَعْجَنِيَّةٌ فِي الرَّحَامِ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ، وَذَلِكَ يَنْقُضُ الْوَضُوءَ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ، فَرَجَعَ الشَّيْخُ وَتَوَضَّأَ رَغَمَ صِحَّةِ الْوَضُوءِ عِنْدَ الْمَذَاهِبِ الثَّلَاثَةِ الْآخَرَى: الْحَنْفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةَ، وَكَانَ إِذَا طَافَ طَوَافَ نَافِلَةٍ أَدْخَلَ يَدَيْهِ تَحْتَ عُتْرَتِهِ، وَلَبَسَ جُورِباً فِي قَدَمَيْهِ.

(١) صُورَةُ بَيْعِ الْعَيْنَةِ أَنْ يَشْتَرِيَ مَشْتَرٍ سَلْعَةً مِنْ بَائِعٍ بِثَمَنِ مُؤَجَّلٍ، فَإِذَا تَمَّ الْعَقْدُ وَالْقَبْضُ بَاعَ الْمَشْتَرِي السَّلْعَةَ عَلَى الْبَائِعِ بِثَمَنِ حَالٍّ أَقَلَّ مِنَ الثَّمَنِ الْمَوْجَلِ، وَحُكْمُهُ أَنَّهُ إِنْ تَمَّ بَيْعُ الْعَيْنَةِ بِدُونِ اتِّفَاقِ سَابِقٍ بَيْنَ الْعَاقِدَيْنِ، فَهُوَ بَيْعٌ صَحِيحٌ جَائِزٌ، فَإِنْ اتَّفَقَا شَفْهِوياً عَلَى بَيْعِ الْعَيْنَةِ، أَوْ جَرَى بِهِ عُرْفٌ، فَهُوَ بَيْعٌ صَحِيحٌ مَكْرُوهٌ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُلْزِمٍ، أَمَّا إِنْ نَصَّ الْعَاقِدَانِ فِي الْعَقْدِ عَلَى بَيْعِ الْعَيْنَةِ، فَهُوَ بَيْعٌ بَاطِلٌ مَحْرَمٌ.

وكان الشيخ لا يترك طواف الوداع في حج أو عمرة؛ لأن المعتمد في مذهب الشافعية وجوبه، وكان يجد صعوبة في أدائه بسبب الزحام الشديد، ورغم معرفته بسنيته عند بعض المذاهب الأخرى إلا أنه لم يرحص لنفسه أن يأخذ بالأيسر، وكان يقول: «قلد في الفعل، وليس في الترك».

ومن المسائل المقررة في المذهب الشافعي وبعض المذاهب الفقهية الأخرى أن تعدد الجوامع لا ينبغي إلا للحاجة، فإذا كثرت الجوامع فوق الحاجة فإن صلاة الجمعة لا تصح إلا للجمع السابقة، ويجب على الجمع المتأخرة أن تصلّيها ظهراً، فكان الشيخ إذا صلى الجمعة، ورجع إلى بيته، صلى الظهر؛ احتياطاً لصلاته.

ومن ورع الشيخ الناتج عن التطبيق الفقهي أنه لم يكن يشتري من صغار البائعين في البقالات ومحلات الخضار والفواكه وما أشبهها؛ لأن من شروط صحة البيع والشراء كمال التصرف في العاقدين، ولا يكمل التصرف إلا بالبلوغ والعقل، ولعل من أسباب امتناع الشيخ عن التعامل مع الصغار أن لا يبخسهم حقهم عند التفاوض على سعر البضائع والسلع بما جرت به العادة.

ومن ورع الشيخ أنه سقط ذات مرة سقطة تسببت في كسر يده، فوضعت عليها الجبيرة، ومكث الشيخ شهراً والجبيرة في يده، فلما نزعته عنه أعادت تلك الصلوات جميعاً؛ التزاماً بمذهب الشافعية بوجوب إعادة الصلاة إذا كانت الجبيرة على عضو من أعضاء التيمم؛ بسبب نقصه ونقص الوضوء.

ومن الأمثلة الدالة على عظيم ورع الشيخ واحتياطه لدينه أنه ذهب إلى مكة المكرمة مع بعض طلابه في يوم الخميس ٢٢/١٢/١٤١٤هـ؛ للتعزية

في وفاة الشيخ إسماعيل بن عثمان الرّين رحمه الله (١٣٥٢-١٤١٤هـ)، فلمّا أدّوا العمرة، وقاموا بواجب التعزية، توجّهوا إلى المدينة المنورة يوم الجمعة، وفي يوم السبت بعد الإشراق ذهبوا إلى مسجد قباء، وأثناء صلاة الشيخ سنة الضّحى رأى تلميذه الشيخ أحمد بن عبد الله الدوغان - سميّ الشيخ - قطعة سوداء كالشامة في قدم الشيخ، فقام بحكّها، فالتفت الشيخ مستفهماً، فأخبره تلميذه أنها قطعة حائلة لو صول الماء، فقام الشيخ ليُعيد الوضوء والصلاة، فأخبره تلميذه السيد إبراهيم بن عبد الله الخليفة أنه رأى هذا الحائل في الأحساء، فتصايق الشيخ لذلك ضيقاً شديداً، وبعد الغداء أخبر طلابه أنه سيعود إلى مكة؛ لإعادة العمرة، فحاول طلابه ثنيه عن عزمه، وأخذوا يبحثون عن مخرج فقهيّ، ولكنّ الشيخ أصرّ على رأيه، فذهب معه تلميذه السيد علي بن عبد الرحمن الخليفة بسيارة أجرة إلى مكة، وأعاد العمرة، ثم ذهباً إلى مطار جدة، فلم تيسر رحلة إلى الأحساء، ولكنهما جدّا رحلة إلى الرياض بعد انتظار سبع ساعات، فلمّا وصلا إليها حجزا على النقل الجماعي، ولم يصلوا إلى الأحساء إلا بعد جهد جهيد، وقد جرّت هذه الحادثة والشيخ قد تجاوز الثمانين.

وقد بلغ من الورع الشديد أنّ الشيخ ما كان يُفتي إلا ممّا نصّ عليه فقهاء المذهب الشافعي، أمّا ما ليس لهم فيه نصّ فقد كان يتورّع عن الإفتاء فيه إلا قليلاً، وكان يتشاور مع بعض طلابه فيه قبل إفتائه.

ومن الورع الذي اتّصف به الشيخ في تعامله مع طلابه أنه ما كان يسمّح لنفسه أن يستفيد من طلابه شيئاً، فما كان يأخذ منهم هدية، فإذا أهداه أحدهم هدية لأوّل مرة قبلها منه؛ جبراً لخاطره، وئيبه على ألاّ يكرّر إهداءه، ثم يغتم الشيخ فرصةً مواتيةً ليهدّي تلميذه مقابل هديته، بل كان أحياناً يقبل الهدية من

تلميذه، ثم يعيد إهداءها له في نفس المجلس، إلا أنه كان يقبل هدية ماء زمزم. وكان الشيخ إذا طلب من أحد طلابه شيئاً ذا قيمة مادية فإنه يعطيه قيمة ما طلب منه مقدماً، فإن لم يكن عنده حينها فإنه كان يعطيهم قيمته في أقرب فرصة، وقد طلب من أحد طلابه أن يصور أوراقاً، تحتوي على فوائد علمية أو أدعية شرعية، وما كانت تكلف سوى بضع ريالات، ورغم ذلك فقد دفعها الشيخ لتلميذه، وكان ميسور الحال؛ تورعاً أن يستفيد من طلابه ما يؤهم أنه مُقابل تعليمهم.

وذكر تلميذه الشيخ وائل بن عبد الله الجعفري أنه لما سافر للدراسة في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن في مدينة الظهران، طلب الشيخ منه أن يشتري له مختصر صحيح البخاري، المسمى: «بهجة النفوس وتحليلها بمعرفة مالها وما عليها» لابن أبي جمرة، واشترط عليه أن يأخذها بالثمن، وفرح تلميذه بهذا الطلب، وبادر إليه، واشترى الكتاب للشيخ، وحاول بكل أدب أن يقدمه هدية له، ولكن الشيخ أبى بكل لطف، وقال لتلميذه كلمة تُنبئ عن عظيم تواضعه ولين جانبه لطلابيه: «أرجو إن طلب خادمكم أحمد منكم طلباً أن تُجيبوه إليه، وألا تردوه».

و ذات مساءً من رمضان كان الشيخ في الحرم المكي مع أحد طلابه، فاحتاج الشيخ أن يترك المكان بين العشاءين لحاجة، وبعد انصرافه اضطر تلميذه أن ينصرف أيضاً لحاجة، فلما رجعا كان المكان قد سبق إليه أناس آخرون، فاستطاع تلميذه أن يجد مكاناً لشخص واحد، واثّر به الشيخ، فامتنع ورأى أن تلميذه أحق به، وذهب يبحث له عن مكان آخر.

وربما كان الذي دَفَعَ الشيخَ إلى هذا الورعِ البالغِ مع طلابه نفسَ السببِ الذي دفعَ الإمامَ النوويَّ رحمه الله (٦٣١-٦٧٦ هـ) إلى الامتناعِ عن أخذِ الأجرةِ على التعليمِ، ألا وهو حديثُ القَوْسِ، فقد وَرَدَ أَنَّ أَبِي بن كعب رضي الله عنه قال: عَلَّمْتُ رَجُلًا الْقُرْآنَ، فَأَهْدَى إِلَيَّ قَوْسًا، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنْ أَخَذْتَهَا أَخَذْتَ قَوْسًا مِنْ نَارٍ»، فَرَدَدْتُهَا، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ، وَقَدْ كَانَ الشَّيْخُ مُحِبًّا لِلْإِمَامِ النُّوَوِيِّ رحمه الله غايةَ المحبة، وَيُنْشِدُ مِنْ حِينِ لآخرِ قَوْلِ الإِمَامِ تَقِيِّ الدِّينِ السُّبْكِيِّ رحمه الله (٦٨٣-٧٥٦ هـ) عِنْدَمَا تَوَلَّى عَامَ ٧٤٢ هـ التَّدْرِيسَ فِي دَارِ الْحَدِيثِ الْأَشْرَفِيَّةِ الَّتِي كَانَ يُدْرِّسُ فِيهَا الإِمَامَ النُّوَوِيَّ:

وَفِي دَارِ الْحَدِيثِ لَطِيفٌ مَعْنَى عَلَى بُسْطِ لَهَا أَصْبُو وَأَوِي
عَسَى أَنِّي أَمْسُ بِحُرٍّ وَجْهِي مَكَانًا مَسَّهُ قَدَمُ النَّوَاوِي

وَمِنْ وَرَعِ الشَّيْخِ فِي التَّعَامُلِ الْمَالِيِّ أَنَّهُ مَا كَانَ يُدْخِلُ ذِمَّتَهُ الْمَالِيَةَ رِيالًا وَاحِدًا إِلَّا بِحَلَالٍ مُتَيَقِّنٌ، فَقَدْ كَانَ يَتَوَلَّى نِظَارَةَ أَوْقَافٍ مُشْتَرَكَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَنِي عُمُومَتِهِ، فَكَانَ يُوزَّعُ رِيعُهَا بِأَجْزَاءِ الرِّيَالِ، وَقَدْ انْفَرَدَ مَدَّةً مِنَ الزَّمَنِ بِاسْتِحْقَاقِ رِيعِ الْأَوْقَافِ؛ لِعُلُوِّ دَرَجَتِهِ عَلَى أَبْنَاءِ عُمُومَتِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَشْرَكَهُمْ مَعَهُ فِي رِيعِهَا، وَكَانَ يَقُولُ لِمَنْ يُوزَّعُ أُجْرَتُهَا: «اجْعَلْنِي كَالْأَمْوَاتِ»، أَمَّا مَنْتَجَاتُهَا فَلَمْ يَكُنْ يَأْكُلُ مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْ نَصِيبِهِ.

وَمِنْ الْأَمْثَلَةِ أَيْضًا أَنَّ الشَّيْخَ كَانَ يَتَوَلَّى رِعَايَةَ ابْنِ أَخِيهِ؛ لِيُتِمَّهُ، فَاحْتِاجَ بَيْتِهِ لِتَرْمِيمٍ، فَتَوَرَّعَ عَنِ رَمِيِّ مَخْلَقَاتِ الْبَيْتِ؛ لِأَنَّهَا مُلْكُ يَتِيمٍ، وَمِنْ الْمَقْرَّرِ شَرْعًا أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى وَلِيِّ الْيَتِيمِ أَنْ يُعَامِلَهُ بِالصَّلَاحَةِ وَالْغِبْطَةِ، فَقَامَ بِبَيْعِ مَا يُمَكِّنُ بَيْعَهُ مِنْ تِلْكَ الْأَنْقَاضِ، وَأَضَافَ قِيمَتَهَا إِلَى مَالِ ابْنِ أَخِيهِ.

ومنها أن الشيخ زوّج إحدى بناته، فاحتاج أن يشتري من مهرها بعضُ مُستلزماتٍ وليمةِ الزواج، فلم يلبث إلا وتوفّر لديه بعضُ المال، فأعطى ابنته قيمة ما اشتراه من مهرها، ومنها أن إحدى بناته كانت تُعطيها راتبها هديةً له؛ لكي يستعين به في بناء المنزل، وبعد عدة سنواتٍ أودع لها في حسابها مبلغاً لم يخطر لها على بال.

ومنها أن الشيخ - أثناء إمامته لجامع موسى بن نصير - تفوّته بعضُ الصلوات؛ لأعذارٍ لا ينفك عنها إنسانٌ، وكان عمره في الثمانين، فكان يُعطي من صلّى إماماً بدلاً عنه مالاً مُقابل إمامته.

ومن الأمثلة على الورع الماليّ الذي تربّع الشيخ على قمته أنه بعد تقاعده لم يكن يترك راتبه التقاعديّ في البنك يوماً واحداً، بل كان يُبادر بسحبه فور نزوله في حسابه؛ تورّعاً أن يطول تداؤله في البنك، بل كان الشيخ يكره دخول البنك لسحبه، فاتّفق مع أحد الموظفين أن يسلمه لأحد طلابه أثناء انتظار الشيخ له في سيارته.

وبالجملة فقد بلغ الشيخ في الورع مبلغاً دقيقاً، فلم يكن يأخذ من الصدقات العامة كمناديل المساجد، ولم يكن يأكل من تمر الصدقة الذي يُوزع في الحرمين، وأعطاه أحد طلابه مصاحف، فوجد مكتوباً عليها أنها وقفٌ لله، فأمره أن يعيدها، ولم يكن يدخل عليه وقت صلاةٍ في أماكن يصعب تحديد القبلة فيها، بل كان يضبط أوقاته بحيث يدخل وقت الصلاة وهو في المسجد أو في مكانٍ سهلٍ تحديد القبلة فيه، ولم يكن يرضى أن تكشف عليه الممرضات إلا بحائل، وكان يحرق الأوراق التالفة المحترمة، وذات يوم سرق أو ضاع حذاؤه في

الحرم المكي، فتورّع أن يأخذ من الأحذية المهملة، بل أخذها من بعض طلابه. ومن المؤكّد أنّ ورع الشيخ لم يكن حالةً طارئةً في مرحلة متأخرة من حياته، بل كان صفةً راسخةً له منذ بواكيرها، ومن الأدلة على ذلك أنّ الملك سعود رحمه الله زار الأحساء، وكان من عاداته أن يُوزّع نقوداً على الأطفال، فخرج ابنه عبد الله؛ راغباً فيما يرغب فيه أقرانه، فلم يستطع أن ينال شيئاً من المال؛ لصغر سنّه، وفي رجوعه عثر على عشرة ريالاتٍ ملقاةً على الأرض، فأخذها، فلما رآها الشيخ سأله عن مصدرها، فأخبره، فأمره الشيخ أن يعيدها مكانها؛ لاحتمال أن تكون سقطت من أحد الناس.

٣. التواضع:

التواضع وهضم النفس ونكران الذات، فقد كان الشيخ يخدم نفسه بنفسه، يغسل ملابسه، ولا يُثقل على أهله بغسلها؛ تطبيقاً لمذهب الشافعية في خروج ذلك عن حقوق الزوج، وإذا أراد خياطة ثوبه استعان بابتته في إدخال الإبرة في الخيط، ثم يتولّى خياطته بنفسه، ولم يترك ذلك إلا بعد مرضه وعجزه.

وكان الشيخ يصنع الشاي والقهوة لضيوفه، ولا يكلف أهله عناء ذلك، ويساعد في تنظيف البيت قدر استطاعته، وقد حدث ذات مرة أنّ الشيخ سقط على الأرض، وانكسرت ذراعُه، ووُضعت الجبيرة على يده، وتزامن هذا مع سفر عاملتهم المنزلية، فلم يمنع ذلك من المساعدة في تنظيف البيت والتقاط ما يسقط على الأرض؛ تعبيراً منه عن إحساسه بأهله، وشعوره بتعبهم، ورغبته في مساعدتهم.

أمّا تعامله مع طلابه، فقد كان الشيخ حريصاً على التواضع لطلابيه، وتأسيس

علاقته معهم على البساطة والعفوية، فقد كان يذهب إلى المسجد ماشياً، ويرجع ماشياً، إلا إذا تكفل بعض طلابه بتوصيله، فيقبل منهم ذلك ولا يأمرهم، ولا يشعرهم أن له حقاً عليهم، وكثيراً ما يكون في دروسه مع طلابه في المسجد، فيعطيهم في آخر الدرس بعض المسائل الفرضية والأبيات الشعرية؛ ليقيموا بحلها وإعرابها، فإذا انهمكوا في التفكير والمناقشة، تشاغل عنهم، وانصرف إلى بيته ماشياً؛ لئلا يشق عليهم بتوصيله.

وكان الشيخ إذا ركب سيارة أحد طلابه، ورأى فيها أوراقاً متساقطة أو مناديل متسخة أو قوارير فارغة، بادر بنفسه بالتقاطها، ويطلب من تلميذه - برفق وابتسامة - أن يكون أكثر اهتماماً بنظافتها، وإذا رأى أوراقاً فيها كتابة باللغة العربية نبه إلى أهمية الاهتمام بالحرف العربي والتحذير من إهماله.

وإذا ذهب الشيخ مع أحد طلابه لقضاء حاجة، فإنه كان يقضيها بنفسه، ولا يكلف تلميذه مشقة ذلك، فكان ينزل بنفسه إلى البقالات ومحلات بيع الخضار والفواكه وما أشبهها، فيشتريها ويحملها، فإذا عاد إلى البيت يؤكّد على تلميذه ألا يحملها، بل كان يأتي بعربة، ويضع الأغراض عليها، ويدخلها بيته بنفسه، فإذا رغب تلميذه أن يحملها عنه، قال له - مبتسماً -: «أشتريها بمالي، وتحمّلها أنت؟!»

وكان الشيخ إذا ذهب مع بعض طلابه لأداء زيارة، أو لتلبية دعوة، ولم يجدوا مكاناً مناسباً لإيقاف السيارة قريباً من منزل صاحب الدعوة، فقد كان الشيخ ينزل أولاً، ثم يوقف طلابه السيارة بعيداً، ولكنه لم يكن يدخل المنزل قبلهم، بل كان ينتظرهم قائماً، ويصحبهم في دخوله.

و ذات مرّة خرج الشيخُ مع بعضِ طلابه في رحلةٍ، وبعَدَ غَدَائِهِمْ تَأَخَّرُوا في تنظيفِ أواني الطَّعامِ، وَغَفَلُوا عن الشيخِ ساعةً، فإذا بهم يَرَوْنَ كَلَّ الأواني نظيفةً، فَتَسَاءَلُوا فيما بينهم عن المُتَطَوِّعِ الذي كفاهم مَوْوَنَةً غَسَلَهَا، مُسْتَبْعِدِينَ أن يكونَ شيخَهُمْ، فإذا به هو الذي قام بِغَسَلِهَا وتهيئتها لهم.

ولم يكن الشيخُ في دروسه متميزاً على طلابه، بل كان يجلسُ على الأرضِ كما يجلسون، وقد بقيَ على ذلك سنينَ طويلةً رغم كِبَرِ سِنِّه وطولِ دروسه، فلما لاحظَ عليه ابنه الشيخُ عبدالعزیز تعباً ومشقةً - وقد قاربَ التسعين من عُمرِه - أحضَرَ له فراشاً صغيراً؛ ليجلسَ عليه، فرفضَ الشيخُ ذلك أوَّلَ الأمرِ، ولكنَّ شدةَ التعبِ والمشقةِ اضطرته لقبول ذلك، ثم اضطرَّ بعد ذلك للجلوسِ على الكرسي؛ نتيجةً لمعاناته لآلامِ الرُّكْبِ التي اشتدَّت عليه مع تقدُّمِ عمرِه.

وكان الشيخُ قريباً من طلابه، وثيقَ الصلةِ بهم، يتلمَّس مشاكلهم، ويُوَجِّههم إلى حلِّها، بالقولِ تارةً وبالفعلِ تارةً أخرى، فمرّةً سألَ أحدَ طلابه عن نومِه بالليل، فلما عَلِمَ أنَّ الأرقَ يلازمُه وصفَ له بعضَ الأمورِ التي من شأنها أن تُبعدَ عنه الهمومَ التي تُؤثِّرُ على نومِه، فطبَّقَ التلميذُ وُصْفَةَ شيخِه، ففرَّجَ اللهُ عنه ما به، يقول تلميذه: «وأنا أستفيدُ منها إلى الآن».

ومن مظاهرِ عنايةِ الشيخِ بطلابِه أنه كان يُلاحظُ حضورهم وغيابهم عن دروسه، يقول أحدُ طلابه الذين اختصُّوا بصحبته إلى دروسه: «خرجت من الدرسِ مع الشيخِ مرّةً، فقال لي: أين فلان؟ له كذا وكذا يوماً لم يحضر»، يقول تلميذه: «فتعجبتُ من حرصِ الشيخِ ودقَّةِ ملاحظته، فقد تمكن من إحصاءِ غيابِ تلميذه رغم كثرةِ طلابه».

وكان الشيخُ يسافرُ مع طلابه أحياناً، وخصوصاً إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، فإذا تَوَقَّفُوا في الطريق؛ لشراء بعض حاجاتهم، نزل الشيخ معهم، وشاركهم في شأنهم، فإذا وصلوا وأخذوا يبحثون عن سكنٍ مناسبٍ، نزل معهم، فإذا شرعوا في حملِ حقائبهم حملَ حقيبته بنفسه رَغْمَ أنهم يَكْفُونَهُ المؤونة، ويسعدون بصحبته، ويتشرفون بخدمته، ولكنه كان يقصدُ إظهارَ تقديره لجهدهم، ورغبته في مشاركتهم، واجتنابه التَّمييزَ عنهم أو التَّرَفُّعَ عليهم.

ومن المواقف التي ذكَّرها أحدُ طلابِ الشيخِ أنه التقى به في الحرمِ المدنيِّ بعد صلاةِ الفجرِ يومَ سبتٍ من عامِ ١٤٠٢ هـ، وكان برفقته زميله الشيخ محمد ابنُ عبد الرحمن الخطيب رحمه الله، وكان كفيفَ البصر، فلما صلوا سنة الضُّحَى طلبَ الشيخُ من تلميذه أن يأخذَ بيدَ الشيخِ الخطيب، ثم سَبَقَهُمَا إلى خارجِ الحرم، وحجزَ سيارةَ أجرة، وانتظَرَهُمَا حتى وصلا بابَ الحرم، فركبوا جميعاً، وقصدوا مسجدَ قُبَاءَ للصلاة، وزاروا بعضَ مساجدِ المدينة المنورة وآثارها المباركة.

وذات مرة سافر الشيخُ إلى مكة المكرمة برفقة أسرته، وبعد صلاةِ العَصْرِ خرجَ الشيخُ من الحرمِ المكيِّ مع تلميذه - وسبطه في الوقتِ نفسه - الشيخُ باسم بن أحمد النعيم، وكان عمره إذ ذاك خمسَ عشرة سنة، فلم يجدا نَعْلِيَّ الشيخ، فطلبَ التلميذُ من شيخه أن يلبسَ نَعْلَيْهِ، فلم يرضَ الشيخُ بذلك رَغْمَ تَكَرُّرِ المحاولات، فاستحيا التلميذُ أن يلبسَ نَعْلَيْهِ في الوقتِ الذي يمشي شيخه - وجدُّه - حافياً، فحملَ نَعْلَيْهِ في يده، فقال له الشيخُ: «إمَّا أَنْ تلبسَ نَعْلَيْكَ أو أمشي وحدي»، فلبسَ التلميذُ نَعْلَيْهِ.

واجتمع الشيخُ يوماً ببعضِ أصحابه، وكان منهم الشيخُ عبد العزيز بن محمد

العبيد الله رحمه الله، وكان كيف البصر، فلما انفص مجلسهم تقدّم الشيخ، وقرب نعلي صاحبه بنفسه، فلما علم صاحبه قال: «لا يا شيخ، هذا لا يجوز»، ومريض الشيخ عبد العزيز مرة، فزاره الشيخ مع أحد طلابه، فلما اقترب منه أكب على رأسه يقبله وهو لا يعلم.

وكان الشيخ يمازح طلابه، ولم يكن يرى في فارق السن سبباً يمنعه من إدخال السرور عليهم وموانستهم ومباستهم، ولم يكن يرى في مزاحه خطأ من قدره ومنزلته عندهم، فقد رزق لطفاً ممزوجاً بهيبة، ومُنِحَ ظرفاً ممزوجاً بخشية.

ومن أمثلة ذلك أن الشيخ طلب من تلميذه الشيخ د. محمد بن عبد الله الدوغان إعراب قوله تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ [الطلاق: ٩]، فأعرب تلميذه الواو حرف عطف، وجعل «بأل» فعلاً ماضياً، فكان الشيخ يمزح مع تلميذه، ويذكره بهذا الإعراب الطريف من حين لآخر.

ومنها أن الشيخ صَلَّى مع بعض طلابه في مسجد قباء بالمدينة المنورة، فلما انصرفوا رأوا نخلة عند المسجد، فاستأذنه تلميذه الشيخ د. محمد بن عبد الله الدوغان أن يرتقيها؛ ليجلب من رطبها، فلما ارتقى أعلاها سقط، فسارع الشيخ إلى تلميذه، واطمأن عليه، ثم مكث سنة كاملة يمازحه بها.

ومنها أن الشيخ لَمَّا حَجَّ عام ١٣٩٩ هـ مع بعض طلابه، لم يبق مُتَسِّعٌ في الحافلة لأي شخص، فأصر تلميذه السيد علي بن عبد الرحمن الخليفة على الحج معهم ولو اضطرر إلى الوقوف في الممر والجلوس على أرضه، ثم تيسر الأمر، وتمكّن تلميذه من الحج، فقال للشيخ من شدة فرجه: «سأطلب من أمي أن تدعو عليك»، أخطأ من شدة فرجه، فقد أراد أن يقول: «تدعو لك»،

فضحك الشيخ، وأخذ يذكّر تلميذه بها من حينٍ لآخر، ويقول له: «لا تنس أن تطلب من أمك أن تدعو عليّ».

ومنها أن الشيخ سافر إلى مكة المكرمة في رمضان من إحدى السنوات، فصلى صلاة الظهر في مسجد قريب من سكنه، فالتقى بتلميذه الشيخ عبد اللطيف ابن عبد العزيز العصفور، فسأله الشيخ عن حاله وأصحابه ومكان سكنهم، ثم طلب من تلميذه أن يأخذه إلى سكنهم، فحاول تلميذه الاعتذار إليه، وكان قصده من ذلك أن أصحابه نائمون، ولكن الشيخ أصر عليه، فلم يجد تلميذه وسيلة لصرف الشيخ عن مراده، فلما وصلا إلى حيث يسكن تلميذه وأصحابه، دخل عليهم الشيخ، فوجدهم نائمين، فأخذ يوقظهم مبتسماً، ويقول: «الهيئة الهيئة»، كأنه يتقمص دور هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في التذكير بالصلاة.

ومنها أن الشيخ - وكان قصير القامة - عرض بثته عليّ، وأنا أطول منه قامه، وأقف عند كعبه مقاماً، ثم مازحني قائلاً: «ما رأيك أن أعطيك بثتي، وتقصص من طوله؛ ليلائمك؟!»

ومنها أن الشيخ دعا تلميذه الشيخ د. ناصر اللوغانى من الكويت على الغداء، ثم طلب منه أن يقرأ عليه مقامة من مقامات الحريري، وعين له المقامة الواسطية؛ لغرض في نفسه، وخلاصتها أن أبا زيد السروجي صنع حلوى، ووضع فيه بنجاً، وأطعمها أهل واسط، فلما ناموا قصد إلى بيوتهم، واستخرج ما فيها مما خف حملُه وغلائمُه، وبعد أن انتهت تلميذه من قراءة المقامة قال له الشيخ - مفصلاً عن سبب اختياره لهذه المقامة بالذات -: «لقد وضعنا لك في الطعام ما وضعه أبو زيد».

وَمِنْ تَوَاضَعِ الشَّيْخِ أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَاءَهُ الضُّيُوفُ، وَاسْتَقَرَّ الْمَجْلِسُ بِهِمْ، وَرَأَى فُتُوراً فِي تَقْدِيمِ الْخِدْمَةِ لَهُمْ، سَارَعَ بِنَفْسِهِ لِيُقَدِّمَ لَهُمْ ضِيَاغَتَهُمْ مِنْ شَايٍ وَقَهْوَةٍ، فَيَتَبَّهُ أَهْلَ الْبَيْتِ أَوْ الطَّلَابُ لِذَلِكَ، فَيَكْفُونَهُ الْمُؤُونَةَ، وَيَقُومُونَ بِوَجِبِ الضِّيَافَةِ.

وَرَعِمَ أَنَّ الشَّيْخَ مَلَأَ طُلَابَهُ عِلْماً وَتَرْبِيَةً، فَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُمْ: «أَنَا لَكُمْ كَالْمَيْتَةِ لِلْمُضْطَّرِّ»، وَكَانَ يَقُولُ لَهُمْ: «أَنْتُمْ أَفْضَلُ مِنِّي»، وَكَانَ يَقُولُ: «مِنْ الْعَجَبِ أَنْ أَعْلَمَ، وَيَكُونُ لِي طَلَابٌ»، وَكَانَ يُرَدِّدُ قَوْلَ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَصْحَابِهِ وَطُلَابِهِ:

أَهَيْنُ لَهُمْ نَفْسِي فَهَمْ يُكْرِمُونَهَا وَلَنْ تُكْرِمَ النَّفْسُ الَّتِي لَا تُهَيِّئُهَا

وَيُرَدِّدُ آيَاتَ الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ الْقَادِرِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

لِفَقْدِ الرَّجَالِ تَرَانَا رِجَالًا وَصَرَفُ الزَّمَانِ يُرِيكَ الْمُحَالَا
هُمْ أَوْرَثُونَا مَقَامَاتِهِمْ وَمَا أَوْرَثُونَا النُّهْيَ وَالْكَمَالَا

وَكَانَ الشَّيْخُ حَرِيصاً عَلَى أَنْ يَقْتَلَعَ جُدُورَ تَعْظِيمِهِ مِنْ قُلُوبِ طُلَابِهِ؛ تَوَاضِعاً مِنْهُ وَمُجَاهِدَةً لِنَفْسِهِ، فَقَدْ رَأَى أَحَدُ طُلَابِهِ فِي مَنْامِهِ فِي رُؤْيَا حَسَنَةٍ، فَأَخْبَرَ بِهَا الشَّيْخَ، فَقَالَ لَهُ: «أَنْتُمْ تَظُنُّونِي شَيْئاً، وَلَسْتُ بِشَيْءٍ»، - وَكَثِيراً مَا كَانَ بَعْضُ طُلَابِ الشَّيْخِ يَرَوْنَهُ فِي مَنْامَاتِهِمْ فِي رُؤْيَى حَسَنَةٍ، كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ النَّبِيَّ ﷺ، وَيَرَوْنَ الشَّيْخَ جَالِساً قَرِيباً مِنْهُ -، وَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي سُئِلْتُ أَثْنَاءَ دِرَاسَتِي الْعِلْمِيَّةِ فِي أَمْرِيكَ أَسْئَلَةً كَذَا وَكَذَا، وَأَنْنِي أَجَبْتُ عَنْهَا بِأَجُوبَةٍ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ الشَّيْخُ لِي: «إِجَابَاتٌ مُسَدَّدَةٌ، وَلَوْ سُئِلْتُ عَنْهَا لَمَّا عَرَفْتُ إِجَابَتَهَا»، وَقَدْ كُنْتُ أَحْكِي لِلشَّيْخِ عَنْ نَشَاطِي الْعِلْمِيَّةِ فِي أَمْرِيكَ فِي كُلِّ إِجَازَةٍ أَرْجِعُ فِيهَا إِلَى الْوَطَنِ.

وذكر أحد طلابه أنه صحب الشيخ في زيارة لأحد أصحابه في بستانه، وهو الشيخ أحمد بن عبد الله الخطيب إمام وخطيب جامع الجبري، وكان الشيخ الخطيب قد حفر عيناً، فخرج ماؤها مالحاً، فطلب من الشيخ أن يشرب شربة ماء، وأن يمججها في الكأس، فسأله الشيخ عن السبب، فأخبره أن ماء العين قد خرج مالحاً، وأنه يريد أن يسكب الماء المختلط بريق الشيخ فيها؛ لعل ماءها يحلو، فتغير وجه الشيخ، وقال بانزعاج وضيق: «لست أهلاً»، وكررها مراراً، فأشفق صاحبه عليه، وطلب من تلميذه أن يسكب الماء؛ تطيباً لخاطر الشيخ، ورفقاً به.

ورغم علو مقام الشيخ إلا أنه كان وصولاً لأرحامه وأصحابه وجيرانه، وكان يكبرهم سنّاً، ويفوقهم قدراً، ولم يكن قصده بتلك الزيارات قضاء وقت أو اكتساب متعة، فقد كان الشيخ كثير الأعباء العلمية والتربوية، وكان يجد متعته في القراءة والعبادة، وإنما كان قصده صلة الأرحام، وأداء الحقوق، وتوثيق الصلات.

٤ . الحلم:

الحلم وقبول العذر والإعراض عن أخطاء المتعلمين وسفاهات المتعلمين، فقد جلس بين يدي الشيخ مئات من المتعلمين، وكان يكبرهم بسنتين وسبعين سنة، وكان بعضهم يخطئ في تعامله مع الشيخ بقوله أو فعله، يغفل عن الشيخ أثناء شرحه تارة، ويتكلم مع زميله بجواره تارة أخرى، فيتفهم الشيخ مرحلتهم العمرية، ويتعافل عنهم؛ حلماً عليهم، وترويحاً لأنفسهم.

وكان الشيخ في ذهابه وإيابه مع طلابه يتعرض منهم - لصغر سنهم وطبيعته

عُمْرِهِمْ - لِمَوَاقِفَ دَلَّتْ عَلَى حِلْمِهِ الْعَظِيمِ، فَقَدْ ذَكَرَ أَحَدُ طُلَابِهِ أَنَّهُ أَغْلَقَ نَافِذَةَ السَّيَّارَةِ عَلَى إِصْبَعِ الشَّيْخِ مِرَاراً، فَكَانَ يُنَبِّهُهُ مُتَأَلِّماً، وَيَبْتَسِمُ دُونَ مُعَاتَبَةٍ، وَأَحْيَاناً كَانَ يَنْزِلُ مِنْ سَيَّارَةِ تَلْمِيذِهِ، فَيَسْتَعَجِلُ وَيُغْلِقُ الْبَابَ عَلَى إِصْبَعِ الشَّيْخِ، فَلَا يَتَدَارَكُ خَطَأَهُ إِلَّا وَالْأَلَمُ قَدْ بَلَغَ مِنَ الشَّيْخِ مَبْلَغَهُ، فَلَا يَقُولُ إِلَّا خَيْراً، بَلْ ذَكَرَ أَحَدُ طُلَابِهِ أَنَّهُ صَحَبَ الشَّيْخَ لِشَرَاءِ بَعْضِ الْحَاجِيَّاتِ، وَبَعْدَ أَنْزَالِهَا مِنْ صَنْدُوقِ السَّيَّارَةِ الْخَلْفِيِّ سَارَعَ بِإِغْلَاقِ بَابِ الصَنْدُوقِ عَلَى أَصَابِعِ الشَّيْخِ، فَتَأَلَّمَ أَلماً شَدِيداً.

وَفِي إِحْدَى الْمَرَاتِ كَانَ الشَّيْخُ جَالِساً فِي الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، فَرَأَاهُ رَجُلٌ مُحَبَّبٌ لَهُ، فَتَوَجَّهَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ؛ لِيُسَلِّمَ عَلَيْهِ وَيُقَبِّلَ رَأْسَهُ، فَجَلَسَ الرَّجُلُ بِرُكْبَتِهِ عَلَى إِبْهَامِ رِجْلِ الشَّيْخِ، وَقَبَّلَ رَأْسَهُ، وَالشَّيْخُ مُتَأَلِّمٌ وَصَابِرٌ، وَانْتَهَى الْأَمْرُ بِخُرُوجِ الدَّمِ مِنْ إِصْبَعِهِ.

بَلْ إِنَّ الشَّيْخَ كَانَ يَتَعَرَّضُ لِلْأَذَى وَالْإِسَاءَةِ، أَحْيَاناً مِمَّنْ يَعْرِفُهُ، وَأَحْيَاناً مِمَّنْ لَا يَعْرِفُهُ، فَيَتَرَفَّعُ عَنْ مَقَابِلَةِ الْإِسَاءَةِ بِمِثْلِهَا، وَيَتَسَامَى عَلَى سَفَاهَاتِ الْآخَرِينَ، مَهْمَا آذَوْهُ أَوْ أَرْعَجُوهُ، وَلَا يَسْمَحُ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَدْرِجَهُ فِي مَعَارِكِ فِكْرِيَّةٍ جَانِبِيَّةٍ، تُضَيِّعُ عَلَيْهِ وَقْتَهُ وَجُهْدَهُ وَطَاقَتَهُ، وَتَصْرِفُهُ عَنْ هَدَفِهِ وَرِسَالَتِهِ، وَهَذِهِ - مَعَ دَلَالَتِهَا عَلَى حِلْمِ الشَّيْخِ - دَلَالَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى إِخْلَاصِهِ فِي مَشْرُوعِهِ الْعِلْمِيِّ، إِذْ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَنْشِطَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالِدَعْوِيَّةِ تَبَدُّوا خَالِصَةً لَوْجِهِ لِلَّهِ، ثُمَّ مَا تَلَبُّوا - تَحْتَ مِطْرَقَةِ الْمَوَاجِهَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْخِلَافَاتِ الْعِلْمِيَّةِ - أَنْ تَنْحَرِفَ عَنْ مَسَارِهَا، وَتَنْتَصِبَ النَّفْسُ مُطَالِبَةً بِحَقُوقِهَا وَحِظُوظِهَا.

وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ صَلَّى صَلَاةَ الْعِشَاءِ ذَاتَ لَيْلَةٍ إِمَاماً فِي جَامِعِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ، فَجَهَرَ بِالْبِسْمَلَةِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيَّةِ، وَكَانَ فِي الْجَامِعِ

داعيةٌ غيرُ فقيه، فضاقتُ عليه جميعُ المواعظِ والنصائحِ، وقامَ أَمَامَ المَصَلِّينَ يُنكِرُ على الشيخِ جَهْرَهُ بالبسملةِ، فالتزمَ الشيخُ صَمْتَ العُلَمَاءِ، وعلاهَ وَقَارُ الحُكَمَاءِ، إلى أن انتهتِ ذلكِ الداعيةُ من إنكارِهِ، ثمَّ مَضَى الشيخُ في حالِ سبيلِهِ، آخِذاً بالعَفْوِ، وآمِراً بالعُرْفِ، ومُعْرِضاً عن الجاهلينِ.

وذاَتَ مرَةٍ كانَ الشيخُ في الحِرمِ، وبيدِهِ السُّبْحَةُ، يذُكِّرُ اللهُ تَعَالَى بها، فأَتاهَ شابٌّ صَغِيرٌ، وقالَ لَهُ: «السُّبْحَةُ بَدْعَةٌ»، فما كانَ مِنَ الشيخِ إِلاَّ أَنْ قامَ بِإِدخالِ السُّبْحَةِ في جيبِهِ، مِنْ غيرِ نِقاشٍ أو جِدالٍ، مُقبِلاً على إتمامِ مشرُوعِهِ العِلْمِيِّ وبنائِهِ التَّربُويِّ، ومُؤكِّداً أَنَّ التَّسامحَ مع الآخِرِينَ لا يَعبُني التَّنَازُلُ عَنِ المَبادِئِ.

وما زالَ الشيخُ - بعدَ وفاتِهِ - يَتعرَّضُ في منهُجِهِ وطلابِهِ لِسَفاهاتِ الجاهلينِ وحماقاتِ المَغرورينِ، فيتلقَّاهَا طلابُهُ بالحلمِ والإِعراضِ، مَقْتَدِينِ بسيرةِ شيخِهِم المَستمدَّةِ مِنْ قولِ اللهِ تبارَكَ وتعالى لِنبيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خُذِ العَفْوَ وأمرَ بالعُرْفِ وأَعرضَ عَنِ الجاهلينِ"، ومَعتَقِدِينَ أَنَّ تَطاولَ الأَقْزامِ على شيخِهِم ومنهُجِهِم يَنشُرُ عَرَفَهُ وَيُرفَعُ ذِكرَهُ، كما قالَ الشاعِرُ:

وَإِذا أَرادَ اللهُ نَشَرَ فَضيلَةٍ طُويَتِ أَتاحَ لَها لسانَ حَسودٍ
لولا اِشْتعالَ النارِ فيما جاورَتْ ما كانَ يُعَرَفُ طيبُ عَرَفِ العودِ
وقالَ الشاعِرُ:

يخاطبني السَّفِيهُ بِكلِّ قَبحٍ فأكرُهُ أَنْ أَكونَ لَهُ مُجيباً
يَزيدُ سَفاهَةً فأزيدُ حِلْماً كَعُودِ زادِهِ الإِحراقِ طيباً

٥. الصبر:

الصَبْرُ والتَّائِي في مَسيرةِ التَّربِيَةِ والتَّعْلِيمِ؛ لِأَنَّها طَوِيلَةٌ المَدَى، كَثِيرَةٌ

المشاكل، محفوفة بالمصاعب، ولا يمكن أن تُؤتي أكلها في يوم وليلة، وقد كان الشيخ طويل النفس في تعليمه وتربيته، مُتأنياً في صناعة طلابه، متدرجاً معهم في رحلة البناء والتكوين، مُتَنَقِّلاً بهم من كُتَيْبٍ إلى كتابٍ إلى موسوعةٍ، مُتَحَقِّقاً بوصف العالم الربّاني، الذي يُرَبِّي بصغار العلم قبل كبارِه.

لقد بدأ الشيخ بناء مدرسته وهو في سن الخامسة والستين، وقد كان يُدرِكُ خطورة المرحلة العُمرية، وأنَّ الموت قد يأتيه بين عَشِيَّةٍ وضحاهَا، ورُبَّما كانت نفسه تدعوه إلى العزلة عن الناس، والإقبال على الله، وتدارك ما تَبَقِيَ من سُويَعَاتِ العُمر.

ولكنَّ الشيخ كان يَعْلَمُ أنَّ القيامَ بالعلم طاعةٌ من أفضل الطاعات، وقد كان يُرَدِّدُ دائماً كلمة الإمام الشافعي رحمه الله: «طَلَبُ العِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ النَّافِلَةِ»، وكان يُلبِّي رغبة طلاب العلم إذا قصدوه للتعلم بعد صلاة الفجر أو بعد صلاة العصر، ويؤخر أذكار الصباح والمساء - رغم حرصه الشديد عليها - إلى ما بعد الدرس؛ لتعدي نفع العلم إلى الآخرين.

وفي الوقت نفسه كان الشيخ يَعْلَمُ أنَّ العِلْمَ بناءٌ شامخٌ، يحتاجُ أساساتٍ، تُقَامُ عليها أعمدةٌ، وتربطُ بينها لَبَنَاتٌ، فإن اختلَّت طريقة البناء جاء المُنْتَجُ مائلاً، ولم يكن للشيخ أن يَسْمَحَ بإنتاج مخرجاتٍ مائلة، تكونُ عبئاً على الساحة العلمية والميدان الفكري، إذ إنَّ نَصْفَ العَالِمِ يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُفْسِدُ الجَاهِلُ.

لقد سَلَكَ الشيخ في بناء طلابه مَسَلَكاً متوازناً متكاملاً، فلم يكن يسعى لِقَطْفِ الثمرة سريعاً، بل كان يَبْنِيهِمْ بناءً مُتَأَنِّياً مُتَدَرِّجاً، يُعَلِّمُهُمْ مسائل العلم في دروسهم، ويخرُجُ معهم في بعض مُتَنَزَّهَاتِهِمْ، ويسافرُ معهم في بعض سَفَرِهِمْ،

ويزور معهم العلماء والصلحاء، ويدعوهم في بيته ويكرمهم، وكان يتمنى أن يحلّ ضيفاً عليهم في بيوتهم، ولكن صغر سنهم يمنعه من الاسترسال في ذلك، فلا يزورهم إلا بقدر، فربّاهم على عينه، وسقى شجرتهم بعرقه، فنضجت ثمرتهم، واختمرت عجنتهم، واستوت على الجودي سفيتهم.

ولطالما قلل بعض أصحاب الشيخ من جهده وطموحه، ليس لضعفه العلمي أو قصوره المعرفي، بل لصعوبة المهمة، ومشقة الرحلة، وعجز الموارد، وقلة المعين، وتسارع الزمن، وقد صرح له بهذه المعاني مجتمعة أحد أصحابه - وهو القاضي الشيخ محمد بن عبد اللطيف الملا - قائلاً له: «هل ستعيد الحركة العلمية في الأحساء على ما كانت عليه أيام المشايخ والعلماء؟!»

٦ . الرحمة:

الرحمة والرأفة، ومحبة الخير للناس، والشفقة عليهم إذا أصابهم ضرر، ومن اتصف بهاتين الصفتين المتقاربتين في معناهما انتشرت محبته لعموم الناس، وأوصل لهم خيره قدر إمكانه، ولم يصبهم منه أذى، وخفض جناحه لهم، والآن جانبه معهم.

وهكذا كان الشيخ، فقد عاش بين أسرته الصغيرة زوجاً وأباً وموجهاً، واتصفت علاقته معهم بالمودة والرحمة، فقد ذكرت زوجته - بعد وفاته - أنهما لم يختلفا قط مدة حياته، وذكرت أنها مرضت مرة، ودخلت المستشفى، فذهب لزيارتها، فدخل عليها وعيناه تدرقان، وذكرت أيضاً أنه بكى؛ رحمةً بإحدى بناته أثناء ولادتها.

وقد كان الشيخ يتعامل مع أولاده معاملة الاحترام والتقدير، فكان رفيقاً بهم، ملاطفاً لهم، مُلبياً طلباتهم، قابلاً أَعذارهم، مُشفقاً عليهم من كل ما يُعنتهم ويُتعبهم، مُجنباً إياهم كل ما يُسخط ربهم عليهم، وكان يدعو لهم دعاءً لا يخلو من دُعاة، فقد دعا لإحدى بناته قائلاً: «رَحِمَ اللهُ وَالِدِيكَ».

وقد امتدَّت هذه الصفات الجميلة لِتُظَلَّ في وارثي ظلالها أحفاد الشيخ، فقد ذكر ابنه الشيخ عبد العزيز أن الشيخ طلب منه أن يرفُقَ بابنه في تدرسه والمذاكرة له وتحفيظه القرآن الكريم، وأن يتجنب ضربه والقسوة عليه، وذكَّرت إحدى بناته أنه كان يُحدِّرُ أولاده من الدعاء على أولادهم بسبب الغضب.

وذكَّرت إحدى حفيدات الشيخ أنها كانت تلعب بالأقمشة وعمرها عشر سنوات، وتخيِّطُ بالإبرة أقمشة صغيرة سيئة، فأراد جدُّها أن يدخل السرور عليها، فقال لها: «هل تُعطيني هذا الذي تخيِّطينه؟ فتعجبت منه؛ إذ لم يكن أحدٌ يلفتُ لهذه الأقمشة، فلما انتهت من خياطتها أعطته إياها، وقالت له: «هذه هدية مني»، فابتسم لها وشكرها، وعلَّقها في غرفته عدة سنوات، فكانت تدخلُ غرفته من حين لآخر؛ لِتتأكد أنه مازال محتفظاً بها.

أمَّا طلابُ الشيخ فقد نالوا من رحمته نصيباً كبيراً، وقدرًا وفيرًا، فقد كان مُتابعًا لأحوالهم الأسرية والدراسية والعملية، يعودهم إذا مرُّوا في بيوتهم ومستشفياتهم، وينزعج إذا وقع ضربهم، ويعزيهم في وفاة أقاربهم، ويسأل عنهم إذا سافروا حتى يطمئن على سلامتهم، ويوقفُ درسه أيامَ اختباراتهم، ويهنئهم بنجاحهم وتفوقهم، ولم يكن يتأخر عن مشاركتهم في أفراحهم إلا في حضور مناسبات زواجهم؛ للمشقة الشديدة التي تلحقه، ولكنه كان يُبادر إلى تهنئتهم بزواجهم في أول لقاء يجمعه بهم.

وقد بلغ من رحمة الشيخ بطلابه أنه كان يُحصِّنهم من العين، ويقول: «حصَّنتكم بالحيِّ القيوم الذي لا يموت، ودفعتُ عنكم السُّوءَ بألفِ ألفِ لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله»، وكان يطلب منهم أن يُكرروها دائماً.

وكما كان الشيخ يدعُو لمشايعه الذين كانت لهم المِنَّةُ عليه بتعليمه، ويشهدُ بفضلهم عليه، ويصرِّحُ بحبه لهم، فإنه كان يدعُو لطلابه رَغَمَ مِنْتَه عليهم بتعليمهم، ويشهدُ بفضلهم عليه، ويصرِّحُ بحبه لهم، فقد كان يدعو لهم دعاءً عاماً، وكان أكثرُ الأدعية التي يلهجُ بها لسانه لطلابه: «كان الله لكم»، وكان ينسبُ هذا الدعاءَ لشيخه الشيخ محمد بن حسين العرفج رحمه الله.

وكان الشيخ يُخصُّ بعضَ طلابه بالاسم، خصوصاً أبناءَ مشايخه وأصحابه، فقد قال لي - وبحضور تلميذه الشيخ عصام بن عبد العزيز الدوغان -: «إني أدعُوك كلَّ يوم»، وقال لآخر: «إني أُحبُّك في الله»، وقال لي: «أنت والشيخ أحمد - يعني تلميذه الشيخ د. أحمد بن عبد اللطيف البراهيم العرفج - عَيْنَايَ اللَّتَانِ أَبْصُرُ بِهِمَا».

وكان الشيخ يُحصِّنُ أهله وطلابه من العين والحسد، ولا يُخبرُ عن عددهم إذا سُئِلَ عنهم، فقد كان يقولُ دائماً: «حصَّنتُ نفسي وزوجتي وذريتي وجيراني وأحبابي وطلابي بالحيِّ القيوم الذي لا يموتُ أبداً، ودفعتُ عني وعنهم السُّوءَ بألفِ ألفِ لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم».

وعندما تقدَّم الشيخ في العمر، وعجزت ركبته أن تحملاه إلا بكلفة، وبدأ يتكئ على العصا، طلب منه ابنه د. عبد الله أن يذهبَ إلى المسجدِ ركباً، وأنه مُستعدُّ بتوصيله إلى المسجد، فأخبره الشيخ بأنه لا يحتاجُ الركوب، فشعر ابنه

أنَّ الشَّيْخَ لَا يَرِيدُ أَنْ يُكَلِّفَهُ، فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَطْرُقَ الْبَابَ عَلَى سَائِقِهِ الْخَاصِّ، وَخُصُوصاً فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، فَقَالَ الشَّيْخُ الرَّحِيمُ: «يَكُونُ نَائِماً، وَلَا أَرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْهِ».

ثُمَّ الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ أَنْ رَحْمَةَ الشَّيْخِ بِمَنْ حَوْلَهُ شَمِلَتْهُمْ فِي مَنْامِهِ أَيْضاً، فَقَدْ رَأَى فِي مَنْامِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثِ سِنَوَاتٍ تَقْرِيباً، وَبِالتَّحْدِيدِ فِي لَيْلَةِ الْأَحَدِ ٢٣ / ١١ / ١٤٣١ هـ، وَهِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي خَرَجَ فِيهَا مِنَ الْمَسْتَشْفَى، فَسَأَلَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ وَلِذَرِيَّتِهِ، فَقَالَ ﷺ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَلِذَرِيَّتِكَ»، فَسَأَلَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ وَلِزَوْجَتِهِ وَإِخْوَانِهَا وَأَخَوَاتِهَا، فَقَالَ ﷺ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَلِزَوْجِكَ وَإِخْوَانِهَا وَأَخَوَاتِهَا»، فَسَأَلَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ وَلِإِخْوَتِهِ وَأَحْبَابِهِ، فَقَالَ ﷺ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَلِإِخْوَتِكَ وَأَحْبَابِكَ»، فَسَأَلَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ وَلَاَسْمَاءَ - ابْنَتِهِ -، فَقَالَ ﷺ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَلَاَسْمَاءَ»، وَقَدْ بَشَّرَ الشَّيْخُ بِهَا أَهْلَهُ، ثُمَّ قَالَ: «بَعْدَ هَذِهِ الرُّؤْيَا هَانَ عَلَيَّ كُلُّ مَا لَاقَيْتُهُ مِنَ الْأَمِّ».

نَعَمْ، إِنَّهَا الرَّحْمَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي شَمِلَتْ كُلَّ مَنْ يَتَّصِلُ بِالشَّيْخِ مِنْ زَوْجَةٍ وَذَرِيَّةٍ، وَجِيرَانٍ وَشِيُوخٍ، وَطَلَابٍ وَأَصْحَابٍ، وَهِيَ سِرُّ نَجَاحِ الشَّيْخِ فِي اجْتِمَاعِ الطَّلَابِ حَوْلَهُ رَغْمَ فَارِقِ السَّنِّ وَفُتُورِ هَمَّةِ الشَّبَابِ نَحْوَ الْعِلْمِ، مُقْتَدِياً بِالْمُعَلِّمِ الْأَكْمَلِ، وَالرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ، الَّذِي وَصَفَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنْ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

لَقَدْ اجْتَمَعَتْ فِي الشَّيْخِ هَذِهِ الصِّفَاتُ الْعَظِيمَةُ، فَكَانَتْ - بَعْدَ تَوْفِيقِ اللَّهِ - سَبَباً فِي اجْتِمَاعِ الطَّلَابِ حَوْلَهُ، وَنَجَاحِ مَشْرُوعِهِ الْعِلْمِيِّ، وَإِعَادَةِ الرُّوحِ فِي الْمَدَارِسِ الشَّرْعِيَّةِ الْأَحْسَائِيَّةِ؛ لِتَوَاصُلِ رِسَالَتِهَا فِي نَشْرِ الْعِلْمِ، وَتَرْسِيخِ الْوَسْطِيَّةِ، وَتَثْبِيتِ دَعَائِمِ التَّمَاسُكِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالتَّعَايُشِ السَّلْمِيِّ.

الفصل الخامس الشيخ المعلم

في عام ١٣٣٢ هـ وُلد الشيخُ أحمدُ الدوغان، وُولد معه في اليومِ نفسِه نورُ عقلِه وربيعُ قلبِه وتوأمُ روحِه، ألا وهو العِلْم، عاشا معاً في الصغرِ والكِبَرِ، وفي الإقامةِ والسفرِ، وفي الكفافِ والفقرِ، ولم يفارق الشيخُ الوفيُّ صاحبَه إلا عندما دخل في غيبوبةِ الوفاة، فصدَّق فيه ما يُنسبُ للإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ رحمه الله أنه قال: «تَعَلَّمَ العِلْمَ من المهدِ إلى اللَّحدِ»، وقال: «مع المِحْبَةِ إلى المَقْبَرَةِ».

كان الشيخُ محبًّا للعِلْمِ وأهلِه، متعلقاً به في جميعِ أحوالِه، مقبلاً عليه منذُ صغرِه عندما كان معظمُ أقرانِه مقبلينَ على لهوهم ولعِبهم، مُصِرًّا على والدِه أن ينهضَ بتعليمِه عندما كان معظمُ الآباءِ يُعانونَ في تعليمِ أولادِهِم.

ثم أمضى الشيخُ حياتهَ كلها متعلماً، إمَّا بملازمته لشيخِه، أو بمذاكرته مع أقرانِه، أو بتعلُّمِه بنفسِه، وأمضى آخرَ أربعةِ عقودٍ منها معلِّماً لعدةِ أجيالٍ، صانعاً للرجالِ، فاجتمع في التعلُّمِ منه آباءٌ وأبناء، وإخوةٌ أشقاء، وأصحابٌ وأصدقاء.

كان اهتمامُ الشيخِ بالعِلْمِ -تعلُّماً وتعليماً- فطرةً فطره الله عليها، فبدأ بالبحثِ عن العلماءِ، ثم صار يبحثُ عن الطلابِ، فتحمَّلَ العِلْمَ، فأثمرَ في نفسِه إخلاصاً لله عز وجل، وتمسكاً بسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ، وتقوى وورعاً، ونصيحةً وتواضعاً، ثم أدَّاه لأجيالٍ متعاقبة، فارتَووا من معينِ جدولِه، واستظلُّوا تحت ظلِّ شجرته.

من مظاهر اعتناء الشيخ بالعلم أنه أولى أولاده عناية خاصة بتعليمهم، واغتنام جميع الأوقات في تنمية مداركهم، فقد ذكر ابنه د. عبد الله أن الشيخ كان يصطحبه مراراً لزيارة أصحابه، وكان الشيخ الأب يرغب في زيادة الحصيلة اللغوية لابنه الصغير، فكان يعرض عليه مساجلته في الشعر، فيوافق الابن، ويساجل أباه، ولكن ما يلبث الابن إلا وينفذ مخزونه الشعري، فيقترح عليه الأب أن يسلفه بيتاً؛ شريطة أن يحفظه، فيوافق الابن، وينال فرصة للتفوق على والده، ثم ينقطع مرة أخرى، فيتكرر الاقتراح، وهكذا، فما تنتهي المساجلة إلا وقد أضاف الابن إلى رصيده عدة أبيات جديدة.

وما زال الابن الصغير يتذكر عندما سافر مع أبيه إلى مكة المكرمة، وأنه اشترى له كتابين، هما: قصص القرآن، وقصص العرب، في لفتة تعكس اهتمام الشيخ بالثقافة والتاريخ والأدب.

وكان الشيخ يتعهد أهله وأولاده وأحفاده بالتعليم، فكان يجمعهم، ويقدم لهم دروساً في عدة علوم، ويحثهم على القراءة والحفظ، ويكافئهم إذا حفظوا متوناً علمية، فقد ذكرت إحدى بناته أنه نادى حفيده ذات يوم، وطلب منه تسميع المنظومة الرحبية في علم الفرائض، فلما سمعها له كافأه بمبلغ خمسمئة ريال، وقد كان هذا قبل وفاته بثلاث سنوات.

تلك كانت أمثلة على قيام الشيخ بأعباء التعليم منذ مرحلة مبكرة من حياته، وقد وصل الشيخ قيامه بتلك الأعباء في منتصف عمره عندما انتظم في التعليم النظامي كمعلم للقرآن الكريم والعلوم الشرعية لأكثر من عشرين سنة، فاكسب خبرة عملية كبيرة، ساعدته على القيام بالرسالة التعليمية في المرحلة الأضعف من حياته، ولكنها الأقوى في عطائه.

اجتمع الطلاب المقبلون على العلم حول شيخهم في هيئة لم يعهدوها من قبل، فقد اعتادوا على القعود على كراسي الدراسة، من الصباح إلى الظهر، فدخل عليهم معلمٌ تلو آخر، يعطيهم مقداراً من العلم في مجال معرفيٍّ مُعيَّن، ثم يُقيِّم مدى استيعابهم بناءً على واجباتٍ واختباراتٍ ودرجات.

أما هذا الشيخ فقد جمع طلابه حوله، قعوداً على الأرض، في بيتٍ من بيوت الله، بعد صلاة العشاء، يقرأ أحدهم عبارةً، فيشرح الشيخ معناها، فيتبادر سؤالٌ لأحد الطلاب، فيسأل شيخه، فيجيبه إجابةً واضحةً، فيواصلون درسهم لمدة ساعةٍ واحدة، ثم يختتمه شيخهم بالدعاء، فيتفرقون ثم يعودون في اليوم التالي، فما السرُّ الذي دفع أولئك الطلاب الصغار ليتحلَّقوا حول الشيخ الوقور؟ هل السرُّ يكمنُ في إخلاصه وورعه، أو رحمته وتواضعه، أو حلمه وصبره؟!

الإجابة الوحيدة المقنعة هي توفيق الله عز وجل للشيخ، المفهوم من قوله تعالى لنبية ﷺ: ﴿فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بَصَرَهُ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَاللَّفَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

كان الشيخ يأمر قارئَ الدرس أن يبدأ بسم الله وحمده عز وجل، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، ثم يدعو بقوله: «اللهم افتح علينا حكمتك، وانشر علينا رحمتك، وعلمنا ما ينفعنا، وزدنا علماً»، ثم يفتتح القراءة بقوله: «قال المؤلف رحمه الله»، وقد جمعت هذه المقدمة الشاء على الله، والصلاة والسلام على رسول الله، واستمطارَ الفتح الإلهي، واستجلابَ الرحمة الربانية، وطلب العلم النافع، والزيادة منه، والدعاء للمؤلف، وبهذه الكلمات يتوكل الطالب

على ربّه، وَيَشْهَدُ مِنْتَهُ عَلَيْهِ بِإِرْسَالِ نَبِيِّهِ، وَيَتَعَلَّقُ بِمِيرَاثِهِ الْعِلْمِيِّ، وَيُسْنَدُ الْفَضْلَ لِأَصْحَابِهِ.

وَلَمْ يَكُنِ الشَّيْخُ يَتَّخِذُ قَارِئًا مَعِيْنًا، بَلْ كَانَ يُنَوِّعُ الْقُرَّاءَ حَسَبَ الْكُتُبِ؛ تَمْرِينًا لِطَلَابِهِ عَلَى قِرَاءَةِ عِبَارَاتِ الْأَقْدَمِينَ الْمَسْبُوكَةِ سَبْكَ الذَّهَبِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُقَدِّمُ فِي الْقِرَاءَةِ الْأَقْدَمَ وَالْأَكْبَرَ مِنْ طَلَابِهِ، وَكَانَ يُقَدِّمُهُمْ فِي الْقُرْبِ مِنْهُ أَيْضًا، وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ الدِّعَاءَ فِي خِتَامِ الدَّرْسِ أحيانًا.

ثُمَّ كَانَ الْقَارِئُ يَشْرَعُ فِي قِرَاءَةِ الْكِتَابِ عِبَارَةً عِبَارَةً، وَكَانَ الشَّيْخُ يَشْرَحُ كُلَّ كَلِمَةٍ فِيهَا، وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِتَفْكِيكِ الْعِبَارَةِ، وَكَانَ يَعِيدُ شَرْحَ الْعِبَارَةِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، فَيَفْهَمُ الطَّلَابُ مَعْنَاهَا: تَفْصِيلًا وَإِجْمَالًا، ثُمَّ يُوَاصِلُ الدَّرْسَ عَلَى هَذَا النِّحْوِ، وَأحيانًا كَانَ الشَّيْخُ يَشْرَحُ أَهَمَّ مَسَائِلِ الْبَابِ، ثُمَّ يَشْرَعُ الْقَارِئُ فِي الْقِرَاءَةِ مَعَ تَعْلِيقَاتٍ مُخْتَصِرَةٍ لِلشَّيْخِ، وَقَدْ كَانَتْ مَعْظَمُ دُرُوسِ الشَّيْخِ لَا تَزِيدُ عَلَى سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الدَّرُوسِ كَانَ الشَّيْخُ يَطْلُبُ مِنْ بَعْضِ طَلَابِهِ أَنْ يَعِيدُوا شَرْحَ الدَّرْسِ، خُصُوصًا بَعْدَ أَنْ بَرَعَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ، وَتَشَرَّبُوا طَرِيقَةَ شَيْخِهِمْ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْإِعَادَةُ شَبِيهَةً بِالتَّدْرِيبِ الْعَمَلِيِّ عَلَى الْقِيَامِ بِالتَّدْرِيسِ، فَكَانَ الشَّيْخُ يَسْتَمِعُ لِشَرْحِ طَلَابِهِ، وَيُصَوِّبُهُمْ، وَيَهَيِّئُهُمْ لِمَهْمَتِهِمُ الْقَادِمَةِ.

وَكَانَتْ بَعْضُ الدَّرُوسِ تَتَطَلَّبُ تَطْبِيقًا عَمَلِيًّا لِفَهْمِهَا وَاسْتِعَابِهَا، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْأَمْرَ خَافِيًا عَلَى الشَّيْخِ، فَقَدْ كَانَ يُطَبِّقُ بَعْضَ الْأَحْكَامِ الْفَقْهِيَّةِ الَّتِي يَصْعَبُ اسْتِعَابُهَا إِلَّا بِالتَّطْبِيقِ وَالمَمارِسةِ، فَقَدْ كَانَ يَبَيِّنُ لَهُمْ طَرِيقَةَ الْوُضُوءِ وَالتَّيْمَمِ، وَالمَسْحِ عَلَى الْخَفَّيْنِ، وَالاِفْتِرَاشِ وَالتَّوْرُكِ فِي تَشْهَدَاتِ الصَّلَاةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

ولم يكتفِ الشيخُ من طلابه بفهمِ الدروس، وتطبيقها أمامهم عملياً، بل كان يطلبُ منهم تطبيقها، فكان يطلبُ منهم قراءة سورة الفاتحة وتَشهيد الصلاة، وحِفظ أدعية الحجِّ وصلاة الجنّازة، وأداء التيمم، وإعداد الخطب، وغير ذلك.

وقد حَدثَ أن أحدَ طلابِ الشيخ تقدّم لوظيفة الإمامة في الصلاة، وكانت به لُثغة في حرفِ الراء، فخشيَ الشيخُ ألاّ تصحَّ إمامته؛ لأنه يُبدلُ حرفاً بآخر، فطلبَ الشيخُ من تلميذه أن يقرأ الفاتحة، فلمّا سمعها منه، وتيقنَ أن لُثغته لا تُبدلُ الراء إلى حرفٍ آخر، ولكنها تُخرِجُ حرفَ الراء غيرَ صافٍ، إذن له بالإمامة.

وبعد أن قطعَ الشيخُ شوطاً طيباً مع طلابه، وأخذَ يكتشفُ طاقاتهم ومواهبهم، شرعَ يقترحُ على بعضهم حفظَ المنظوماتِ العلمية؛ لأنها تحوي أصولَ العلومِ وأمّهاتِ مسائلها وقواعدها، ومن أبرز تلك المنظومات: متنُ الرّحبية في الفرائضِ والمواريث (١٧٦ بيتاً)، ومتنُ الزُّبدِ في الفقهِ الشافعي (١٠٨٠ بيتاً)، ومتنُ ألفية ابنِ مالكٍ في النحو (١٠٠٠ بيت)، وقد كان الشيخُ يتابعُ طلابه بنفسه في حفظِ تلك المنظومات، ويخصّصُ أولَ الدرسِ أو آخره لتسميعِ محفوظاتهم.

وقد كان السرورُ يبلغُ من الشيخِ مبلغه عندما يختتمُ أحدُ طلابه منظومةً علمية، فكان يطلبُ منه أن يسجدَ سجدة الشكرِ لله على ما منَّ به عليه، وأن يدعوَ للمؤلفِ على نظمه المفيد، وأن يدعوَ للعلماءِ على قيامهم بمهمةِ رُسلِ الله، عليهم صلواتُ الله وسلامه.

وكان الشيخُ كثيراً ما يستشهدُ بأبياتٍ من المنظوماتِ العلمية التي يحفظها، وكان يستنطقُ طلابه أيضاً للاستشهادِ بمحفوظاتهم على المسائلِ العلمية التي يناقشها معهم، ويحثُّهم على مراجعتها، فمما كان يستشهدُ به أبياتٌ من منظومة

الرحبية عند تصحيح المسائل الفرضية، فيقول:

فذاك جزء السهم فاحفظنه واحذر هُدَيْتَ أَنْ تَضَلَّ عَنْهُ
واضربه في الأصل الذي تأصلاً وأحص ما انضم وما تحصلاً
واقسمه فالقسمُ إذن صحيحُ يعرفه الأعجمُ والفصيحُ
فهذه من الحسابِ جُمْلُ يأتي على مثالهنَّ العملُ
من غيرِ تطويلٍ ولا اعتسافٍ فاقنع بما بُيِّنَ فهو كافٍ

وكان الشيخُ يستشهدُ كثيراً بأبياتٍ من منظومة الزيدِ في طريقة إجراء
الدَّعْوَى بين الخصوم، ويذكرُ أنَّ زميله القاضي الشيخَ عبدَ اللطيفِ بنَ عبدِ الله
العبد اللطيفِ رحمه الله كان يتبعها في إجراءات التقاضي، فيقول:

إِنْ تَمَّتِ الدَّعْوَى بِشَيْءٍ عِلْمًا سَأَلَ قَاضٍ خِصْمَهُ وَحَكَمًا
إِنْ يَعْتَرِفُ خِصْمٌ فَإِنْ يَجْحَدُ وَثَمَ بَيِّنَةٌ بِحَقِّ مُدَّعٍ حَكَمَ
وَحَيْثُ لَا بَيِّنَةٌ فَالْمُدَّعَى عَلَيْهِ حَلْفٌ حَيْثُ مُدَّعٍ دَعَا
فَإِنْ أَبِي رُدَّتْ عَلَى مَنْ ادَّعَى وَبِالْيَمِينِ يَسْتَحِقُّ الْمُدَّعَى

ولذلك فقد كان الشيخُ يحثُّ طلابه على مراجعة محفوظاتهم، وكان
يشاركهم في ذلك، ولم يكن يقتصرُ على ما يكونُ في دروسه العلمية معهم، بل
كان إذا اصطحبهم معه في زيارته، يخبرهم أنه راجع اليومُ كذا وكذا، ثم يطلبُ
منهم تسميعَ بعضِ محفوظاتهم، وهكذا فقد كان الشيخُ والعلمُ سَمِيرَيْنِ.

وذكرَ أحدُ طلابِ الشيخِ، وهو الشيخُ عبد الحميد بن عبد الرحمن النعيم،
أنَّ الدرسَ إذا انتهى وانصرفَ الطلابُ، قال له: «اجلسْ لأراجعَ معك القرآن»،

فكان الشيخُ يقرأُ حزباً غيباً، وتلميذهُ يُتابعُ له، ثم يقرأُ تلميذهُ حزباً آخرَ نظراً، والشيخُ يُصحِّحُ له، وذكر تلميذهُ الشيخُ ماهر بن عبد اللطيف الجعفري أنَّ الشيخَ كان يطلبُ منه أن يُسمَعَ له صفحاتٍ من القرآنِ الكريمِ من حينٍ لآخر عندما كان الشيخُ إماماً لمسجدِ موسى بن نصير.

وقد كان الشيخُ يراجعُ محفوظاته إلى آخرِ حياته، وكان يعلمُ أنَّ إهمالَ المراجعةِ يؤدي إلى نسيانِ المحفوظ، فقد ذكرَ تلميذهُ الشيخُ د. عصام بن عبد العزيز الخطيب أنه كان يدخلُ المسجدَ، فيجدُ الشيخَ يدورُ في أنحاءه، وهو في الثمانيناتِ من عمره، ممسكاً بالمصحفِ أو بمتنِ الزبدِ أو غيرهما للمراجعة، بل إنَّ الشيخَ لما عجز عن الذهابِ للمسجدِ في آخرِ حياته كان يُراجعُ محفوظاته في بيته، فقد ذكر ابنه الشيخُ عبد العزيز أنه رأى الشيخَ يراجعُ الزبدَ في آخرِ سنتين من حياته، أي وهو في سنِّ المئة.

لقد كان الشيخُ يدركُ أهميةَ مراجعةِ المحفوظاتِ من القرآنِ الكريمِ والمتونِ العلمية، وإلا فإنَّها ستتفلتُ شيئاً فشيئاً، وكان يؤكِّدُ على طلابه بأهميةِ مراجعةِ محفوظاتهم، فعندما أخبره تلميذهُ الشيخُ د. عصام بن عبد العزيز الخطيب أنه حفظَ شيئاً بسرعةٍ بعد حفظِ محفوظٍ آخر، بدتْ علاماتُ الضيقِ على الشيخِ بدلاً من المباركةِ لتلميذه على هذا المحفوظ الجديد، وقال له: «متى ستراجعه»؟!

وكان الشيخُ يحثُّ طلابه على مراجعةِ الدرسِ قبلَ انعقاده وبعدَ انتهائه، وكان يذكُرُ لهم نماذجَ من العلماءِ الذين اشتَهَرَ عنهم مراجعةُ الدرسِ مراتٍ كثيرة، مثلَ الإمامِ أبي إسحاق الشيرازي رحمه الله (٣٩٣-٤٧٦ هـ)، مؤلِّفِ التنبيةِ والمهدَّبِ في الفقهِ الشافعي، واللَّمَعِ في أصولِ الفقه، فقد كان يراجعُ الدرسَ

مئة مرة، وقد كان الشيخ يسلك مسلكاً طريفاً في التأكيد على أهمية المراجعة، فكان بعض الطلاب يسألون أسئلة، فيأتي جوابها فيما يُقرأ في الدرس، فيتسّم الشيخ، ثم يقول: «لا يسبقنكم أبو إسحاق الشيرازي».

ومن العلماء الأحسائيين المعاصرين الذين كان الشيخ يستشهد بهم على كثرة مراجعة الدرس الشيخ عبد العزيز بن عمر العكّاس رحمه الله، فقد كان يراجع درسه أربعين مرة، فكان بعض الطلاب إذا سألوا الشيخ سؤالاً، ثم أتت إجابته، قال لهم: «يبدو أنكم راجعتم الدرس تسعاً وثلاثين مرة، ولو أنكم راجعتموه أربعين مرة، كما كان يفعل الشيخ العكّاس، لَمَا سألتكم».

وكان الشيخ يشجع طلابه - إضافةً إلى حفظ المنظومات العلمية - على حفظ المقطوعات الشعرية التي تناقش موضوعاً فقهياً، خصوصاً إذا كانت تحتوي على فوائد فقهية إضافية، ومن أمثلتها مقطوعة محرّمات الإحرام للإمام إسماعيل ابن المُقري رحمه الله (٧٥٥-٨٣٧هـ)، وهي:

أولها المرّتب المقدّر	أربعة دماء حجّ تُحصّر
وترك رمي والميت بمنى	تمتّع فوتّ وحجّ قرنا
أو لم يودّع أو كمشي أخلفه	وتركه الميقات والمزدلفة
ثلاثة فيه وسبعاً في البلد	ناذره يصوم إن دماً فقد
في محصرٍ ووطء حجّ إن فسد	والثان ترتيبٌ وتعديلٌ ورد
به طعاماً طعمة للفقرا	إن لم يجد قومه ثم اشترى
أعني به عن كلّ مُدّ يوماً	ثم لعجرٍ عدلٌ ذاك صوماً
صيدٍ وأشجارٍ بلا تكلف	والثالث التخيّر والتعديل في

إِنْ شَتَّ فَاذْبَحْ أَوْ فَعَدَّلْ مِثْلَ مَا عَدَّلْتَ فِي قِيَمَةٍ مَا تَقَدَّمَ
 وَخَيْرَنْ وَقَدَّرَنْ فِي الرَّابِعِ إِنْ شَتَّ فَاذْبَحْ أَوْ فَجَدَّ بِأَصْعِ
 لِلشَّخْصِ نِصْفٌ أَوْ فُصْمٌ ثَلَاثًا تَجَثُّ مَا اجْتَثَّتْهُ اجْتِثَاثًا
 فِي الْحَلْقِ وَالْقَلَمِ وَلُبْسِ دُهْنِ طِيبٍ وَتَقْبِيلٍ وَوَطْءِ ثُنْيِ
 أَوْ بَيْنَ تَحْلِيلِي ذَوِي إِحْرَامِ هَذَا دِمَاءُ الْحَجِّ بِالتَّمَامِ
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَصَلَّى رَبُّنَا عَلَى خِيَارِ خَلْقِهِ نَبِيِّنَا

وكان تشجيع الشيخ يزداد إذا كانت تلك المقطوعات تُضيف تحدياً عقلياً للطلاب، ومن أبرز تلك التحديات الألباز الفقهية؛ لأنها تُنشط الحركة العقلية، وتُنمي الملكة الفقهية، ومن أمثلة تلك الألباز أن رجلاً مسافراً، يجد الماء أحياناً فيتوضأ، ويفقده أحياناً أخرى فيتيمم، فوجب عليه إعادة الصلوات التي توضأ لها دون التي تيمم لها، وقد نظمه الإمام السيوطي رحمه الله (٨٤٩-٩١١هـ)، فقال:

أَلَيْسَ عَجِيباً أَنْ شَخْصاً مَسَافِراً إِلَى غَيْرِ عَصِيَانٍ تُبَاحُ لَهُ الرُّخْصُ
 إِذَا مَا تَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ أَعَادَهَا وَلَيْسَ مُعِيداً لِلتِّي بِالتَّرَابِ خُصُّ

وجواب اللغز أن الرجل أجنب، ثم نسي جنابته، فوضوءه لا يكفي في رفع حدثه الأكبر، فيجب عليه إعادة صلوات الوضوء، أما تيممه فيكفيه في استباحة فرض الصلاة؛ لأنه يقوم مقام الغسل عند فقد الماء، فلا يجب عليه إعادة صلوات التيمم، وقد أجاب عنه الشيخ عبد الله بن أحمد الأنصاري رحمه الله - من علماء القرن الحادي عشر الهجري -، فقال:

لَقَدْ كَانَ هَذَا لِلجَنَابَةِ نَاسِياً وَصَلَّى مَراراً بِالوَضُوءِ أَتَى بِنِصِّ

وصلّى مراراً بالتيمم يا فتى عليك بكتبِ العِلْمِ يا خيرَ مَنْ فحص
 قضاءُ التي فيها تَوْضُحاً واجبٌ وليس معيِداً للتي بالترابِ خص
 لأنَّ مقامَ الغسلِ قام تيممٌ خلافَ وضوءِ هاك فَرَقاً به تُخَص
 وذا نظمُ عبدِ الله وهو ابنُ أحمدٍ فياربِّ سلّمه من الهَمِّ والغَصَص
 ونظراً لأنَّ تلكَ الفوائدَ والفرائدَ، والمقطوعاتِ والمنثوراتِ، تَفُوتُ على
 طالبِ العِلْمِ إنْ لَمْ يقيدها بالكتابة، فقد كان الشيخُ يحثُّ طلابه على أنْ يُحضروا
 معهم دفاتر؛ لتسجيلها وتقييدها، وكان يقول:

العِلْمُ صَيْدٌ وَالكِتَابَةُ قَيْدُهُ قَيْدُ صَيْدِكَ بِالْحَبَالِ الْوَاتِقَةُ
 فَمِنَ الْحِمَاقَةِ أَنْ تَصِيدَ غَزَالَةَ وَتَفَكِّهَهَا بَيْنَ الْخَلَائِقِ طَالِقَةُ

لقد كان الشيخُ يدركُ أهميةَ تسجيلِ الفوائدِ المنثورةِ والفرائدِ المبنوثةِ
 في حواشي الكتبِ العلمية، وقد كان يقومُ بذلك في دروسه العلمية منذُ مرحلةٍ
 مبكرةٍ في حياته إلى مراحلٍ متأخرةٍ منها.

وكان الشيخُ كثيراً ما يحضرُ للدرسِ قبلَ طلابه، فإذا اجتمعَ حوله بعضهم
 اغتنمَ وقتاً قصيراً في إعرابِ آيةٍ قرآنية، أو بيانِ الشاهدِ النحويِّ في بيتِ شعري،
 أو حلِّ مسألةٍ فَرَضِيَّة، أو تلخيصِ بابٍ فقهي، أو الإشارةِ لبعضِ آدابِ العِلْمِ،
 وقد كان الهدفُ من اغتنامِ هذه الدقائقِ مراجعةَ المعلوماتِ وتنميةِ الملكاتِ
 وإفادةِ الطلابِ المستجدين، وقد كان من نتائجِ هذه الدقائقِ القصيرةِ إعرابُ ما
 يقربُ من عشرةِ أجزاءٍ من القرآنِ الكريمِ على مدى عدةِ سنوات، وكان من أبرزِ
 طلابه الذين يتدقّقون في الإعرابِ تلميذهُ الشيخُ عماد بن أحمد الفلاح، وصدق
 ابنُ النحاسِ الحلبي رحمه الله (٦٢٧-٦٩٨هـ):

اليوم شيءٌ وغداً مثله من نخبِ العلمِ التي تُلْتَقَطُ
يُحْصَلُ المرءُ بها حِكْمَةٌ وإنَّما السَّيْلُ اجْتِمَاعُ النُّقْطِ

وكان الشيخ أيضاً يستفيد من هذه الدقائق في معرفة مستويات طلابه، فقد كان يدخلهم في منافسة، ويُعطيهم بيتاً من الشعر ليُعرِّبوه، أو مسألةً فرضيةً ليحلُّوها، ومن أمثلة ذلك أنه طلب من ثلاثة من طلابه - وهم: الشيخ د. أحمد بن عبد اللطيف البراهيم العرفج، والشيخ الطيب د. محمد توفيق نعمان من فلسطين، وكتب هذه السطور - أن يتنافسوا في إعراب البيت التالي:

قالوا كلامك هنداً وهي مُصغيةٌ يشفيك قلتُ صحيحٌ ذاك لو كانا

وهذا البيتُ يقيس مدى معرفة الطلاب بأن المصدرَ يَنْصِبُ مفعولاً، واعتراض الجملة الحالية، وتقديم الخبر على المبتدأ، وكان التامة التي لا تطلبُ جملةً اسميةً.

لقد كان الطلاب يرون في هذه الدقائق المعدودة نشاطاً علمياً، ممزوجاً بالمرح، وعامراً بالرياضة الذهنية، ومعرفةً بالمسائل النادرة، ومحفزاً نحو المنافسة العلمية، ومنشطاً للهمة والروح المعنوية، فكانوا يحرسون على الحضور المبكر؛ لكيلا يفوتهم نصيبهم من ذلك النشاط العلمي.

وكان الشيخ يخلل درسه بهذه الأنشطة العلمية المختلفة من إعراب آية قرآنية أو بيت شعري، أو حل مسألة فرضية، أو كشف لغزٍ فقهي، قاصداً إبقاء طلابه في أعلى درجات الانتباه واليقظة، وألا يتسلل إليهم الكسل والملل، وإذا أخطأ أحد طلابه لم يُعَنِّفه ولم يُلِّمه، بل يُعِينُه ويساعده إلى أن يصل إلى الإجابة.

وكان الشيخ حريصاً على أن يكون شرحه للعبارات العلمية متوسطاً، لا اختصاراً مخلاً ولا إسهاباً مملاً، وكانت تلك الطريقة مناسبة لطلاب الشيخ، خصوصاً أنهم حديثو عهدٍ بهذه الدروس، فكانت هذه الطريقة تُعينهم على فهم المراد فهماً سليماً، وفي الوقت نفسه تثيرُ عندهم أسئلةً يستكملون بها كمال المعنى.

وكان طلابُ الشيخ يجدون عنده أجوبةً أسألهم، ولكنه لم يكن يُجيبُ عن كلِّ ما يُسأل، فقد كان يتوقفُ أحياناً، إما للتأكدِ والمراجعةِ أو للبحثِ والمطالعة، ولم يكن يستنكفُ أن يقول: «لا أدري»، فكان يعدُّ بالبحثِ عن إجاباتها، ويطلبُ من طلابه أن يُشاركوه تلك المهمة؛ ليتعلموا مهارةَ البحثِ عن المسائل، وليضيفوا لهم رصيذاً من الفوائد التي سيلتقطونها في رحلتهم البحثية، فكان الشيخ وطلابه ينظرون في الكتب، ويبحثون عن المسائل، فيسبقُ الشيخ طلابه أحياناً، ويسبقونه أحياناً أخرى، فإذا سبقهم الشيخ عرَضَ الإجابة لهم، وإذا سبقوه طلبَ من الطالبِ الذي عثرَ على الجوابِ أن يعرِضَ نتيجةَ بحثه، فيناقشُ الشيخُ مع طلابه تلك النتيجة، ويثني على تلميذه جهده، ويشجعه على المواصلة.

ومن المسائل التي سُئل عنها الشيخ، فسبقَ طلابه في العثورِ على جوابها، مسألةٌ تتعلقُ باختلافِ الزوجين في الوطاء، بأن يدعيه أحدهما، وينفيه الآخر، والقاعدةُ أن النافي هو المصدق؛ لأنه الأصل، فسأله تلميذه الشيخ الطيبُ د. محمد توفيق نعمان من فلسطين عمّا لو حملت الزوجة، فأحال الشيخُ الأمرَ إلى المراجعة، فلما كان اليومُ التالي ذكرَ الشيخُ أنه راجعُ المسألة، وأن جوابها تصديقُ المثبت في هذه الحالة، وأن هذه المسألة مع نظائر لها مستثناة من قاعدة

تصديق نافي الوطاء، وأنها مجموعة في منظومة مختصرة، وهي موجودة في حاشية إعانة الطالبين على فتح المعين.

ومن المسائل التي سُئِلَ عنها الشيخُ، فسبقه أحدُ طلابه في العثور على جوابها، مسألة تتعلق بتطبيق القاضي زوجة المولي إذا لم يحنث في يمينه، وامتنع عن تطليقها، فهل تُعدُّ طلقاً القاضي رجعية أم بائنة، فطلب الشيخ مراجعتها، فلما كان اليوم التالي أخبرته أنني راجعتُ المسألة، وجوابها أن الطلقة رجعية، فيحق للمولي مراجعة زوجته إذا طلقها القاضي عليه، وتُحسبُ عليه طلقاً واحدة، وأنَّ جوابها مذكورٌ في حاشية الباجوري على شرح ابن قاسم لمتن أبي شجاع، فلما كان وقتُ الدرسِ، وحضر الطلابُ، ذكر الشيخُ المسألة، وأخبرهم أنني راجعتها، وأنَّ جوابها كذا وكذا، وأثنى على تلميذه كاتب هذه السطور.

بل كان الشيخُ يفرحُ إذا عثرَ طلابه على إجابة المسائل، لا سيما إذا أكَّدت ما يحفظه في المسألة، ومن شواهد ذلك أن السؤال وقع عن وقت جواز ذبح دم القران، فذكر الشيخُ أنه لم يرَ فيه نصًّا، وأحال الإجابة على المراجعة، فعثر تلميذه الشيخُ د. عصام بن عبد العزيز الخطيب على عبارة في حاشية الجمل على شرح المنهج، وفيها قوله: «فإني لم أرَ فيه نصًّا»، ففرح الشيخُ بهذه الموافقة فرحاً بالغاً.

بل كان الشيخُ - رَغْمَ علوِّ مقامه - لا يستنكفُ أن يسألَ طلابه ويُناقشهم، ومن أمثلة ذلك أنني تولَّيتُ إمامة مسجد، وكنت أُطيلُ دعاء القنوت في وتر رمضان؛ تلبيةً لرغبة المأمومين في ذلك، وكان الشيخُ يكره المبالغة في تطويل

القنوت؛ لأن الاعتدال من الركوع ركنٌ قصيرٌ عند الشافعية، فسأل الشيخ تلميذه الشيخ د. أحمد بن عبد اللطيف البراهيم العرفج عن حكم فعلي، فأجابه بأن تطويل قيام الركعة الأخيرة لا يُبطل الصلاة كما رجَّحه العلامة ابن حجر الهيتمي رحمه الله (٩٠٨-٩٧٤هـ)، فابتسم الشيخ، ثم قال: «لأنه ابن عمك»؟!!

وعرضت على الشيخ مسألةً فرضية، توالى فيها موتُ الورثةِ واحداً تلو آخر، ولم تُقسَم تركة الميت الأول، وهو ما يسمّى بمسائلِ المناسخة، وقد بلغ عددُ الأمواتِ تسعة أشخاص، فطلب الشيخ من تلميذه الشيخ عبد اللطيف بن محمد البراهيم العرفج أن يساعده في حلها، فكان التلميذ يأتي منزلَ شيخه بعد صلاة العصر إلى المغرب أو العشاء لمدة أسبوع، ويقومان بحل المسألة، فكتسب التلميذ من شيخه خبرةً كبيرةً في كيفية قراءة الصكوك الرسمية وحصر الورثة وحل مسائلِ المناسخات عملياً.

لقد أورت هذه الطريقة في البحث والمناقشة والمراجعة الشيخ ملكة حفظٍ واستظهارٍ للمسائل إلى مرحلة متأخرة من عمره، فقد ذكر الشيخ السيد عمر بن حامد الجيلاني حفظه الله أنه جرت بينه وبين الشيخ مناقشة في مسألة فقهية، وكان الشيخ قد ناف عمره على التسعين عاماً، فإذا به ينهض، ويعود من مكتبته، حاملاً نسخةً مخطوطةً من كتاب فتح الجواد لابن حجر الهيتمي رحمه الله، ويشير إلى المسألة في الكتاب.

وكان الشيخ متدرجاً مع طلابه في تنمية مهاراتهم العقلية، وكان يجد في علم الفرائض والمواريث وسيلةً مناسبةً لتحقيق هذا الهدف، فكان يسألهم عن المسائل الفرضية الميسرة، فيقومون بحلها في أوراقهم وكراريسهم، ثم يزيد

المسائل صعوبةً، فيحلونها بالطريقة نفسها، ثم يطلب منهم أن يحلوا المسائل ذهنياً بدون كتابة، فيواجهون صعوبةً في البداية، ثم ينجحون أخيراً، ثم يزيد الأمر صعوبةً حينما يطلب إيجاد نسبة ميراث كل وارث إلى مُصَحِّح المسألة الفرضية.

وفي بعض الأحيان كان الشيخ يفاجئ طلابه بمسائل فرضية معقدة، فلا يتمكنون من حلها إلا بالكتابة، فيكون الشيخ مستعداً بالأقلام والأوراق، فلا يبقى أمام الطلاب عذرٌ إلا الاجتهاد وإعمال العقل، ومن تلك المسائل الفرضية مسألة الامتحان، وفروضها: أربع زوجات، وخمس جدات، وسبع بنات، وتسعة إخوة أشقاء أو لأب، فأصلها من أربعة وعشرين، وقد عمَّها التباين، سواء فيما بين الأنصبة وعدد أصحابها، أو فيما بين أعداد الورثة، فبلغ جزء سهمها ألفاً ومائتين وستين، وصحَّت من ثلاثين ألفاً ومائتين وأربعين.

بل إن المسائل الفرضية الواقعية كانت تُعرض على الشيخ أحياناً أثناء درسه اليومي، فقد ذكر تلميذه الشيخ أحمد بن فيصل النعيم أن رجلاً قصد أحد المختصين في الشريعة ممن يعملون في المحكمة الشرعية في الأحساء؛ ليقوم بحل مسألة فرضية مع تقريظها، فلم يتمكن ذلك المختص الشرعي من حلها، فجاء الرجل إلى الشيخ وهو في درسه مع طلابه، وعرض المسألة على الشيخ أثناء الدرس، فقام بحلها وتقريظها في عدة دقائق.

ونظراً لصعوبة علم الفرائض، وتباين مستويات الطلاب في إتقانه، فقد كان الشيخ يقسم طلابه إلى مجموعات، بحيث يكون في كل مجموعة طالب متقنٌ وعدة طلاب مبتدئين، ثم يطرح عليهم المسألة الفرضية، فيتعلم بعضهم من بعض، وهذه هي طريقة التعلم بالأقران.

وكان الشيخُ في تدرّيسه مقتدياً بالنبِيِّ الأكرم ﷺ، فقد كان يكرّرُ مسائلَ العِلْمِ، ويتأنّى في شرحِها، ويتدرّجُ في تعليمِها، قال أنسُ بن مالك رضي الله عنه: «كان النبيُّ ﷺ إذا تكلمَ بكلمةٍ أعادها ثلاثاً حتى تُفهمَ عنه، وإذا أتى على قومٍ فسَلَّم عليهم سلَّم عليهم ثلاثاً»، رواه البخاريُّ والترمذي، وقالت عائشةُ رضي الله عنها: «ما كان رسولُ الله ﷺ يسرُّدُ سرِّدكم هذا، ولكنه كان يتكلمُ بكلامٍ يُبينُه، فصل، يحفظُه من جلسَ إليه»، رواه أحمدُ والترمذي، ولما أرسلَ رسولُ الله ﷺ معاذَ بنَ جبل رضي الله عنه إلى اليمنِ قال له: «إنك تأتي قوماً أهلَ كتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسولُ الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في اليوم واللييلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترضَ عليهم صدقةً في أموالهم، تُؤخذُ من أغنيائهم وتُردُّ على فقرائهم»، رواه البخاريُّ ومسلمٌ وأحمدُ والنسائيُّ وأبو داودَ والترمذيُّ وابنُ ماجه.

وليس من المبالغة القولُ بأنه لا تكادُ توجدُ طريقةٌ صحيحةٌ للتدرّيسِ إلا طبَّقها الشيخُ في تدرّيسه لطلابه، فقد استخدمَ معهم طريقةَ المحاضرة والإلقاءِ المباشرِ، وطريقةَ الإجمالِ ثم التفصيلِ، وطريقةَ الحوارِ والمناقشة، وطريقةَ طرحِ الأسئلةِ لاكتشافِ المواهبِ والقدراتِ، وطريقةَ التطبيقِ والممارسة، وطريقةَ التدرّيبِ العمليِّ أو الميداني، وقد أضفتُ طريقةً جديدةً في التعليمِ، وهي إجراءُ المناظراتِ بين الطلابِ في مسائلِ العِلْمِ المختلفة.

وكان الشيخُ مبادراً في اقتراحِ الدروسِ على طلابه؛ رغبةً في تزويدهم بما تكتملُ به شخصيتهم العلمية، وقد كان هذا يزيدُ الأعباءَ التعليميةَ عليه، فقد اقترحَ على بعضِ طلابه أن يفتحَ معهم درساً في كتابِ الإيضاحِ في مناسكِ الحجِّ للإمامِ النوويِّ رحمه الله بعد صلاةِ الظهرِ في فصلِ الصيف؛ لأنه الوقتُ

الوحيد المتاح له، فاعتذر طلابه عن تحقيق رغبته.

وكان الشيخ يرسم لطلابه طريق النبوغ والتفوق في طلب العلم، فَيُبَيِّنُ لهم الصفات التي يجب توفرها في المعلم والمتعلم؛ لينجحوا في مهمتهما التعليمية والتعلمية، فمما أملاه عليهم في مرحلة مبكرة من طلب العلم في مسجد العبد اللطيف: «قال القاضي حسين رحمه الله: المختص بالمتعلم من التوفيق أربعة أشياء: ذكاء القريحة، وطبيعة صحيحة، وعناية مليحة، ومعلم ذو نصيحة، وإذا جمع المعلم ثلاث خصال فقد تمت النعمة على المتعلم: الصبر والتواضع وحسن الخلق، وإذا جمع المتعلم ثلاث خصال فقد تمت النعمة على المعلم: العقل والأدب وحسن الفهم»، وغيرها كثير.

وقد أولى الشيخ عنايته لكثير من العلوم الشرعية واللغوية، ولكن أبرز العلوم التي أولاه اهتماماً بالغاً علم الفقه والنحو والفرائض، أما الفقه فلأنه علم غاية وثمرة، ويصعب أداء التكليف على وجهها الصحيح إلا بعلم الفقه، وأما النحو فلأنه علم آله ومفتاح لفهم العلوم، وأداة مهمة للبيان، وأما الفرائض فلأنه باب من أبواب الفقه، وطبيعته تنمي الملكات العقلية.

ومما يدل لعناية الشيخ بعلم النحو أنه ما كان يقبل من طلابه أن يقعوا في أخطاء نحوية أثناء قراءتهم لكتب العلم، ولكنه كان يتبع طريقة لطيفة لتبنيهم إذا أخطؤوا، فكان يقول عند الخطأ: «سيويه حاضر»، أو «سيويه لا يرضى»، أو نحوها.

وقد كان الشيخ يُنشد الأبيات الشعرية التي تبين مقدار تلك العلوم، ويطلب من طلابه حفظها، ومنها - في علم الفقه - قول الإمام عمر ابن الوردية رحمه الله (٦٩١-٧٤٩هـ) في بهجة الحاوي:

والعُمُرُ عن تحصيلِ كُلِّ عِلْمٍ يَقْصُرُ فابدأُ منه بالأهمِّ
 وذلكَ الفقهُ فإنَّ منه ما لا غنى في كلِّ حالٍ عنه
 ومنها:

عليك بعِلْمِ الفقهِ في الدينِ إنه سيرُفَعُ فاستدركه قبلَ صعودِهِ
 ومنها:

فإنَّ فقيهاً واحداً متورِّعاً أشدُّ على الشيطانِ من ألفِ عابد
 ومنها- في عِلْمِ النحو- قصيدةُ الإمامِ الكسائي رحمة الله (١١٩-١٨٩هـ)،
 أحدِ القُرَّاءِ السبعة، وفيها:

إنما النحوُ قياسٌ يُتَّبَعُ وبه في كلِّ عِلْمٍ يُتَّفَعُ
 فإذا ما أبصرَ النحوَ الفتى مرَّ في المنطقِ مرّاً واتسع
 وأتقاه كلُّ مَنْ جالسه من جليسٍ ناطقٍ أو مستمع
 وإذا لم يبصرِ النحوَ الفتى هاب أن ينطقَ جُبناً وانقمع
 ومنها:

النحوُ يصلحُ من لسانِ الألكنِ والمرءُ تُكرمه إذا لم يلحنِ
 وإذا طلبتَ من العلومِ أجلَّها فأجلُّها نفعاً مُقيمُ الألسنِ
 ومنها:

مَنْ فاته النحوُ فذاك الأخرسُ وفهْمُه في كلِّ عِلْمٍ مفلسُ
 ومنها:

كلامٌ بلا نحوٍ طعامٌ بلا ملحٍ ونحوٌ بلا شعرٍ ظلامٌ بلا صبحِ

وقد كان الشيخُ يترنمُ بترديد الأبياتِ الشعريةِ المُبَيِّنَةِ لأهميةِ العلمِ،
ويُوصِي طلابه بحفظها، ومنها قصيدةُ أبي إسحاقِ الإليري رحمة الله (....-٤٦٠هـ)،
وفيها:

أبا بكرٍ دعوتُكَ لو أجبتَا إلى ما فيه حظُّكَ إن عقلتَا
إلى علمٍ تكونُ به إماماً مُطاعاً إن نهيتَ وإن أمرتَا
وتجلُّو ما بعينِكَ من عشاها ونهديكَ السبيلَ إذا ضللتَا
وتحمِلُ منه في ناديكِ تاجاً ويكسوكَ الجمالَ إذا اغتربتَا
ينالُك نفعُهُ ما دمتَ حيّاً ويبقى ذخرُهُ لك إن ذهبْتَا

ومنها أبياتُ الإمامِ محمود بنِ عمرِ الزمخشريِّ رحمة الله (٤٦٧-٥٣٨هـ):

سَهْرِي لَتَنْقِيحِ الْعُلُومِ الَّذِي مِنْ وَصْلِ غَانِيَةٍ وَطَيْبِ عِنَاقِ
وَتَمَائِلِي طَرِباً لِحُلِّ عَوِيصَةٍ أَشْهَى وَأَحْلَى مِنْ مُدَامَةِ سَاقِ
وَصَرِيرِ أَقْلَامِي عَلَى أَوْرَاقِهَا أَحْلَى مِنَ الدُّوْكَاءِ وَالْعُشَّاقِ
وَأَلْدُّ مِنْ نَقْرِ الْفَتَاةِ لِدُفِّهَا نَقْرِي لِأَلْقِي الرَّمْلَ عَنْ أَوْرَاقِي
يَا مَنْ يُحَاوِلُ بِالْأَمَانِي رُتْبَتِي كَمْ بَيْنَ مَسْتَفِيلٍ وَأَخْرَ رَاقِي
أَبَيْتُ سَهْرَانَ الدُّجَى وَتَبِيئَتُهُ نوماً وَتَبْغِي بَعْدَ ذَاكَ لِحَاقِي

ومنها أبياتٌ من لاميةِ الإمامِ ابنِ الوردي رحمة الله (٦٩١-٧٤٩هـ):

اطلبِ العلمَ ولا تكسلُ فما أبعدَ الخيرِ على أهلِ الكسلِ
واحتفلُ للفقهِ في الدينِ ولا تشتغلُ عنه بمالٍ وحوُلِ
لا تقلُ قد ذهبْتُ أربابُهُ كلُّ مَنْ سارَ على الدربِ وَصَلِ

في ازديادِ العِلْمِ إرغامُ العِدَا وَجَمَالُ العِلْمِ إِصْلَاحُ العَمَلِ
جَمَلُ المنطِقِ بالنحوِ فمنْ يُحْرَمُ الإعرَابَ في النطقِ اخْتَبَلُ
ومنها:

تَعَلَّمَ فليسَ المرءُ يولدُ عالمًا وليسَ أخو عِلْمٍ كَمَنْ هو جاهلٌ
وَإِنَّ كَبِيرَ القومِ لا عِلْمَ عنده صَغِيرٌ إِذَا التَّفَتَّ عليه المحافلُ
وَإِنَّ صَغِيرَ القومِ والعِلْمُ عنده كَبِيرٌ إِذَا رُدَّتْ إليه المسائلُ
ومنها:

العِلْمُ نورٌ وسراجٌ يُقْتَبَسُ صاحبه مُكْرَمٌ حيثُ جَلَسَ
مَنْ فَاتَهُ العِلْمُ تَطَاطَاً وانتكسُ شَتَّانَ ما بينَ حمارٍ وفَرَسِ
ومنها - في التحذيرِ من الجهلِ - :

إِنَّ الخَلِيَّ عن العِلْمِ مَقَامُهُ عِنْدَ النَّعَالِ له صُمُوتُ الأخرسِ

وكثيراً ما كان الشيخُ يردُّ قولَ الإمامِ الشافعيِّ رحمه الله (١٥٠ - ٢٠٤هـ):
«وَدِدْتُ أَنْ الخَلْقَ يتعلَّمُونَ هذا العِلْمَ، ولا يُنسَبُ شيءٌ إليَّ منه».

وكما كان الشيخُ من أوائلِ من يحضُرُ للمسجدِ لأداءِ دروسِهِ، فقد كان آخرَ
من ينصرفُ منه، وكان يأمرُ طلابه بالانصرافِ في شؤونِهِم، وينهاهم عن الوقوفِ
والتجمعِ أمامَ المسجدِ لأحاديثِ جانبيةٍ؛ كي لا يؤدِّي تصرُّفُهُم إلى إيذاءِ جيرانِ
المسجدِ، فينصرفُ الشيخُ مطمئناً أنَّ طلابه انصرفوا في حفظِ اللهِ وكلاءِته.

وقد كان الشيخُ يحترِّمُ كتبَ العِلْمِ كثيراً، ويُعلِّمُ طلابه طريقةَ التعاملِ
معها، فكان يأمرُهُم أَنْ ينظفوها بمسحِها لا بضربِها، وينقلُ عن الشيخِ صالحِ بنِ

محمد السَّعَد رحمه الله (١٢٧٥ - ١٣٧٠ هـ) أنه رأى رجلاً يضربُ كتاباً؛ ليزيلَ الغبارَ عنه، فقال له: «ما الذي أَوْجَبَ على الكتابِ حدَّ الجلد»؟ وكان ينهاتهم أن يبالموا في فتحها مبالغَةً تؤدِّي إلى تَفَكُّكِ أوراقها، وكان ينهاتهم أن يُبَلِّلُوا أصابعهم بريقهم لتيسيرِ تصفُّحِ أوراقها، بل كان لا يرضى لأحدهم أن يقول: «ضع الكتاب»، بل يأمرهم أن يُحسنوا اختيارَ ألفاظهم، بأن يقولوا: «ارفع الكتاب»، وكان يَخُصُّ كتابَ الله بمزيدٍ من المبالغة في الإكرام والتعظيم.

بل بلغ من احترام الشيخ لكتبِ العلم أنه كان ينزعجُ إذا وقعت فيها أخطاءٌ مطبعية، تستلزمُ شطبَ الكلمة أو العبارة بالقلم، فلما اكتشف تلميذه الشيخ د. أحمد بن عبد اللطيف البراهيم العرفج طريقةً لحكِّ الخطأ حكاً رقيقاً، ثم تصحيحه بدونِ شطب، فرح فرحاً واضحاً، وصار يسمِّي تلميذه الذي اكتشف هذه الطريقة بالطبيب الجراح.

ولما كثرَ طلابُ الشيخ كثرةً واضحةً أخذَ يوزعُهم في حلقاتٍ حسبَ مستوياتهم العلميَّة والعُمريَّة، وكان يستعينُ بطلابه المتمكِّنين في تدريسِ الطلابِ المستجدين، ويستشيرُهم في الكتبِ العلميَّة المناسبةِ لهم، ثم كانوا يجتمعون ليلةً واحدةً في الأسبوعِ في درسٍ موحَّدٍ في السيرة النبوية.

وبعد أن قطعَ الشيخُ مع طلابه شوطاً جيداً في العلم، ونبغَ كثيرٌ منهم في تدريسِ العلوم الشرعية واللُّغوية، وحفظِ منظوماتها الشعريَّة، والإمامة والخطابة، كان يُشيدُ بهم في مجالسه الخاصة والعامة، ومن أمثلة ذلك أنه:

• أشاد بأحدِ طلابه في مجلسٍ عامٍّ عندما أتته حفظُ البهجة الوردية

(٥٢٨٤ بيتاً).

• أثني أماً أهله وأولاده على أربعة من طلابه؛ لأنهم ملؤوا أوقانتهم بالتدريس.

• ابتهج بتلميذه الشيخ د. محمد بن إبراهيم بو عيسى العمير أماً زائريه عندما خطب أول خطبة عيد.

• استمع لتلميذه الشيخ د. محمد بن عبد الله الدوغان وهو يُلقِي كلمةً في السيرة النبوية، فأعجب بها، وأشاد بها في دروسه ومجالسه.

• مدح أربعة إخوة من طلابه على اجتهادهم في طلب العلم، وبلوغهم مبلغاً عالياً فيه، وقدرتهم على تدريس كتبه، وهم الإخوة المشايخ عبد اللطيف وأنور وطلال ومشاري أبناء محمد البراهيم العرفج.

• ضرب مثلاً على تقديم العلم على كلِّ مطلوبٍ بتلميذه الشيخ عبد اللطيف بن محمد البراهيم العرفج عندما واصل حضورَ الدرس في ثاني يومٍ من زواجه.

اغتبط بكتاب هذه السطور بقوله لصاحبه الشيخ عبد الله بن محمد العبد اللطيف: «هذا فلان الذي أخبرتك عنه».

وعموماً فقد كان الشيخ يبلغ به السرور غايته إذا رأى طلابه يتسّمون مناصب التدريس والإمامة والخطابة، بل كان يتابع دروسهم، ويصلي خلفهم، ويحضر خطبهم، ويتحفهم بنصائحه وإرشاداته، وملاحظاته وتوجيهاته.

وكان الشيخ يصف طلابه بأوصافٍ، تدلُّ على عمق معرفته بهم، ودقة تقييمه لهم، فكان يصف أحدهم بأنه سيوي، وأحدهم بأنه حلال المعضلات،

واثنين منهم بأنهما شيخاً المذهب: الرافعي والنووي، وإذا أعيتهم مسألة التفت إلى أحدهم، وقال: «قضية ولا أبا حسن لها»، وكان يتحدث عنهم بين أهله وأصحابه.

بل إن معرفة الشيخ بطلابه تعدت معرفته بتمييزهم العلمي، فكان بصيراً بتقواهم وعبادتهم، ومما يدلُّ لذلك أنَّ الشيخ تطرَّق في أحد دروسه إلى قصة القحط الذي أصاب الأحساء سنة ١٣٠٧ هـ، وأنَّ الناس قدَّموا لصلاة الاستسقاء الشيخ محمد بن أحمد العمير رحمه الله (١٢١٢-١٣١٨ هـ)؛ لورعه وتقواه، فصلَّى بهم صلاة الاستسقاء، فسقاهم الله من فورهم، ثم تأمل الشيخ في وجوه طلابه، وقال: «إذا خرجنا لصلاة الاستسقاء فسندم هذا»، وأشار إلى أحد طلابه المتصفين بمزيد التقوى وكثرة العبادة، وكرَّر الشيخ نفس الإشارة مع نفس الطالب عندما كان يُردِّد ما قاله ابن رسلان في متن الزبد:

وكان لله ولياً إن طلب أعطاه ثم زاده ممَّا أحبُّ

وذاً مرة كان الشيخ في الدرس، وكان حاضراً معه صاحبه الشيخ عبد اللطيف بن عبد الله البراهيم العرفج رحمه الله، وكانوا يقرؤون في كتاب تنبيه المغتربين للشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعراني رحمه الله (٨٩٨-٩٧٣ هـ)، فقرأوا العبارة التالية: «ومن أخلاقهم أنهم لا يفرحون بكثرة طلابهم»، فالتفت الشيخ عبد اللطيف إلى الشيخ، وقال له: «هل سمعت؟ لا تفرح بكثرة طلابك»، فابتسم الشيخ والطلاب، ثم قال الشيخ: «بل سأفرح بطلابي»، وكان يقصد أنه يفرح بتعلمهم وانتفاعهم، ولم يقصد مجرد المفاخرة بكثرتهم.

وكان من عادة الشيخ في ترسيخ قيمة العلم في نفوس طلابه أنه كان يُكرِّم

العلماء وطلاب العلم الذين يزورونه غاية الإكرام، وكان يبادر بسؤالهم عن أنشطتهم العلمية من تعلم وتعليم، فإذا أخبروه عن نشاط دؤوب تهلل وجهه، وعلاه الشكر، وأسفر عن ابتسامة عريضة، وأعقبها بدعوات خالصة، أما إن أخبروه عن فتور في النشاط العلمي، وإعراض الشباب عنه، دخله هم وغم، وكأنه أُصيب في نفسه وأهله، ثم يحثهم على بذل الجهد؛ لإحياء العلم في نفوس الشباب.

وكان شعورُ الحزن والأسى يعتري الشيخ أيضاً إذا لم يجد في أبناء وأحفاد العلماء من يخلفهم في تحمّل العلم وأدائه، فيسأل عن أسباب عزوفهم عن العلم، ويغتنم الفرصة ليثّ شجونه لهم، ويذكرهم بأبائهم وأجدادهم، ويحثهم على مواصلة نهجهم، ويبعث الروح في مدارسهم.

بل كان الأمر يصل إلى حدّ البكاء عندما يتسرب من الدرس طالب نابه، كان الشيخ يرى فيه اجتهاداً، ويتوسّم فيه نبوغاً، فقد ذرفت عيناه عندما انتقل كاتب هذه السطور للدراسة الجامعية خارج الأحساء كما أخبرني بذلك ابنه الشيخ عبد العزيز.

وكان الشيخ يُعظّم شأن العلماء، وخصوصاً المتقدمين منهم، فكان يكرّر حديثه وإعجابَه عن سعة علم الإمام النووي رحمه الله (٦٣١-٦٧٦هـ) عند قوله في مقدمة شرحه لصحيح مسلم: «فقد استخرتُ الله تعالى الكريم، الرؤوف الرحيم، في جمع كتاب، شرّحه متوسط بين المختصرات والمبسوطات، لا من المختصرات المخلات، ولا من المطوّلات المملات، ولولا ضعف الهمم وقلة الراغبين وخوف عدم انتشار الكتاب لقلّة الطالبين للمطوّلات، لبسطته

فبلغتُ به ما يزيدُ على مئةٍ من المجلدات، من غيرِ تكرارٍ ولا زياداتٍ عاطلات، بل ذلك لكثرةِ فوائده، وعِظَمِ عوائده، الخفياتِ والبارزاتِ».

وبلغَ الشيخَ أنَّ السيدَ محمدَ المنتصرَ الكتانيَّ المغربيَّ المالكيَّ رحمه الله (١٣٣٢-١٤١٩هـ) فسَّرَ القرآنَ الكريمَ في عشرينَ سنةً، بعضُه في الحرمِ المكي، وبعضُه في الحرمِ المدني، ثم ختمَه في الحرمِ المكيِّ عند بابِ الملكِ عبدِ العزيز، وقال -ممتنًا بفضلِ الله عليه-: «والآنَ أقدِّمُ السادةَ الشافعيةَ، وأسجدُ سجدةَ الشكر»، فسجدَ، وسجدَ الناسُ، وكان الشيخُ حاضرًا، فسجدَ معهم، وكان يتعجبُ من سعةِ علمه، ويقول: «عشرونَ سنةً وهو يفسرُ القرآنَ، ما هذا العلمُ الواسعُ»، وكان للعلماءِ الشناقطةِ سهمٌ وافرٌ من إعجابِه ومدحِه؛ لقوةِ ذاكرتهم واتساعِ حفظهم.

وبالجملةِ فقد كان الشيخُ شديدَ الحبِّ للعلمِ والعلماءِ، فملاً حياتهَ كلَّها تعلُّماً وتعليمًا، وقراءةً وإقراءً، فكان شعارُه الموافقةَ على أيِّ درسٍ، وفي أيِّ وقتٍ، ومع أيِّ عددٍ، فكان ينتظرُ تلميذهَ الشيخَ د. خالد بن محمد الدوغان بعد صلاةِ الظهرِ إذا رجعَ من مدرستِه في الثانوية، و ينتظرُ تلميذهَ الشيخَ عبد الحميد بن عبدالرحمن النعيم بعد صلاةِ العشاء؛ ليُصحَّحَ لهما قراءةَ القرآنِ الكريمِ، وكان يُمضي سنينَ في تدريسِ طالبٍ واحدٍ، وقد أشفقَ عليه طلابُه من هذا العناء، فقلتُ له ذاتَ يومٍ: «يا شيخنا، ألا تستريحُ؟» فقال كلمةً -ذهبتُ مثلاً:- «يا بُنيَّ، تعبي في راحتي، وراحتي في تعبي».

بل بلغَ الأمرُ بالشيخِ أنه قال: «لو تمكنتُ لسافرتُ بالقطارِ إلى الدمامِ مرتينِ في الأسبوعِ لتدريسِ الطلابِ»، وكان الذي دفعه إلى هذا القولِ أن بعضَ طلابِه في الدمامِ قطعوا مرحلةً جيدةً في تعلُّمِ العلومِ الشرعية، وصاروا مؤهلينَ

للتدريس، وكان ينتظر منهم القيام بهذه المهمة، ولكن حالت دون رغبته شواغلهم ومسؤولياتهم، وتبعد الدمام عن الأحساء مسافة مئة وستين كيلاً.

بل إنَّ الشيخ قال مراراً لتلميذه الشيخ د. أحمد بن عبد اللطيف البراهيم العرفج: «يجب أن يذهب أحدنا إلى الدمام؛ لفتح الدروس للطلاب، فإمّا أن تذهب أنت أو أذهب أنا»، فأجابه تلميذه: «يا شيخنا، لست أهلاً لأن أكون شيخاً في الدمام، وفي نفس الوقت فإننا لا نستغني عنك».

وقد كان الشيخ يعتقد اعتقاداً جازماً أن نشر العلم من أعظم الجهاد في هذا العصر المليء بالفتن الناشئة من استفحال الجهل البسيط والمركب، وقد صرّح الشيخ بهذا عندما سأله بعض طلابه عن الجهاد في هذا العصر، فقال لهم: «وهل الجهاد الحقيقي إلا ما نحن فيه؟! ثم أكمل قائلاً: «احرصوا على الشباب، أحضروهم إلى دروس العلم، فهذا أكبر جهاد في هذا الزمن».

وعندما بلغ الشيخ من الكبر عتياً، وعجز عن تعليم الطلاب، اعتزل في بيته عن حلقات التعليم، ولكنه لم يترك مطالعة كتب العلم، فقرأ صحيح البخاري، ولما ختمه دعا طلابه إلى وليمة في بيته، وعقد مجلساً مباركاً لقراءة السيرة النبوية.

وتلك كانت عادة الشيخ في جميع مراحل حياته، فكان إذا استقر في منزله لا يفتأ عن قراءة القرآن الكريم، ومطالعة الكتب في العلوم المختلفة، فكان يقرأ في كتب التفسير والحديث والسيرة والفقه، وقد زرته ذات يوم في منزله في حي الكوت، فلما طرقت الباب خرج الشيخ وهو ممسك كتاباً في يده، وذكر تلميذه وسبطه الشيخ باسم بن أحمد النعيم أنه كان يرى في كتب جدّه الشيخ أوراقاً صغيرة لمعرفة مواقف القراءة، وأن بعض هذه الكتب حديثة الطباعة، الأمر الذي يؤكد أنه كان ملازماً للكتاب إلى آخر حياته، وقد

صَدَقَ ابْنُهُ د. عَبْدُ اللَّهِ فِي وَصْفِهِ بِأَنَّهُ عَاشَ حَيَاتَهُ بَيْنَ الْكِتَابِ وَالْمِحْرَابِ.

وهكذا قضى الشيخ حياته كلها للعلم: تَعَلَّمَ وِعَمَلًا وَتَعَلِيمًا، فصار صِنُوًّا لِلْإِمَامِ أَبِي الْوَفَاءِ ابْنِ عَقِيلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٣١-٥١٣هـ) بقوله: «عصمني الله في شبابي بأنواع من العصمة، وقصّر محبتي على العلم، وما خالطت لَعَابًا قَطُّ، ولا عاشرتُ إلا أمثالي من طلبة العلم، وأنا في عَشْرِ الثمانينَ أجدُ من الحرصِ على العلمِ أشدَّ مما كنتُ أجدُه وأنا ابنُ عشرين».

السَّنَدُ الْعِلْمِيُّ:

ونتيجةً لهذا النشاطِ العلميِّ فقد اتصلَ السَّنَدُ الْعِلْمِيُّ عموماً وسندُ المذهبِ الشافعيِّ خصوصاً عن طريقِ الشيخِ أحمدَ بنِ عبدِ الله الدوغان، عن عددٍ من العلماءِ منهم: الشيخُ محمد بن حسين العرفج والشيخُ أحمد بن محمد العلي العرفج والشيخُ عبد الله بن عبد اللطيف العمير، عن عددٍ من العلماءِ منهم: الشيخُ حسين بن عبد الله الفلاح والشيخُ محمد بن أحمد العمير والشيخُ عبد الرحمن ابن عبد الله العمير، عن الشيخِ عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد سعيد العمير، عن عددٍ من العلماءِ منهم: الشيخُ محمد بن أحمد العثمان والشيخُ عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن حسين العدساني والشيخُ عبد اللطيف بن عبد الرحمن ابن خليفة النعيم، عن عددٍ من العلماءِ منهم: الشيخُ محمد سعيد بن عبد الله العمير والشيخُ أحمد بن محمد العثمان والشيخُ حسين بن محمد بن حسين العدساني والشيخُ عبد الرحمن بن خليفة النعيم، عن عددٍ من العلماءِ منهم: الشيخُ عبد الله ابن محمد العبد اللطيف والشيخُ محمد بن حسين العدساني، عن عددٍ من العلماءِ منهم: الشيخُ محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن ناصر المفتي والشيخُ حسين

ابن محمد بن مبارك العدساني، عن عددٍ من العلماء منهم: الشيخُ عبد اللطيف بن محمد بن ناصر المفتي وابنُ عمِّه الشيخُ عبد الرحمن بن عبد الله بن ناصر المفتي، عن عددٍ من العلماء منهم: الشيخُ محمد بن ناصر المفتي وأخوه الشيخُ عبد الله بن ناصر المفتي والشيخُ محمد بن عثمان بن جلال الحكيم.

ثم عن الشيخِ علي بن أبي بكر بن الجمال، عن السيدِ عمر بن عبد الرحيم الحسيني الحسيني البصري المكي، عن عددٍ من العلماء منهم: شهابُ الدين أحمد بن قاسم العبادي وشمسُ الدين محمد بن أحمد الرملي، الأول - أي العبادي - عن شهابِ الدين أحمد بن حجر الهيثمي والثاني - أي الرملي - عن والده شهابِ الدين أحمد بن حمزة الرملي، كلاهما عن شيخِ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري، عن عددٍ من العلماء منهم: جلالُ الدين محمد بن أحمد المحلي والحافظُ شهابُ الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الأول - أي المحلي - عن زينِ الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي والثاني - أي العسقلاني - عن برهانِ الدين إبراهيم بن أحمد التنوخي، الأول - أي العراقي - عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن الخباز الأنصاري والثاني - أي التنوخي - عن علاءِ الدين علي بن إبراهيم ابن العطار، كلاهما عن الإمامِ محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، عن عددٍ من العلماء منهم: إسحاق بن أحمد بن عثمان المغربي ثم المقدسي وعبدُ الرحمن بن نوح بن محمد بن إبراهيم المقدسي ثم الدمشقي وعمرُ بن أسعد بن أبي غالب الربيعي، عن أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان - ابنِ الصلاح -، عن والده أبي القاسم عبد الرحمن بن عثمان بن موسى، وعنه تفرعت طريقتا العراقيين والخراسانيين.

أما العراقيون فعن شرفِ الدين أبي سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون

الموصلية، عن القاضي أبي علي الحسن بن إبراهيم الفارقي، عن الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، عن القاضي أبي الطيب طاهر بن عبد الله الطبري، عن أبي الحسن محمد بن علي بن سهل بن مصلح الماسرجسي.

وأما الخراسانيون فعن أبي القاسم عمر بن محمد الجزري ابن البزري، عن أبي الحسن علي بن محمد إلكيا الهراسي وحنة الإسلام أبي حامد محمد ابن محمد الغزالي، عن إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني، عن والده ركن الإسلام أبي محمد عبد الله بن يوسف ابن عبد الله، عن أبي بكر عبد الله بن أحمد القفال المروزي الصغير، عن أبي زيد محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد المروزي.

ثم اجتمعت الطريقتان في أبي إسحاق إبراهيم بن محمد المروزي، عن القاضي أبي العباس أحمد بن عمر بن سريح البغدادي، عن أبي القاسم عثمان ابن سعيد بن بشار الأنماطي، عن أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني، عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي، رحمهم الله جميعاً.

الله يجمعنا بسائرهم غداً في جنة الفردوس يوم لقاء
ويقبلُ عشرتنا ويقبلُ عذرنا ويحلُّنا بمنازل الشهداء

* * *

الفصل السادس

الشيخ المرَبِّي

يُدرِكُ العِلْمَاءُ الذِينَ يَقْتَسِبُونَ مِنْ مِشْكَاتِ النُّبُوَّةِ أَنَّ العِلْمَ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي صَاحِبَهُ لِلفُوزِ وَالنَّجَاةِ، بَلْ رَبَّمَا كَانَ حُجَّةً عَلَى صَاحِبِهِ إِنْ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ، وَيُوقِنُونَ أَنَّ ثَمْرَةَ العِلْمِ هِيَ تَزْكِيَةُ النَفْسِ وَصَلَاحُ القَلْبِ، مُسْتَمِدِّينَ فَهْمَهُمْ مِنْ قَوْلِ اللّٰهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وَمِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»، رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَحْمَدٌ وَابْنُ مَاجَه.

وَمِنْ هَذَا المَنْطَلَقِ فَقَدْ نَهَضَ الشَّيْخُ بِأَعْبَاءِ تَرْبِيَةِ طُلَابِهِ كَمَا نَهَضَ بِأَعْبَاءِ تَعْلِيمِهِمْ، وَكَانَتْ غَايَتُهُ أَنْ تَسْمُوَ هِمَمُهُمْ نَحْوَ مَعَالِي الأُمُورِ وَحَسَنِ الأَخْلَاقِ وَجَمِيلِ الصِّفَاتِ، وَأَنْ يَجْعَلَ مِنْ نُفُوسِهِمْ نَفُوسًا زَكِيَّةً شَرِيفَةً، وَمِمَّا كَانَ يُرَدِّدُهُ وَيَشْرَحُهُ دَائِمًا خَاتَمَةُ مَنْظُومَةِ الزُّبْدِ:

مَنْ نَفْسُهُ شَرِيفَةٌ أَبِيَّةٌ يَرْبَأُ عَنْ أُمُورِهِ الدُّنْيَا
وَلَمْ يَزَلْ يَجْنَحُ لِلْمَعَالِي يَسْهَرُ فِي طِلَابِهَا اللَّيَالِي
وَمَنْ يَكُونُ عَارِفًا بِرَبِّهِ تَصَوَّرَ ابْتِعَادَهُ مِنْ قُرْبِهِ

فخافَ وارْتَجَى وكان صَاحِبًا لِمَا يَكُونُ أَمِيرًا أو نَاهِيَا
فكُلُّ ما أَمَرَهُ يَرْتَكِبُ وَمَا نَهَى عَنْ فِعْلِهِ يَجْتَنِبُ
فصارَ محبوبًا لِخالِقِ البَشَرِ لَهْ بِهِ سَمْعٌ وَبَطْشٌ وَبَصَرٌ
وكانَ لِلَّهِ وَلِيًّا إِنْ طَلَبَ أَعْطَاهُ ثُمَّ زَادَهُ مِمَّا أَحَبَ
وَقاصِرُ الهِمَّةِ لا يُبالي يَجْهَلُ فَوْقَ الجَهْلِ كالجَهَّالِ

كان الشيخ يُردِّدُ هذه الأبيات كثيراً، فإذا بلغَ قوله: «وقاصِرُ الهِمَّةِ لا يُبالي» أشارَ بيده إلى نفسه في تواضع وانكسار، وهو الذي بَلَغَتْ هِمَّتُهُ مبلغاً لم يُدرِكْهُ أوْلُو العزمِ والقوة، فقد امتلأَ يومُهُ بالقرآنِ والأذكارِ، والصلاةِ والقراءة، والتعلُّمِ والتعليمِ، إلى آخِرِ حياتِهِ، وربما زادتْ دروسُهُ اليومية على عشرةِ دروسٍ.

كان الشيخُ قدوةً متكاملةً الصفاتِ، ومتماسكةً الأركانِ، فقد كان لطلابِهِ شيخاً كريماً، وأباً رحيماً، وأخاً قريباً، وسَلَكَ في تربيتِهِم طرقاً متعددة، أبرزُها وأَعْلَاهَا وأَعظَمُها القدوةُ الحَسَنَةُ، فقد كان الشيخُ يَعْلَمُ أَنَّ التربيةَ بلسانِ الحالِ أبلغُ مِنَ التربيةِ بلسانِ المقالِ، فقد قال اللهُ عزَّ وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقيل: «حالٌ شخصٍ في ألفٍ أعظمُ من مقالِ ألفٍ في شخصٍ».

فلم يكن الشيخُ بحاجةً إلى أن يأمرَ طلابَهُ بالإخلاصِ في أقوالِهِم وأفعالِهِم وهم يرونَهُ أحياناً يتركُ زيارةَ العلماءِ - مع محبَّتِهِ لَهُم ورغبتِهِ في مُجالستِهِم -؛ كراهيةً أن يقولَ طلابُهُ لَهُم: «هذا شيخنا»، ولم يكنُ بحاجةً إلى أن يُرشدَهُم إلى الورعِ وهم يرونَهُ يعطي ما لا لمن صَلَّى بدلاً عنه إماماً، ولم يكنُ بحاجةً إلى أن ينصحَهُم بالتواضعِ وهم يسمعونَهُ يقولُ لَهُم: «أنا لكم كالميتةِ للمُضطرِّ»،

وقد تقدّمت الإشارةُ إلى كثيرٍ من الأمثلة الدالة على الأخلاقِ العظيمة التي أنصَفَ بها.

وقد كان الشيخ - كأبي وارثٍ محمديٍّ - يغرُسُ في نفوسِ أهله وطلابه حُبَّ النبي ﷺ واتباعِ سُنَّته، وكان يُعلِّمهم ذلك بحاله قبل مقاله، فكانت قصصُ السيرة النبوية تهزُّه هزًّا، فيتغيَّرُ لونه، وترتعدُّ فرائضه، فقد كان مرَّةً يقرأ مع زميله الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن الحسين العرفج رحمة الله في السيرة الحلبية بين العشاءين في مسجد العمير في حيِّ الكوت، وأثناء القراءة رَفَعَ الشيخُ الكتابَ، وأخفى وجهه عن ناظره، ثم اهتزَّ جسده هزًّا بينًا، فلما هدأ أنزل الكتابَ برفق، وكان شيئاً لم يكن، فتمكَّنَ الشيخُ أن يُخفيَ إلى حدِّ ما البكاء الذي أصابه.

لكنَّ الموقفَ التَّالي لم يتمكَّنَ الشيخُ فيه من إخفاءِ حاله، بل إنَّه كادَ ينهارُ بسببه، فقد كان الشيخُ في درسه مع طلابه في مسجد الحليبي في حيِّ الخالدية، وكان القارئُ يقرأ صحيحَ مسلم بشرحِ النووي، فجاءت قصةُ النبي ﷺ عندما اعتزلَ نساءه شهراً، وأنَّ سيدنا عمرَ بن الخطابِ رضي الله عنه استأذنَ عليه في المشربة، فدخلَ على النبي ﷺ وهو مضطجعٌ على حصير، فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصيرُ قد أثرَ في جنبه، فنظرَ في خزانته ﷺ، فلم يرَ إلا قبضةً شعيرٍ نحو الصاع، ومثلها قرطاً في ناحيةِ الغرفة، فابتدرته عيناه، فقال ﷺ: «ما يُبيك يا بن الخطاب؟» فقال: يا نبيَّ الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصيرُ قد أثرَ في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك قيصرٌ وكسرى في الثمارِ والأنهار، وأنت رسولُ الله ﷺ وصفوته، فقال ﷺ: «يا بن الخطاب، ألا ترضى أن تكونَ لنا الآخرةُ ولهم الدنيا؟» فقال: بلى، انتهى، ففعلتُ هذه القصةُ

في الشيخ فعلها، وكأني بروحه طارت حتى رفرت حول تلك الحُجرات، وانتشقت من عير تلك النَّفحات، فأخذ الشيخ يضربُ فخذَه بيده ضرباً عنيفاً حتى حُشي أن يخرج منها الدم، وكان هذا من أعظمِ المواقف التي انهارت فيها قُوَى الشيخ، فحاول جاهداً أن يُخفي حاله، ولكنَّ الوارد كان أقوى منه.

ولقد بلغ حبُّ الشيخ للنبي ﷺ وإجلاله له أنه كان ينصح طلابه إذا كانوا في الحرم النبوي، وأرادوا الانصراف منه بعد أداء صلواتهم، أن لا يُلقوا أحذيتهم على الأرض إلقاءً، بل كان ينصحهم أن يضعوها على الأرض وضعاً رقيقاً؛ احتراماً لموضع قدمٍ قد تكون وطئته أقدام رسول الله ﷺ.

وكان الشيخ يُجلُّ صحابة النبي ﷺ وآل بيته وزوجاته إجلالاً عظيماً، فكان يترضى عنهم، ويذكرهم بألفاظِ السيادةِ والتعظيم، وكثيراً ما كان يستشهد بأبياتٍ في منظومة الزُّبد:

أرسل رُسُلَهُ بِمُعْجَزَاتٍ	ظاهرةٍ لِلخَلْقِ باهراتٍ
وخصَّ من بينهم محمداً	فليس بعده نبيُّ أبداً
فضَّله على جميع من سواه	فهو الشَّفيعُ والحبيبُ للإله
وبعدَه فالأفضلُ الصِّديقُ	والأفضلُ الثاني له الفاروقُ
عثمانُ بعده كذا عليُّ	فالسِّتَةُ الباقونُ فالبَدْرِيُّ

وكان الشيخ يمنع من التعرض للخلاف الذي جرى بينهم؛ محبةً منه لهم، وإعذاراً للمجتهد منهم، وأتباعاً لهدي السلف في الكفِّ عما شجر بينهم، وكان يُردُّ بيتاً في منظومة الزُّبد:

وما جرى بين الصحابِ نسكُتُ عنه وأجر الاجتهادِ نُشِبُتُ

وكان الشيخ يَخُصُّ سيدنا أبا بكرٍ الصديق رضي الله عنه بمزيدٍ من التعظيم والتبجيل، فلا يكادُ يذُكُرُهُ إِلَّا وَتَخَنُّقُهُ عِبْرَةٌ بِلِ عِبْرَاتٍ، وَتَدْرِفُ عَيْنَاهُ دَمْعَةً بِلِ دَمَعَاتٍ، فَمَا يَسْتَطِيعُ إِكْمَالَ مَا يُرِيدُ الْإِفْصَاحَ عَنْهُ، وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ عَلَى ذَلِكَ الْقِصَّةُ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَ الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ وَعَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِنْدَمَا تَحَاوَرَا، فَأَغْلَظَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَمَرَ، ثُمَّ نَدِمَ فَاعْتَذَرَ مِنْهُ فَلَمْ يَقْبَلْ، فَأَخْبَرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ إِنَّ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَدِمَ عَلَى رَفْضِهِ مَعْدِرَةَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَآتَى مَنْزَلَهُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَآتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلَ وَجْهَ النَّبِيِّ ﷺ تَظْهَرُ عَلَيْهِ عِلْمَاتُ الْغَضَبِ، وَأَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟» مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوْذِيَ بَعْدَهَا، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، فَقَدْ كَانَ الشَّيْخُ يَبْدَأُ الْحَدِيثَ، فَتَخَنُّقُهُ الْعِبْرَةُ فِي مُنْتَصَفِهِ أَوْ عِنْدَ نَهَائِهِ، فَإِذَا تَمَكَّنَ مِنْ إِكْمَالِهِ كَانَتِ الْكَلِمَاتُ الْأَخِيرَةُ تَخْرُجُ مِنْهُ مُخْتَنِقَةً فِي حَنْجَرَتِهِ، تُصَاحِبُهَا دَمُوعُ الْمَحَبَّةِ وَالشُّوقِ، وَتَعْلُو وَجْهَهُ حُمْرَةُ الْإِنْفِعَالِ وَالْإِضْطِرَابِ.

وَمِنَ الْمَوَاقِفِ الْمَتَكَرِّرَةِ فِي تَأَثُّرِ الشَّيْخِ بِشَخْصِيَّةِ سَيِّدِنَا أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُكْرِّرُ الْمَحَاوِرَةَ الَّتِي دَارَتْ بَيْنَ الشَّيْخَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي أَيَّامِ الرَّدَّةِ، فَقَدْ قَالَ عَمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ: «يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ، تَأَلَّفَ النَّاسَ، وَارْفُقْ بِهِمْ»، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: «رَجَوْتُ نُصْرَتَكَ وَجِئْتَنِي بِخُدْلَانِكَ، جَبَّارٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خَوَّارٌ فِي الْإِسْلَامِ؟ أَيْنُقْصُ الدِّينَ وَأَنَا حَيٌّ؟» فَكَانَ يَخْتِمُ الْكَلِمَاتِ مَمْرُوجَةً بِالذَّمَعَاتِ وَالْعِبْرَاتِ.

لقد كان لكلمات سيدنا أبي بكر رضي الله عنه على لسان الشيخ وهج خاص، وربما كانت أحد دوافعه الكبرى للنهوض الجاد بمهمة التربية والتعليم، وتحمل التعب والمشقة في هذه السبيل، وبذل النفس والنفس لتربية الجيل، وكأنه يقول: «أينقص العلم ويثبت الجهل وأنا حي؟!»

وكان لأُم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها عند الشيخ نصيب وافر من المحبة والإجلال، ولا يكاد يذكرها إلا ويغلبه البكاء، فيتوقف قليلاً، ثم يحاول إكمال ما يريد قوله، فينتابه البكاء ثانية، ومن الأمثلة على ذلك أنه كان يروي - بهيبة وإجلال - أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ، وقال له: «يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»، رواه الشيخان.

وعموماً، فقد كان للصحابة رضي الله عنهم في قلب الشيخ أجل مكانة وأعلى رتبة، وقد ذكرت إحدى بناته أنها كانت تتحدث معه عن زيارة الصديق والفاروق لأُم أيمن رضي الله عنهم بعد وفاة النبي ﷺ، وفيه أن أبا بكر رضي الله عنه قال لعمر رضي الله عنه: «انطلق بنا إلى أم أيمن نرورها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها»، فلما انتهيا إليها بكت، فقالا لها: «ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ»، فقالت: «ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ»، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء»، فهيجت على البكاء، فجعلان يبكيان معها، رواه مسلم وأحمد وابن ماجه، فبكى الشيخ بكاءً شديداً حتى كاد قلبه ينقطع.

وذكرت إحدى بناته أيضاً أنّ الشيخ تَعَشَى ذات ليلة، وكان عشاؤه لَبَنًا وخبزاً رقيقاً، وفجأة وضع يديه على وجهه، وبكى بكاءً شديداً، فقالت له - وهي فزعةٌ -: «ماذا بك»؟ فقال: «قال أبو طلحة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: «أحبُّ مالي إليَّ بِيْرْحَاءٍ، فهي لله»، وذهب إلى أهله وقال: «قوموا، فقد بعثها الله»، وكان في فم أطفاله رُطْبٌ بُسْرٌ، فأخرجَه مِنْ فِيهِمْ، ونحن نُسْرِفُ في الأكل، وهذه الخيراتُ عندنا».

وجلس الشيخ مع طلابه ذات ليلة من رمضان بعد أداء صلاة التراويح، وبدأ أحد طلابه يذكر له طرفاً من أحوال السلف في رمضان، فوضع الشيخ يديه على وجهه، وأخذ يبكي ويتفص من شدة البكاء.

وقد بلغ حبُّ الشيخ للصحابة رضي الله عنهم وسيرتهم وقصصهم أنه كان يجد فيها أنسه وسلوته، ومتعته ونشوته، فقد ذكر ابنه د. عبد الله أنّ الشيخ أحضر له صحيح البخاري ذات يوم، وفتح صفحة معينة من صفحاته، وقال له: اقرأ لي بصوت مرتفع لأسمع، فقرأ ابنه قصة ذات الوشاح، وملخصها أنّ أمةً سوداءً لحيتي من العرب، فأعتقوها، فكانت معهم، فخرجت صبيةً لهم عليها وشاحٌ أحمر، فوقع منها، فمرت به حداة، فحسبته لحماً فخطفته، فأخذوا يبحثون عنه فلم يجدوه، فاتهموها به، فأخذوا يفتشونها حتى فتشوا قبلها، فمرت الحدأة فألقته، فوقع بينهم، فقالت: «هذا الذي اتهمتموني به وأنا منه بريئة»، ثم جاءت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت، فكان لها خباءٌ في المسجد، فكانت تأتي عائشة رضي الله عنها، فتحدث معها، فلا تجلس عندها مجلساً إلا قالت:

ويومَ الوشاحِ من أعاجيبِ ربِّنا ألا إنَّه من بلدةِ الكفرِ أنجاني

ومن العاداتِ الحسنَةِ التي كان الشيخُ يكرِّرُها ترَدُّدهُ المستمرُّ على مسجدِ

جَوَاثَا الَّذِي أُقِيمَتْ فِيهِ ثَانِي جُمُعَةٍ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْجُمُعَةِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَدْ كَانَ يَقْصِدُهُ مَعَ طُلَابِهِ؛ لِيُؤَدِّيَ فِيهِ دَرَسًا مِنْ دُرُوسِهِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي كَانَ يُقِيمُهَا فِي صَبَاحِ يَوْمِ الْخَمِيسِ عِنْدَمَا كَانَ يَوْمَ إِجَازَةِ أُسْبُوعِي، فَيُخَبِّرُ الشَّيْخَ طُلَابَهُ أَنَّهُمْ سَيُقِيمُونَ الدَّرْسَ فِي جَوَاثَا، فَيَسْعُدُونَ وَيَسْتَعِدُّونَ، فَيَقْصِدُونَهُ مِنَ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، فَيَرَكْعُونَ فِيهِ رَكَعَاتِ الضُّحَى، ثُمَّ يَتَحَلَّقُ الطُّلَابُ حَوْلَ شَيْخِهِمْ، فَيَتَعَلَّمُونَ وَيُنْهَلُونَ وَيَرْتَشِفُونَ، فَإِذَا انْتَهَى الدَّرْسُ تَنَاوَلُوا إِفْطَارَهُمْ، وَتَبَادَلُوا الْحَدِيثَ الْجَمِيلَ، وَأَنْشَدَ بَعْضُ طُلَابِهِ مِنْ ذَوِي الْأَصْوَاتِ النَّدِيَّةِ بَعْضَ الْمَدَائِحِ النَّبَوِيَّةِ، فَإِذَا ارْتَفَعَ النَّهَارُ عَادُوا بِرِفْقَةٍ شَيْخَهُمْ بَطَانًا مِنَ الْعِلْمِ وَالتَّرَكِيَّةِ.

وَلَمْ يَكُنِ الشَّيْخُ يَقْصِدُ جَوَاثَا فَقَطْ لِإِقَامَةِ بَعْضِ دُرُوسِهِ الْعِلْمِيَّةِ فِيهِ، بَلْ كَانَ يَقْصِدُهُ مَعَ طُلَابِهِ؛ لِيَرِبَطَهُمْ قَلْبًا وَرُوحًا بِهَذَا الْمَسْجِدِ الْمُبَارَكِ الَّذِي يُعَدُّ شَامَةً بَارِزَةً فِي جَبِينِ الْأَحْسَاءِ، إِذْ إِنَّهُ شَاهِدٌ عَلَى اسْتِظْلَالِهَا طَوْعًا تَحْتَ وَارِفِ شَجَرَةِ الْإِسْلَامِ مِنْذُ مَرِحَلَةٍ مُبَكَّرَةٍ مِنْ أَيَّامِ الرِّسَالَةِ عِنْدَمَا وَفَدَتْ قَبِيلَةُ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَشَاهِدٌ عَلَى ثَبَاتِ أَهْلِهَا عَلَى الْإِسْلَامِ حِينَمَا ارْتَدَّتِ الْعَرَبُ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَانَتْ تِلْكَ الزِّيَارَاتُ الْمُتَكَرِّرَةُ تَفْعَلُ فِعْلَهَا فِي تَرْسِيخِ هُوِيَّةِ الْأَحْسَاءِ الدِّينِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ، وَتَأْكِيدِ عُمُقِهَا التَّارِيخِيِّ الْمُمْتَدَّةِ جُذُورَهُ إِلَى الْأَيَّامِ الْأُولَى لِلرِّسَالَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

لَقَدْ كَانَ الشَّيْخُ يُسَرُّ كَثِيرًا بِخَبْرِ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ، يَجِدُ فِيهِ أُنْسَهُ وَسُلُوتَهُ، وَيَتَنَشَّى طَرِبًا بِسَمَاعِ تَفَاصِيلِهِ، وَتَسْرِي فِي جَسَدِهِ عَافِيَةٌ وَنَشَاطٌ بِحَدِيثِهِ، حَتَّى صَارَ خَبَرَهُمْ شِفَاءً لَهُ وَدَوَاءً، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ:

كَرَّرْ عَلَيَّ حَدِيثَهُمْ يَا حَادِي فَحَدِيثُهُمْ يَجْلُو الْفُؤَادَ الصَّادِي

وَقَدْ كَانَ الشَّيْخُ تُعْجِبُهُ كَثِيرًا أَيْبَاتُ شَيْخِهِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صَالِحِ الْعَلْجِيِّ الْمَالِكِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَدْحِ الْأَحْسَاءِ الَّتِي ضَمَّنَهَا قَصِيدَتَهُ الْمِيمِيَّةَ فِي

بيانٍ منهجٍ علمائها^(١)، ومما جاء فيها في بيان التاريخ الأحسائي الناصع:

ضَعُوا جَهْلَكُمْ فِي غَيْرِ أَحْسَائِنَا ذِهِ فَقَدْ كَانَتْ الْأَحْسَاءُ تُحْمَى وَتُحْتَمَى
لَهُمْ نَبَأٌ أَنْبَأَ قَدِيمًا بِكُونِهِمْ إِلَى حَلَبَاتِ الْبِرِّ أَهْدَى وَأَقْوَمَ
هُمْ وَفَدُوا لِلدِّينِ حُبًّا وَرَغْبَةً^(٢) فَبَجَلَهُمْ - أَعْنِي النَّبِيَّ - وَكَرَمًا^(٣)
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ بِالْوَفْدِ مَرْحَبًا أَتُوا لَا خَزَايَا أَوْ بِهِمْ مَنْ تَدَمَّا^(٤)
وَجَاؤُوا إِلَيْهِ رَاغِبِينَ فَرَدَّهُمْ عَلَى كَرَمٍ يَتْلُونَ نُورًا مُتَمَمًا
وَقَالَ لَهُمْ إِنِّي وَطِئْتُ بِلَادِكُمْ^(٥) فَأَتَنَى عَلَيْهِمْ مُحْسِنًا وَمُفَخَّمًا
وَأَوَّلُ دَارٍ بَعْدَ طَيْبَةَ أَشْرَقَتْ مَنَابِرُهَا بِالْخُطْبَتَيْنِ^(٦) وَنِعْمَ مَا

(١) انظر كتابي المناهج الفقهية المعاصرة، فقد ذكرت فيه قصيدة العلجي مع شرحها وبيان ملاساتها.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر لعبد القيس؛ إذ أسلموا طائعين، غير كارهين، غير خزايا ولا موتورين، إذ بعض قومنا لا يسلمون حتى يُخزوا ويُتورا»، رواه أحمد.

(٣) قال رسول الله ﷺ: «إن خير أهل المشرك عبد القيس»، رواه أحمد.

(٤) قال رسول الله ﷺ لوفد عبد القيس لما أتوه: «من الوفد - أو القوم -؟ قالوا: ربيعة، فقال ﷺ: «مرحبا بالوفد - أو القوم - غير خزايا ولا ندامي»، رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي.

(٥) قال رسول الله ﷺ لوفد عبد القيس: «إني وطيئت بلادكم، وفُسيح لي فيها»، رواه أحمد، وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال لهم: «أي هجر أعز؟»، قلنا: المشقر، فقال ﷺ: «فوالله لقد دخلتها، وأخذت إقليدها - أي مفتاحها -»، رواه أحمد، وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال لهم: «إن أرضكم رُفعت لي منذ قعدتم إلي، فنظرت من أذناها إلى أقصاها، فخير تمراتكم البرني؛ يذهب الداء ولا داء فيه»، رواه الحاكم، أما قوله ﷺ عن البرني: «إنه خير تمر كرم وأنفعه لكم» فقد رواه البخاري - في الأدب - وأحمد.

(٦) قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: «أول جمعة جمعت - بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ -

وَمَا ثَبَّتْ دَارٌ سِوَاهَا وَطَيْبَةٌ وَمَكَّةُ إِذْ خَطَبُ النَّبِيِّ تَعَظَّمَا^(١)

وكان الشيخ يُرَبِّي طلابه بلسانِ حاله ومقاله على احترامِ مشايخهم وعلمائهم، والافتدائِ بهم في سَمَتِهِمْ وَهَدْيِهِمْ، وتقديمِ فتاواهم وآرائهم؛ لأنهم أقوى علمًا وأرجح رأيًا، ولأنهم أصحابُ الفضلِ عليهم في هدايتهم وتعليمهم.

ومما يدلُّ لذلك أنَّ الشيخَ كان لا يذُكُرُ مشايخه إلا بالتوقيرِ والتبجيلِ، ويذُكُرُ منِ علمهم وعبادتهم ما يُرَسِّخُ مكانتهم في قلوبِ طلابه، وكان يقتدي بهم فعلاً وتركاً، فكان يُعرِّضُ عن سَمَاعِ الدُّفِّ مع اعتقاده جوازَه؛ لأنه لم يَعهَدْ مشايخه يسمعونَه، وكان يمتنعُ عن التصويرِ الفوتوغرافي؛ لأنه أدرك مشايخه يمتنعون عنه، ولا يَرون جوازَه، وكان يحرصُ على ارتداءِ البشْتِ عند خروجه من منزله إلى آخرِ حياتِه؛ لأنه عَهِدَ مشايخه على هذا السَّمَتِ الوقورِ.

ولم يَكُنْ توقيرُ الشيخِ للعلماءِ خاصًّا بمشايخه ومن هم في رُتبتهم أو فوقهم من العلماءِ، بل كان ذلك ديدنه مع أقرانه وأصحابه، فكان يُفضِّلُهم على نفسه، ويجعلُ سهمهم أعلى من سهمه، حتى غدا هذا الأدبُ سمةً بارزةً في طلابه، فجرى في دمائهم، وصار سجيةً لهم.

فمن ذلك أنَّ الشيخَ عبد العزيز بن محمد العبيد الله كان من أقرانِ الشيخِ،

في مسجدِ عبد القيس بجُواتا من البحرين»، رواه البخاري - واللفظ له - وأبو داود.

(١) نقل الإمام النووي في شرح مسلم عن الإمام الخطَّابي قوله: «فلم يكن يُسجدُ الله تعالى في بسِطِ الأرضِ إلا في ثلاثةِ مساجد: مسجدِ مكةَ ومسجدِ المدينةِ ومسجدِ عبد القيس في البحرين، في قريةٍ يُقال لها جُواتا».

وتتلمذ معه على شيخه الشيخ عبد العزيز بن صالح العلجي في علم العربية، فلما كبر سنُّ الشيخ العلجي، وثقل عن أداء الدروس، أشار على طلاب العلم من حيِّ الكوت أن يستفيدوا من الشيخ العبيد الله، مما يدلُّ على شهادة الشيخ العلجي له بالتفوق في علم العربية، فكان الشيخُ يذكُر تلك الحادثة، ويُشيدُ بصاحبه على مسمع من طلابه.

وكان الشيخُ يُشيدُ بإتقان الشيخ محمد بن محمد الجلال في حفظ القرآن الكريم، وبالشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بو عيسى العمير في علم الفرائض، وبالشيخ محمد بن عبد الرحمن الخطيب في سرعة حلِّ المسائل الحسابية في المناسخات الطويلة رغم فقد بصره، وبالشيخ عبد العزيز بن عبد الله الدوغان في حرصه واجتهاده في طلب العلم.

وكان الشيخُ يرَبِّي طلابه على تنظيم أوقاتهم؛ لأنَّ الوقت هو العُمُر، فكان يُحدِّدُ بدايةَ الدرس بعد دخول وقت العشاء ساعة واحدة، ويستمرُّ الدرسُ لساعة واحدة أيضاً، وقد حافظ على هذا النظام طيلة حياته التعليمية.

وكان الشيخُ ينهضُ من مجلسه قبل دخول وقت الصلاة بعشر دقائق؛ ليتمكن من إدراكها مبكراً، أمَّا إذا كان في زيارة فقد كان يسأل عن الوقت المتبقي لدخول وقت الصلاة، ويسأل عن الوقت اللازم للوصول إلى المنزل، ثم ينهضُ في الوقت المناسب، بحيث يُمكنه أداء الصلاة مع الجماعة.

ومن القصص الدالة على اعتناء الشيخ بتنظيم الوقت، وتربية طلابه عليه، أنه رتَّب درساَ لاثنين من طلابه، وهما الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الخطيب، والأستاذ فيصل بن عبد الله بن عبد الرحمن الخطيب، في منزله الساعة العاشرة

والنصف صباحًا يومًا من أيام الأسبوع، فكانا يأتيان قبل الموعدِ بعدة دقائق، فيجدان الشيخَ واقفًا يترقبُ وصولهم، وكان الشيخُ حينذاك قد بلغ التسعين من عُمره.

وذكر تلميذه الشيخُ عصام بن عبد العزيز الدوغان أنه كان يصحبُ الشيخَ كثيرًا في تنقلاته وأسفاره، فكان الشيخُ لا يُضيع وقتًا بدون فائدة، فكان يطلبُ من تلميذه إعرابَ بيتٍ أو حلَّ مسألةٍ فَرَضِيَّةٍ أو تسميعَ أبياتٍ من متن الزبد، حتى إنه سمعَ جزءَ العبادات من متن الزبد كثيرًا، ويبلغُ (٥٠٠) بيتٍ تقريبًا.

وذكر تلميذه الشيخُ يعقوب بن أحمد العلي العرفج أنَّ الشيخَ كان يزورهم في منزلهم لقراءةٍ بينه وبين والدته، فإذا تحدَّثَ معهم واطمأنَّ عليهم التفتَ إليه، وأخذ يسأله عن درسه في النحو مع الشيخِ عبد العزيز بن محمد العبيد الله في كتاب مُتَمِّمَةِ الأجرومية بحاشية الكواكب الدرية، ثم يُعطيهِ من الفوائدِ النحوية ما يناسبه ويزيده تَمَكُّنًا من هذا العلم.

وكان الشيخُ يُرَبِّي طلابه بالقدوة والأسوة على الحرصِ على صلاة الجماعة في المسجد، فقد كان مواظبًا عليها إلى أواخر أيام حياته، فكان يستعدُّ لها قبل دخول وقتها بزمنٍ يكفيه لأداء سُنتِّها القبليَّة في المسجد، ولم يكن يمنعُه عن هذا وجودُ ضيوفٍ في مجلسه، بل كان يستأذنُ منهم، وينصرفُ للاستعدادِ لمناجاة ربِّه، ولم يترك الصلاة في المسجد إلا بعد أن أقعده المرضُ والوهنُ، وشقَّ عليه الوصولُ إلى المسجدِ مشقةً بالغة.

وقد علَّم طلابُ الشيخِ مواظبته على هذه العادة، ودقَّته في المحافظة على وقته، فكانوا ينتظرونه عند بابِ منزله قبل الصلاة، فإذا خرج ركب معهم إلى

المسجد، وقد ذَكَرَ تلميذه الشيخُ أحمد بن محمد العمير أنه قصد منزلَ الشيخ ليصطحبه إلى المسجد في الوقت المعتاد لخروجه، فلم يجد الشيخ على عادته، فظنَّ أنَّ أحدَ طلابه سبقه في هذه الصحبة الطيبة، فاتَّجه نحو المسجد بسيارته، وما هي إلا لحظاتُ فإذا به يرى الشيخَ يمشي وحيداً إلى المسجد، متكئاً على عصاه، يمشي قليلاً ويتوقف قليلاً، وكان حينها في التسعين من عُمره.

ومن الأمثلة الدالة على تقديمه صلاة الجماعة في المسجد على أيِّ أمرٍ آخر أنه دُعِيَ إلى وليمة غداء، فتأخَّر أصحابُ الضيافة عن تقديم طعامهم حتى أوشك وقتُ العصرِ على الدخول، فقام الشيخُ، ونزعَ بثَّته، وجعله في مكانه؛ مُوهماً أصحابَ الضيافة أنه سيذهبُ لقضاء الحاجة؛ لئلاً يُوقعهم في حرج، ثم أشارَ لأحدِ أقاربه أو طلابه أن يتبعه، فذهب معه بسيارته إلى البيت، وأخذَ بثتاً آخرَ، وذهب إلى المسجد كعادته، وأدَّى صلاته بسُننِها الرواتبِ وأذكارها الشرعية.

وكان الشيخُ حريصاً على أن يكونَ في المسجد قبل الأذان، وقد قال لأحدِ طلابه: «هل تعرفُ عبدَ السُّوء»؟، فقال: «لا»، فقال الشيخُ: «عبدُ السُّوء هو الذي يَنتظرُ أن يُناديه مولا، فيسمعُ النداءَ، ثم يتوجَّه للمسجد».

لقد كان الشيخُ متعلقاً بصلاة الجماعةِ إلى آخرِ حياته، فكان يستيقظُ فزعاً إن فاتته أو ظنَّ فواتها، وقد ذكرتُ إحدى بناته أنه - قبلَ وفاته بستين - صلَّى الظهرَ يومَ خميس، ثم نام قليلاً، فاستيقظَ فجأةً، وأخذَ يسألُ: «هل صلَّى الناسُ؟» فقالت ابنته: «نعم»، فقال: «لماذا لم تُوقظوني للصلاة؟ لقد صلَّى الناسُ ولم أصلَّ»، فقالت له: «لقد صلَّيتَ»، فقال: «أليس اليومَ يومَ الجمعة؟» فقالت له: «اليومُ الخميس»، وفرحَ فرحاً عظيماً على أداءِ الصلاة، وحمدَ اللهَ أنها لم تفتته.

وقد كان الشيخُ محافظاً على جلسةِ الإشراقِ بعد صلاةِ الفجر، وكان يَشغُلُها بأذكارِ الصباحِ وقراءةِ القرآن، فإذا أشرقت الشمسُ وارتفعت، أَدَّى صلاةَ الضحى، وكان خلالِ جلستهِ محافظاً على مكانه الذي صَلَّى فيه صلاةَ الفجر حتى لو لم يكن مستنداً إلى شيء؛ عملاً بقولِ رسولِ الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى الغداةَ في جماعةٍ، ثم قعد يذكرُ اللهَ حتى تطلعَ الشمسُ، ثم صَلَّى ركعتين، كانت له كأجرِ حجةٍ وعمرَةٍ، تامةٌ تامةٌ تامةٌ» رواه الترمذي.

يقول تلميذه الشيخُ ماهر بن عبداللطيف الجعفري: «كان الشيخُ إذا صَلَّى الفجرَ يُلازِمُ مكانه الذي صَلَّى فيه، ولا يقومُ عنه إلى موضعٍ آخرَ حتى يُصَلِّي الضحى، فأحضرَ رجلٌ من جماعةِ المسجدِ الملازمين للشيخِ في جلسةِ الإشراقِ مسنداً متحرِّكاً، فكان يُقَرِّبه للشيخِ بعد صلاةِ الفجر، فكان الشيخُ يُسندُ ظهره إليه، وكان من وفاءِ الشيخِ أنه يدخلُ المسجدَ، فيرى ذلك الرجلَ يقرأ القرآن الكريم، فيَقَرِّبُ إليه المسندَ المتحركَ؛ ليستندَ إليه».

وقد حافظَ الشيخُ على هذه السُنَّةِ إلى أن كَثُرَتْ أوجاعُه، وصار لا يستطيعُ المكثَ في المسجدِ مدةً طويلةً، فكان يُكْمِلُ جلسةَ الإشراقِ في منزله، وكان يفعل بين العشاءين مثل ما يفعل بعد الفجر.

وقد كان الشيخُ يُكثِرُ تَرديدَ مجموعةٍ من الأبياتِ الشَّعريةِ التي يَحْمِلُ كُلُّ منها رسالةً تربويةً، منها - في التوكُّلِ على اللهِ وطلبِ التوفيقِ منه -:

رَبِّ إِنَّهُ هُدَى هَدَاكَ وَأَيَا تُكَ نُوْرٌ تَهْدِي بِهَا مَنْ تَشَاءُ

ومنها - في أهميةِ الاستقامةِ منذ الصَّغر -:

متى يَسْتَقِيمُ الظُّلُّ والعُودُ أَعْوَجُ وهل ذَهَبُ صِرْفٌ يُسَاوِيهِ بَهْرَجُ

ومِنها - في حُبِّ العلماءِ والصالحين :-

لي سَادَةٌ مِنْ عِزِّهِمْ أَقْدَامُهُمْ فَوْقَ الْجِبَاهِ

إِنْ لَمْ أَكُنْ مِنْهُمْ فَلِي فِي حُبِّهِمْ عِزٌّ وَجَاهُ

ومِنها - في ملازمةِ الفضلاءِ والصلحاء :-

بُصْحَبَتِكَ الْكِرَامُ تُعَدُّ مِنْهُمْ فَلَا تُرِينِ لغيرِهِمْ أَلُوفَا

ومِنها - في العَمَلِ بِالْعِلْمِ - قَوْلُ صَاحِبِ مَنْظُومَةِ الزُّبَيْدِ رَحِمَهُ اللهُ :

فَعَالِمٌ بِعِلْمِهِ لَمْ يَعْمَلَنْ مُعَذَّبٌ مِنْ قَبْلِ عِبَادِ الْوَثْنِ

وَكُلُّ مَنْ بغيرِ عِلْمٍ يَعْمَلُ أَعْمَالُهُ مَرْدُودَةٌ لَا تُقْبَلُ

ومِنها - في شرفِ الانتسابِ إلى الإسلامِ :-

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَتِيهَا وَكِدْتُ بِأَخْمَصِي أَطَا الثُّرَيَّا

دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا

ومِنها قَوْلُ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ رَحِمَهُ اللهُ (١٣٠-٢١١هـ) - في التذْكِيرِ بِالْمَوْتِ

وَالْآخِرَةَ :-

إِلَامَ تَسْهُو وَتَنِي وَمُعْظَمُ الْعُمْرِ فَنِي

فِيمَا يَضُرُّ الْمُقْتَنِي وَلَسْتُ بِالْمُرْتَدِعِ

ومِنها لَامِيَةُ ابْنِ الْوَرْدِيِّ رَحِمَهُ اللهُ (٦٩١-٧٤٩هـ) - في النِّصَائِحِ

وَالْمَوَاعِظِ - ، وَكَانَ يُوصِي بِحِفْظِهَا، وَمَطْلَعُهَا :

اعتزل ذكر الأغاني والغزل وقل الفصل وجانب من هزل
ودع الذكري لأيام الصبا فلايام الصبا نجم أفل
ومنها - في التزود بالعمل الصالح :-

إن لله عباداً فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلمّا علموا أنها ليست لحيّ وطانا
جعلوها لجةً واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنًا

ومع أن الغالب على الشيخ تربية طلابه بالقدوة ولسان الحال، فقد كان يسلك أحياناً طريقة التربية غير المباشرة، فكان إذا رأى خطأً من أحد طلابه، وخشي أن يحرجه بنصحه، يُخبر أحد طلابه ممن له دالة عليه؛ لينبّهه وينصحه، وأحياناً كان يتقي كتاباً، ينبّه على هذا الخطأ، فيحضره الدرس، ويطلب من أحد طلابه قراءته عليهم بدون توجيه عتاب لأي أحد من طلابه.

وما كان الشيخ يلجأ إلى طريقة التربية المباشرة، والمناصحة وجهاً لوجه، إلا قليلاً، ولكنها ممزوجة بالتلطف والترفق، الأمر الذي يدل على محبة الشيخ لطلابيه وشفقته عليهم، ومن الأمثلة على ذلك أن أحد طلابه سهر ليلة، ثم نام حتى خرج وقت صلاة الفجر، فأخبر والده الشيخ؛ لصدقة بينهما، فلمّا رأى الشيخ تلميذه نظر إليه نظرة محبة ورحمة، وردّ بيتاً من منظومة الزبد - بدون أن يزيد عليه :-

فشهوة النفس مع الذنوب موجبتان قسوة القلوب
وإن أبعد قلوب الناس من ربنا الرحيم قلب قاسي

وكان الشيخ يعاتب بعض طلابه إذا رأى منهم تقصيراً في الصلاة، وخصوصاً

صلاة الفجر، بل كان يحثهم على الذهاب للمسجد قبل الأذان، وكان يقول: «الذي يذهب للصلاة بعد أذان المؤذن كالعبد الآبق»، ويقول: «كن مثل العبد المطيع الذي يجيب سيده قبل أن يناديه».

ومن الأمثلة أيضاً أن أحد طلاب الشيخ كان حليق اللحية، ولم يرغب الشيخ أن يبادره بنصيحة مباشرة، قد تكون سبباً في انصرافه عن طلب العلم، فانتظر الشيخ مدة من الزمن، ثم تطرق ذات يوم للحديث عن الإمام أحمد بن الحسين الأصفهاني رحمه الله (٥٣٣-٥٩٣هـ)، المشهور بكنتيته «أبي شجاع»، وأنه كان مجاوراً بالمدينة المنورة، وكان ينظف الغرفة الشريفة، وأحياناً يكنس ثرابها بلحيته؛ لطولها، ثم التفت الشيخ إلى تلميذه مبتسماً، وقال: «مثل لحيته فلان»، فأطلق تلميذه لحيته من حينها.

ومن الأمثلة أيضاً أن الشيخ أعطى طلابه مسألة في الفرائض، فقامت بكتابة حلها في ورقة، ثم اقترحت على الشيخ أن يكتب في أسفلها: «هذا عمل طلاب الشيخ أحمد الدوغان»، فقال الشيخ لي بهدوء: «يا بُني، إياك أن تحرص على إظهار عملك لأحد».

وكان الشيخ مسالماً مع جميع الناس، فقد سلم المسلمون من لسانه ويده، فلم ييسط لسانه في أعراضهم، ولم تمتد يده لإيذائهم، وقد كان حريصاً على تربية طلابه على ذلك، فكان يمنع جلساءه من إطلاق ألسنتهم في غيبة المسلمين، فإذا وقع من أحدهم ذلك نصحه الشيخ منزعاً، فإذا أصر المغتاب خرج الشيخ من ذلك المجلس، ولذلك فإن مجالسه دائماً تخلو من الغيبة، وهكذا كان في بيته مع أهله كما ذكرت إحدى بناته.

وكان الشيخ يزورُ العلماء، ويصطحبُ بعضَ طلابه معه، فيلحظُ فيهم نشوةً وفرحاً إذا التقوا بالعلماء، وتبادلوا الحديثَ معهم، وإذا لم يجدوهم كان يلحظُ في طلابه حزنًا وانكساراً، فكان يقولُ لهم: «لا يَكُنْ فَرَحَكُم إِلَّا بِاللَّهِ».

وكان الشيخ إذا اصطحبَ طلابه معه لزيارة العلماء يُعرِّفهم على طلابه، ويقول: «هذا فلانٌ من طلاب العلم، يحفظُ كذا وكذا، ويحضرُ دروسَ الفقه والفرائض والنحو»، وكان قصدُ الشيخ من ذلك أن يوثق صلةَ طلابه بالعلم والعلماء، فكان الطلابُ إذا زاروا أولئك العلماء يلاحظون منهم تكريماً لهم واهتماماً بهم، بل كان بعضُ أولئك العلماء يُقدِّمونهم في قراءة الكتب العلمية التي يدرسونها، وكان بعضهم يفتح لهم دروساً خاصةً بهم.

وقد كان الشيخ حريصاً على أن يواظبَ طلابه على أذكار الصباح والمساء، فكان يؤكدُ عليهم الإتيان بالأذكار الشرعية الواردة في كتاب إشراق الضياء في أذكار الصباح والمساء لمحمد علي بن صالح بن خميس الأزهري رحمه الله، وكان يعجبه أن المؤلف يُوردُ كلَّ ذكرٍ فيه بدليله، الأمر الذي يؤكد حرصَ الشيخ على الاقتداء بالنبي ﷺ في كلِّ شؤونه.

وقد كان الشيخ مُحبباً لطلابِهِ، مشتاقاً لُلقيائِهِم، ومن مظاهر هذه المحبة والاشتياقِ أَنَّهُ كان يفتحُ مجلسه لهم ولأصحابه كلَّ أسبوعٍ - مع أَنَّهُ كان يلقاهم كلَّ ليلةٍ في دروسه العلمية - ، وقد كان الشيخ يَغْتَنِمُ هذا المجلسَ في رعاية طلابه بحاله ومقاله، فكان يُمطرُهم بسيرِ العلماء والصالحين، ويثُرُ عليهم من فرائد العلم والأدب ما يزيدُهم علماً، أو يكسبُهم أدباً، أو يشحذُ هممَهُم، أو يُزَكِّي نفوسَهُم.

وكان الشيخ يَرى في هذا المجلس الأسبوعيِّ مُكَمِّلاً تعليمياً وتربوياً لدروسه اليومية، فكان يَتفقَّد طلابه إذا غابوا عن مجلسه، ويسأل عن سبب غيابهم؛ ليقوم بما يقتضيه ذلك من عيادة مريضهم، أو جبر مُصابهم، بل كان يعتبُّ عليهم إذا قطعوا زيارته؛ لأنه كان يهدفُ إلى أن تكونَ علاقتهُ بهم علاقةً أُوَّوَّةً وأُخُوَّةً، فقد قال مرةً لأحد طلابه: «أنت وفلان ما تأتون لأحمد الدوغان إلا إذا أردتم الاستفادة منه، أمَّا له فما تأتون، لماذا لا تحضُرُ جلسة الخميس؟!»

وقد كان الشيخ يَلحظُ حضورَ بعض طلابه إلى منزله، ولكنهم ينتظرون في الخارج؛ حَجَلًا أن يَكُونُوا أوَّلَ الداخلين، فكان يَصِفُ أحذية أولاده بحيث يراها طلابه، فيظنُّونها أحذية زوارٍ قبلهم، فيتشجَّعون على الدخول، فيستقبلهم الشيخ، ويتجاذب معهم أطراف الحديث، فيزول ما بأنفسهم من حَجَل.

ولقد تميزَ الشيخُ بمقدرةٍ ومهارةٍ في التربية الفردية لطلابهِ، فكان يعتني بكلِّ منهم عنايةً خاصة، فيُعطي كلاً منهم ما يحتاجه ويُفيده من علمٍ أو رأيٍ أو نصيحة، بحيث صار كلُّ طالبٍ يعتقدُ أنه صاحبُ الحُظوة الكُبرى عنده، وما ذاك إلا لمحبته لهم، وحرصه عليهم، وبصيرته النافذة بهم.

والخلاصةُ أنَّ الشيخَ كان يُعاملُ طلابه معاملةً أبنائه، يُحبُّهم ويُربِّيهم، ويُقرَّبهم ويُقرُّ بهم، ومن أمثلة ذلك أنه أرادَ صيامَ شهرِ رمضانَ عامَ ١٤٠٢ هـ مع أسرته في مكة المكرمة والمدينة المنورة، فقصدَ المدينةَ أوَّلاً، وقضى فيها أياماً، واتفقَ ذلك مع وجودِ تلميذه الشيخِ د. أحمد بن عبد اللطيف البراهيم العرفج فيها، ثم اتفقَ عزمُهما على الذهابِ إلى مكة، فطلبَ الشيخُ من تلميذه أن يُرافقه في سفره إليها، فاعتذرَ تلميذه منه؛ لأنَّ الشيخَ تُرافقه أسرته، أمَّا تلميذه فقد كان وحده، فأصرَّ الشيخُ عليه بمرافقته، فوافقَ تلميذه؛ حياءً منه ورغبةً في

صحبتِه، فقَسَمَ الشَّيْخُ أُسْرَتَهُ إِلَى فَرِيقَيْنِ، فَجَعَلَ النِّسَاءَ فِي سَيَارَةٍ، وَالرِّجَالَ فِي سَيَارَةٍ، فَلَمَّا وَصَلُوا مَكَّةَ اسْتَأْذَنَ التَّلْمِيزُ مِنْ شَيْخِهِ أَنْ يَنْصَرِفَ لِيُبْحَثَ لَهُ عَنْ سَكَنِ، فَأَصَرَ الشَّيْخُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْكُنَ مَعَهُمْ، فَوَقَعَ تَلْمِيزُهُ فِي حَرْجٍ كَبِيرٍ، فَإِنْ هُوَ أَطَاعَ قَلْبَهُ فَهُوَ يَدْعُوهُ إِلَى مِرَافِقَةِ الشَّيْخِ وَالْأُنْسِ بِصَحْبَتِهِ وَتَبَادُلِ الْحَدِيثِ مَعَهُ فِي الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ، وَإِنْ هُوَ أَطَاعَ عَقْلَهُ فَهُوَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِعْتِدَارِ مِنْ شَيْخِهِ؛ لِئَلَّا يَشُقَّ عَلَى أُسْرَتِهِ، وَلَكِنْ تَحْتَ إِصْرَارِ الشَّيْخِ سَكَنَ تَلْمِيزُهُ مَعَهُمْ، وَكَانَ يَتَنَاوَلُ الْإِفْطَارَ وَالسَّحُورَ يَوْمِيًّا مَعَ شَيْخِهِ، وَبَعْدَ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ عَزَمَ التَّلْمِيزُ عَلَى مَغَادِرَةِ سَكَنِ الشَّيْخِ؛ رِفْقًا بِهِ وَبِأُسْرَتِهِ، فَخَرَجَ دُونَ عِلْمِهِ، فَالْتَقَى فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ عِنْدَ الْإِفْطَارِ فِي الْحَرَمِ، فَلَمَّا أَدَّىَا صَلَاةَ الْمَغْرِبِ وَسُنَّتَهَا، نَادَاهُ الشَّيْخُ وَقَالَ لَهُ: «لِمَ ذَهَبْتَ؟» فَقَالَ: «خَشِيتُ الْإِثْقَالَ عَلَيْكُمْ»، فَصَرَخَ لَهُ الشَّيْخُ بِرُغْبَتِهِ فِي الْبَقَاءِ مَعَهُمْ، وَلَمْ يَمْلِكِ الشَّيْخُ عَيْنِيهِ، فَسَقَطَتْ مِنْهُمَا دُمُوعٌ كَاشِفَةٌ لِمَدَى مَحَبَّةِ الشَّيْخِ لِتَلْمِيزِهِ، وَرَفَعَهُ إِلَى مَصَافِّ أَهْلِهِ وَأُسْرَتِهِ.



الفصل السابع الشيخ الداعية

شرع الشيخ يُقيمُ عماد مدرسته، وأخذَ يَنيها لَبَنَةً لَبَنَةً، وطفقَ يَسقي طلابه علماً، ويهدُّبهم تربيةً، فاستوى البناء، ونحا العلياء، واكتسبَ كلُّ طالبٍ من العلمِ والتربية ما اللهُ قد شاء، ولكنْ بَقِيَتْ رَكيْزَةٌ مهمَّةٌ، لم تكنْ خافيةً على الشيخ، إنَّها الدعوةُ إلى الله على بصيرة، تحقيقاً لقولِ الله عز وجل: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

والدعوةُ إلى الله تقتضي الاختلاطَ بالناس: عالمهم وجاهلهم، مُحسنهم ومُسيئهم، مُوافقهم ومُخالفهم، أميرهم ومأمورهم، الأمرُ الذي يتطلَّبُ علماً وفهماً، وحكمةً وحِكمةً، ويجمعها وصفُ البصيرة التي امتدحَ اللهُ بها نبيَّه ﷺ، فأرْسَى الشيخُ دعائمَ التعاملِ مع هذا التباينِ العلميِّ، والتغايرِ الخُلُقِيِّ، والتفاوتِ المذهبيِّ، والتمايزِ الاجتماعيِّ، منطلقاً من نورِ البصيرة التي أكرمَه اللهُ عز وجل بها، ومقتدياً بما قال العُقلاء: «رَحِمَ اللهُ امرءاً عَرَفَ زَمَانَهُ فَاسْتَقَامَتْ طَرِيقَتُهُ».

لقد عاش الشيخُ في مرحلةٍ زمنيةٍ وبيئيةٍ مكانيةٍ، ظهرَ فيها على الساحةِ الدينيةِ أفكارٌ ومذاهبٌ وطوائفٌ، تُخالفُ منهجَه العلميِّ، فحرَّصَ أشدَّ الحرصِ على أن يُجنَّبَ مدرسته من الدخولِ في صراعاتٍ فكريةٍ، أو خصوماتٍ مذهبيةٍ، أو نزاعاتٍ طائفيةٍ، فكان يَنْهَى طلابه عن التطرُّقِ لنقدِ مدارسِ المخالفين، ويعدُّ

هذا من ضياع الأعمار والأوقات، ويأمرهم بالاجتهاد في طلب العلم، والعمل به، والإخلاص فيه، وطالما كان يستشهد بما قيل: «الناس هلكى إلا العالمين، والعالمون هلكى إلا العاملين، والعالمون هلكى إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم»، فسار بمدرسته بين أشواك الخلاف والغام التعصب، حتى أرساها في بر الأمان، وقد اشتد عودها، واستوت على سوقها.

وفي الوقت نفسه الذي جنّب فيه الشيخ مدرسته من الغرق في الخلافات الفكرية، والصراعات المذهبية، والنزاعات الطائفية، فقد كان حريصاً على أن يجعل منها مدرسة جسور ممتدة لجميع المذاهب والمشارب، ومدرسة علاقات طيبة مع جميع الاتجاهات والأطراف.

ورغم أن الشيخ ضويق بسبب منهجه العلمي المذهبي في شخصه وطلابه، إلا أنه حافظ على توازنه النفسي، وسموه الخُلقي، فلم يستطل بلسانه ومدرسته في مقارعة خصومه، بل قرّر منهجه، ورسخه في نفوس طلابه، وكأنه يتبع الحكمة القائلة: «بدلاً من أن تدمّ الظلام أوقد شمعة».

لقد كان الشيخ يدرك طبيعة التنوع المذهبي والتعدّد الفكري في الأحساء، فبدأ بترسيخ مشروعية وأهمية التمدّج الفقهي، وأن اتباع المذاهب الفقهية الأربعة عصمة وأمان من الفوضى الفقهية التي تتجاذبها تيارات التشديد والتميع، وكان يستدلّ لمنهجه بالأدلة والبراهين والأمثلة، وكان يستشهد بقصيدة شيخه الشيخ عبد العزيز العليجي المالكي رحمه الله المقرّرة لمشروعية وأهمية التمدّج بالمذاهب الفقهية الأربعة، مع الاستدلال بالأدلة النقلية والعقلية، ومما قال فيها^(١):

(١) الأبيات المختارة ليست بنفس الترتيب في أصل القصيدة.

وكان أتباع المهتدين هدايةً يقول تعالى «فاسألوا» أو لَمْ تَكُنْ وَمَنْ قَالَ «وَجَعَلْنَا إِمَامًا» أَلَمْ يُرِدْ وَلَكِنْ رَضِينَا مَا لَكَ وَابْنَ حَنْبَلٍ أئمةٌ حقٌّ كالشموسِ اشتهاؤهم وهل جمَعُوا إِلَّا كِتَابًا وَسُنَّةً وإجماع أصحاب النبي كفى بهم فإن قُلْتُمْ ماتوا فسيرتْهم حيث هم الخَيْرُ أحياءٌ وبعْدَ مماتِهم وهم حَوَّطُوا الشَّرْعَ الشَّرِيفَ بِفَضْلِهِمْ وَكَمْ قاصِدٍ لِلدِّينِ يَبْغِي فَسَادَهُ

وطاعتهم في الناسِ فرضاً مُحْتَمًّا قَضَتْ بِاتِّبَاعِ النَّاسِ مَنْ كَانَ أَعْلَمًا مِنَ اللَّهِ أَنْ يُقْفَى سَبِيلًا وَيُلْزَمًا وَنُعْمَانَنَا وَالشَّافِعِيَّ الْمَكْرَمًا فَمَا انْطَمَسُوا إِلَّا عَلَى مَنْ بِهِ عَمَى وَإِلَّا قِيَاسًا صَادِقَ الْجِدِّ مُحْكَمًا لَنَا سَبِيًّا مَا كَانَ أَنْ يَتَصَرَّمَ وَإِنْ هَبَطُوا لَحْدًا فَمِنْهَا جُهِمَ سَمًا نَرَى نَهَجَهُمْ لِلخَيْرِ أَهْدَى وَأَلْزَمًا فَأُصْحَى عَنِ الْجُهَالِ مُمْتَنِعَ الْحِمَى رَأَهُمْ لِيُوثًا خَادِرِينَ فَأَحْجَمًا

ولمَّا كان التصوُّرُ الخاطِئُ لاختلافِ المذاهبِ الفقهيةِ الأربعةِ قد يُؤدِّي إلى تنقيصِها، واختلافِ أصحابِها، فقد كان الشيخُ يُقرِّرُ أنَّ المذاهبَ الأربعةَ طُرُقٌ صحيحةٌ للوصولِ إلى الحقِّ المقبولِ في الشريعةِ الإسلامية، وكان يستشهدُ بأبياتِ الأَميرِ الأديبِ أحمدَ عَزَّتِ العُمري رحمة الله والي الأحساءِ في العهدِ العثمانيِّ في الفترةِ من ١٢٩٤هـ إلى ١٢٩٩هـ - مُصَوِّراً حقيقةَ اختلافِ المذاهبِ الأربعةِ :-

إِنَّ الْمَذَاهِبَ كَالْمَنَاهِلِ فِي الْهَدَى وَالنَّفْسُ إِنْ رَوَيْتْ بِأَوَّلِ مَنْهَلٍ
وَالْمَرْءُ مِثْلُ الْوَارِدِ الظَّمَانِ غَرِيَتْ بِلا كُرِهِ لِشَرِبِ الثَّانِي

وكان الشيخ يُتبعها بتخميسين للشيخ عبد الله بن علي العبد القادر الشافعي
الأحسائي رحمه الله (١٢٧٠-١٣٤٤هـ)، أما أولهما فهو قوله:

نورٌ تَبَلَّجَ كالصباحِ إذا بدا بَعَثَ الإلهُ به النبيَّ محمداً
ما زالَ يَظْهَرُ في نجومِ الاقْتِدا إِنَّ المذاهبَ كالمناهلِ في الهدى
والمرءُ مِثْلُ الواردِ الظَّمَانِ

نُعْمَانُهُمُ والأصْبَحِيُّ بمنزِلِ ما كانَ عنه التالِيانِ بمَعزِلِ
أنهارُهُمَ تَجْرِي كعذبِ سَلْسَلِ والنَّفْسُ إن رَوِيَتْ بأولِ منهلِ
غَرِيَتْ بلا كُرهِ لوردِ الثَّانِي

وأما التخميسُ الثاني فهو قوله:

يا سالكاً وَجَدَ الطريقَ تَعَدَّداً خُذْ ما تشاءُ فسوف تَأْتِي المقصِداً
واحذِرْ وُقُوفَكَ حيرةً وتردُّداً إِنَّ المذاهبَ كالمناهلِ في الهدى
والمرءُ مِثْلُ الواردِ الظَّمَانِ

فإذا نَزَلْتَ إلى الحِمَى في مَنْزِلِ لا أَلْفَيْتَكَ عن سِوَاهِ بمَعزِلِ
الحُرُّ لا يَبْقَى رهينةَ أوَّلِ والنَّفْسُ إن رَوِيَتْ بأولِ منهلِ
غَرِيَتْ بلا كُرهِ لوردِ الثَّانِي

وكان الشيخ يُقرِّرُ أنَّ اختلافَ المذاهبِ الفقهيةِ الأربعةِ رحمةٌ بالأمةِ
الإسلاميةِ، فإذا ضاقَ بها مذهبٌ في مسألةٍ ما، اتَّسَعَ لها مذهبٌ آخرٌ، فكان
يَسْتَشْهَدُ بأبياتٍ في منظومةِ الزُّبْدِ:

والشَّافِعِيُّ ومالكُ نُعْمَانُ وأحمدُ بنُ حنبلٍ سَفِيانُ
وغيرُهُمُ من سائرِ الأئمةِ على هُدَى والاختلافُ رحمةٌ

كان الشيخ يُقرُّ هذه الأصول والقواعد، ولا يتطرق إلى مُقارعة المدرسة اللامذهبية التي تُنبذ المذاهبَ الفقهيةَ الأربعة، بل كان حريصاً على وحدة المجتمع في اتجاهاته المتعددة، مُتجاوزاً الخلاف والصراع، رافضاً الشقاق والنزاع، حافظاً لسانه ووقته من التعرُّض لمُخالفه - فضلاً عن التلذُّذ بنقدهم ودمهم -.

فكان الشيخ - بصنيعه هذا - يُؤكِّد أن بناء المنهج الصحيح يكفي في نقض مُخالفه، وأن العالم المخلص يتميز برجاحة عقله، ومجاهدة نفسه، وعفة لسانه، وأنه إمامٌ للمدارس الشرعية الأحسائية، ومجددٌ للتمذهب الفقهي الأصيل، باعثٌ للروح في أوصاله، وراعٍ للمذاهب الفقهية الأربعة، وليس المذهب الشافعي فقط.

نعم، كان الشيخ يدرك ما كانت عليه الأحساء في القرون الماضية، وأنها كانت واسطة عقد الحركة العلمية والفكرية في الخليج العربي، الممتد من جنوب العراق إلى عُمان، ومن ضفتي الخليج إلى نجد، وكانت هويتها السنية النابعة من أراضيها تُشكِّل هوية تلك المنطقة الواسعة، ابتداءً من أيام الدولة العيونية في القرن الخامس الهجري، وتعزيزاً في أيام الدولة الجبرية في القرن التاسع الهجري، إلى التاريخ المعاصر.

فكان الشيخ شخصيةً تجديديةً مهمةً لإحياء دور المدارس الشرعية الأحسائية، وإعادة تأثيرها على المنطقة، وترسيخ هويتها السنية، وكان شخصيةً مميزةً في الصفاء الروحي، والسُّمو الخُلقي، عالماً مريباً، شريفاً أيباً، وراعاً متواضعاً، زاهداً خاشعاً.

وَمِنَ الْقَوَاعِدِ الَّتِي أَسَّسَهَا الشَّيْخُ أَنْ يَكُونَ مِنْهَجُهُ الْعِلْمِيُّ وَاضِحاً لطلابه ولمجتمعِهِ ووضوحِ الشمسِ في رابعةِ النهارِ، فكان يكرهُ إثارةَ المسائلِ التي يستغربُها الناسُ، وتثيرُ إشكالاتٍ عندهم، وتصدُّهم عن العِلْمِ الذي ينفَعُهُم، ويرى أنَّ التعلُّقَ بغريبِ المسائلِ يصدُّ عن العِلْمِ النافعِ وعملِ الآخرةِ، وكان يرُدُّها قائلاً: «ما كُلُّ ما يُعَلَّمُ يُقالُ»، ويبررُ وجهةَ نظره الثاقبةَ بقوله: «ما مصلحتي إذا جعلتُ الأبَّ يختلفُ مع أبنائه، والإخوةَ مع بعضهم، بسببِ مسائلٍ لا فائدةَ فيها».

لقد كانت بصيرةُ الشيخِ نافذةً، وكانت رؤيته بعيدةً، فعاش طلابُه على أُسسٍ فكريةٍ ثابتةٍ، وقواعدٍ علميةٍ مستقرةٍ، وهدوءٍ نفسيٍّ راسخٍ، فلمَ تخرَّجهم مناهجُ الغلوِّ والتطرُّفِ، ولا مدارسُ التمييعِ والتنازُلِ، ولمَ يعيشوا في عزلةٍ علميةٍ أو اجتماعيةٍ أو وطنيةٍ، بل أقاموا علاقةَ التعاونِ مع المدارسِ العلميةِ، وشاركوا بإيجابيةٍ في الأنشطةِ الاجتماعيةِ، وأسهموا في بناءِ اللحمةِ الوطنيةِ، ولمَ يركبوا موجاتِ المصالحِ والمنافعِ، ولمَ تلعبَ بهم رياحُ الأهواءِ والمطامعِ.

لقد كان الشيخُ رجُلَ سلامٍ، وداعيةً وئامٍ، سليمَ الصدرِ، طاهرَ القلبِ، عفيفَ اللسانِ، ومن أبرزِ الأدلةِ على ذلك أنه لمَ يدنِّسْ لسانَه بسبِّ أناسٍ ولَعنوا إلى آذانِهِم بالطعنِ في صحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ رَغَمَ حُبِّهِ العَظيمِ لَهُمِ ولأفضلِهِم سيدنا أبي بكرٍ الصديقِ رضي اللهُ عنه، بل كان يُبادِلُهُم التحيةَ، ويدعُو لَهُم بالعافيةِ.

ولم يكتفِ الشيخُ بالإعراضِ عن مخالفيِ منهجِهِ العلميِّ، وتجنُّبِ الدخولِ معهم في صراعاتٍ ونزاعاتٍ، بل إنه شملهم بسُموِّ خلقِهِ ووافرِ شفقَتِهِ، فكان ينهَى طلابَهُ عن بسطِ اللسانِ فيهِم وفي منهجِهِم، ويأمرُهُم بالبعدِ عما يستفزُّهم ويثيرُهُم؛ خشيةً أن يقعَ مخالفوهُم فيهِم بالتكفيرِ والتبديعِ، فيأثمونَ،

فقد ذكر تلميذه الشيخ محمد بن أحمد العلي العرفج أنه لما انتقل إلى المدينة المنورة للمجاورة فيها، كان يتعرّض لمضايقاتٍ من بعض مخالفي منهج الشيخ، فكان يناقشهم ويجادلهم ويعاندهم، فلمّا علم الشيخ بذلك، والتقى بتلميذه قال له: «يا بُنَيَّ، تجنّب معاندتهم؛ لأنهم سيّتهمونك بالابتداع، فيأثمون، فيتعرّضون لعقاب الله، فتكون سبباً في ذلك».

وقد أقام الشيخ مع كثيرٍ من علماء زمانه ومكانه من أهل السنة والجماعة علاقاتٍ طيبة، وكان يتعامل معهم معاملة الإخوة مع بعضهم، فقد جمّعهم رَحِمَ العِلم، وأظَلَّتْهم شجرة الدعوة، فكانت علاقته بهم علاقةً متينة، يزورونه ويؤرّضهم، ويرى حقاً عليه ردُّ الزيارة لهم، ويبالغ في تقديرهم واحترامهم، ويربّي طلابه على إكرامهم وتبجيلهم.

ومن الأمثلة على ذلك أنه كان يُكثِرُ من زيارة الشيخ عبد الله بن محمد العكّلي المالكي الأحسائي رحمه الله في مدينة المُبرّز، وكان الشيخ يُعلي منزلته، ويذكرُ من صلاحه، فإذا زاره قَبَّلَ رأسه، ثم يُبادله الحديث، ويسأله أحياناً ما يُعلم يقيناً أنّ الشيخ يعرفُ جوابه، ولكنه كان يرغبُ أن يستفيدَ طلابه من علمه، وفي إحدى الزيارات قال الشيخ العكّلي للشيخ: «النَّاجِي يأخذ بيد أخيه»، ثمَّ بكّيا.

وكان الشيخ يحرّض على زيارة العلماء في الأعياد، فعلى سبيل المثال كان يزورُ علماء آل الشيخ مبارك المالكية في مجلسهم بعد صلاة المغرب من ثالث أيام العيد، وكان يصطحبُ معه طلابه أو بعضهم، ويتبادلون فوائد العِلم وفرائد الأدب.

ولم تقتصر علاقة الشيخ العلمية على علماء الأحساء، بل امتدَّت علاقته مع غيرهم من علماء وطنه وغيرهم من علماء العالم الإسلامي، فمن العلماء الذين كانت تربطهم مع الشيخ روابط قوية: السيد محمد بن علوي المالكي من علماء مكة، والشيخ عبد الرحمن الجهنّي من علماء المدينة، والشيخ إسماعيل الزين والشيخ عمر الجيلاني والشيخ أحمد جبران، وكلّهم من علماء اليمن المقيمين في مكة، ومُسندُ العصرِ الشيخُ محمدُ ياسين الفاداني من علماء أندونيسيا المقيمين في مكة، والشيخُ عبدُ الشكور فياض من علماء بورما المقيمين في مكة، والشيخُ عمرُ الملاحجي والشيخُ خليلُ ملا خاطر والشيخُ محمدُ عوامة والشيخُ أحمدُ قلاش والشيخُ محمدُ الحجّار والشيخُ محمدُ عوض والشيخُ زهير الناصر، وكلهم من علماء سوريا المقيمين في المدينة، والحبیبُ زينُ بن سُمَيط من علماء اليمن المقيمين في المدينة، والشيخُ محمدُ زكريا البخاري من علماء بخارى المقيمين في المدينة، والشيخُ عبدُ الله سراج الدين من علماء سوريا المقيمين في المدينة لعدة سنوات، والشيخُ عبدُ الفتاح أبو غدة والشيخُ محمود فجّال، وكلاهما من علماء سوريا المقيمين في الرياض، والشيخُ محمدُ الحَيّاني من علماء سوريا المقيمين في الأحساء، والشيخُ محمدُ نجيب الشنقيطي من علماء موريتانيا المقيمين في الدمام، والشيخُ أحمدُ الجلاداري من علماء فارس المقيمين في الدمام، والشيخُ عبدُ الله بنُ إبراهيم الأنصاري من علماء قطر، والشيخُ خليلُ الفارسي من صالحِي الكويت، والشيخُ محمدُ صالح الغرسي من علماء تركيا، وغيرهم، رحمَ اللهُ مَنْ مات منهم، وأحسنَ خاتمةَ مَنْ بَقِيَ منهم، وقد التقى الشيخُ بأولئك العلماء في الأحساء ومكة والمدينة.

ولم يسافر الشيخُ إلى أيِّ مدينةٍ أخرى - باستثناء أشرفِ البقاع: مكة المكرمة

والمدينة المنورة- أو أي بلدٍ آخر- باستثناء الهند في أيام شبابه؛ بسبب اشتغاله بمشروعهِ العلميِّ، إلا مرةً واحدةً إلى سوريا عام ١٤١٤ هـ، وكان السببُ الذي دعاه لذلك العلاقة الوطيدة التي تربطُهُ بعلمائها، وخصوصاً الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله (١٣٤٢-١٤٢٢ هـ) من كبار علماء حلب، وكان قد التقى به أوّل مرةً في المدينة، وتعهداً أن يدعوكُ كلَّ منهما للآخرٍ بظهِر الغيب، ثم تذاكرا عهدهما عندما التقيا في حلب.

وكان أحدُ طلابِ الشيخ، وهو الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الجغيمان رحمه الله، رأى في منامه أن الشيخ سافر إلى الشام، وأنه توجَّح بالولاية هناك، وقد تحقَّق شاهدُ الرؤيا، والمرجُو أن يتحقَّق غيبها، فقد كان الشيخ ينقلُ عن الإمام الشافعي رحمه الله (١٥٠-٢٠٤ هـ) قوله: «إن لم يكن الفقهاء أُولياءَ لله فليس لله وليٌّ».

وقد صحبَ الشيخ في رحلته تلك عددٌ من طلابه، منهم من سافر مع الشيخ، ومنهم من لحق به أثناء سفره، وأدرك معه بعض أحداثها، وهم: ابنه الشيخ عبد العزيز، والشيخ أحمد بن عبدالرحمن العثمان، والشيخ عبد الله بن عبد العزيز الفلاح، والسيدُ علي بن عبد الرحمن الخليفة، والسيدُ لؤي بن عبد الله الهاشم، والشيخ د. عصام بن عبد العزيز الخطيب، والشيخ أنور بن محمد البراهيم العرفج، وأخوه الشيخُ مشاري، والشيخُ عماد بن أحمد الفلاح، والشيخُ د. محمد بن عبد الله الدوغان، والدكتور عبد الله بن إبراهيم الخطيب، والشيخُ عبد الله بن إبراهيم بو عيسى العمير، والشيخُ محمود بن عبد الله بو عيسى العمير، والشيخُ فوزي بن محمد العمير، والشيخُ عبد المنعم بن محمد العبد القادر، وأخوه الشيخُ عبد الملك.

فأقام الشيخ عدّة أيام في دِمَشق، وعدة أيام في حَلَب، مروراً بحمص حيث توقّفوا فيها، وزاروا قبرَ سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه، وزاروا قبرَ الإمامِ النوويّ رحمه الله في نَوَى.

وقد التقى الشيخُ بعددٍ من علماء سوريا، كالشيخ محيي الدين الكردي، والشيخ محمد سعيد البوطي، والشيخ مصطفى الخن، والشيخ مصطفى البغا، والشيخ كريم راجح، كلهم في دمشق، والشيخ سعيد كحيل في حمص، والشيخ عبد الله سراج الدين، والشيخ عمر زيتوني، والشيخ زهير الناصر، كلهم في حلب.

ولقد كان الشيخ يتعامل مع العلماء تعاملًا تلوح منه أماراتُ المحبة والمودة، ويُشِرُّقُ أثرها في مُحيّاه الوضيء، فيهِشُّ وَيَبِّشُّ، ويفرِحُ ويغْتَبِطُ، ويُداخِلُه السرورُ والحُبور، ويتشبي طرباً إذا أخبروه عن نشاطهم العلميّ من تدريسٍ وتأليف.

وكان الشيخ يتواضع لأولئك العلماء، ويغلبُ عليه الصمتُ في حضرتهم عندما تُناقش المسائل العلمية، ويحثُّ طلابه على الاستفادة منهم، متجنباً ما قد يغلبُ على بعض العلماء مع نُظرائهم من الشعورِ بالغيرة والحسد، أو استجلابِ المدح والثناء، فضلاً عن ذمّهم أو انتقاصهم.

وكان الشيخ منصرفاً إلى العلمِ بكُلِّيته، ويرى العلماء ملوكاً غير متوجّجين، وكان يتمثلُ فيهم قولَ الشاعر:

ما لَدَّةُ العيشِ إلا صحبةُ الفقرا هُم السلاطينُ والساداتُ والأمرأ
فاصحابهمُ وتادّبُ في مجالسهمُ وخلّ حظك مهما قدّموك ورا

فاكتفى بمجالستهم عن مجالسة الملوك، وكأنه يُعيدُ إلى الذهنِ قصةَ الخليفة أبي جعفر المنصورِ رحمه الله (٩٥-١٥٨هـ) عندما قيلَ له: «هل بقي

مِن لِّذَاتِ الدُّنْيَا شَيْءٌ لَّمْ تَنْلَهُ؟ فَقَالَ الْمَنْصُورُ: «بَقِيَتْ خَصْلَةٌ، أَنْ أَعْدَدَ فِي مِصْطَبَةٍ، وَحَوْلِي أَصْحَابُ الْحَدِيثِ، فَيَقُولُ الْمَسْتَمْلِي: مَنْ ذَكَرْتَ رَحِمَكَ اللَّهُ»، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ التَّالِيَّ عَدَا عَلَيْهِ النَّدْمَاءُ وَأَبْنَاءُ الْوُزَرَاءِ بِالْمَحَابِرِ وَالِدَفَاتِرِ؛ لِيُحَقِّقُوا لَهُ رَغْبَتَهُ، فَقَالَ: «لَسْتُمْ بِهِمْ، إِنَّمَا هُمْ: الدَّنَسَةُ ثِيَابُهُمْ، المَتَشَقِّقَةُ أَرْجُلُهُمْ، الطَّوِيلَةُ شَعُورُهُمْ، بُرْدُ الْآفَاقِ، وَنَقْلَةُ الْحَدِيثِ».

ولقد نأى الشيخ بمدرسته أن يجترقها إعصار السياسة، فكان يطلب السلامة لنفسه وطلابه في التعامل معها، ويتعد بمدرسته ومنهجها عن الانشغال بها، فكان ينهى عن الحديث في السياسة وانتقاد رجالها، فإذا سمع من ينتقد رجال السياسة قال: «كَمَا تَكُونُونَ يُوَلَّى عَلَيْكُمْ»، أي إذا أردتم صلاح رجال السياسة فابدأوا بإصلاح أنفسكم.

وفي الوقت نفسه الذي حفظ فيه الشيخ مدرسته من الانزلاق في مهاوي السياسة والانشغال بها، فقد كان يُجَنَّبُ مدرسته من الارتباط بها والاعتماد عليها؛ خشية أن تحرف منهجه العلمي عن مساره الواسطي المستقيم، فكان يحث طلابه على التنزه والترفع والابتعاد عن دوائر أهل المناصب والرياسة، وكان يكرر بعض أبيات القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني رحمه الله (٢٩٠-٣٦٦هـ) في هذا المعنى، ويطلب من طلابه إنشادها بين يديه، ويحثهم على حفظها، ومنها - بتصرف -:

يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
أرى الناس من داناهم هان عندهم ومن عظمت عزة النفس أكرماً
ولم أقض حق العلم إن كنت كلماً بدأ مطمع صيرته لي سلماً

وما زلتُ منحازاً بعرضي جانباً
 إذا قيلَ هذا منهلٌ قلتُ قد أرى
 أنزهاها عن بعضٍ ما لا يشينها
 فأصبحُ عن عيبِ اللئيمِ منزهاً
 وكم طالبٍ وُدِّي بنعمائه لم يصلِ
 ولم أبتذل في خدمة العلمِ مهجتي
 أأشقى به غرساً وأجنيه ذلّةً
 فإن قلتَ زندُ العلمِ كابٍ فإنما
 ولو أن أهلَ العلمِ صانوه صانهم
 ولكن أهائوه فهائوا ودنسوا
 عن الذلِّ أعتدَّ الصيانةَ معنماً
 ولكنَّ نفسَ الحرِّ تحتملُ الظماً
 مخافةَ أقوالِ العدا فيمَ أو لِمَا
 وقد رُحْتُ في نفسِ الكريمِ مكرماً
 إليه ولو كان الرئيسَ المعظماً
 لأخدمَ من لا قيتُ لكن لأخدماً
 إذن فاتَّبِعُ الجهلِ قد كان أخزماً
 كبا حينَ لم نحرُسِ حماه فأظلماً
 ولو عظَّموه في النفوسِ لعظماً
 مُحيَّاهُ بالأطماعِ حتى تجهَّماً

ورغم أن الشيخ حفظَ مدرسته من متهاتٍ دهاليزِ السياسة، فقد كان متابعاً لأحوالِ المسلمين في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، يفرحُ لأفراحهم، وينزعجُ لأتراحهم، ويخصُّهم في دعائه، فقد كان متابعاً لقضية المسلمين الأولى: قضية فلسطين، وكان يدعو بتحرير المسجد الأقصى من اليهود، وكان متفاعلاً مع أخبارِ العراق، وساءه ما آل إليه حالها، ولَمَّا عَلِمَ عن الفيضانات التي اجتاحت السودان كان يسألُ أحدَ طلابه من السودان عن أوضاعها؛ متحققاً بما روي عن رسولِ الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ»، رواه الطبراني في معجميه الصغير والأوسط.



الفصل الثامن

وفاة الشيخ

تقدّم الشيخُ في العُمُر، وتجاوزَ التسعينَ عاماً، فضاءها بين مشايخه وطلابه، أو بين كتابه ومحرابه، ثم بدأت الأمراضُ تعتريه، وأخذ الوهنُ يدُبُّ في أوصاليه، فكُسِرَتْ يدهُ مرةً إثر سقوطه، ووُضِعَتْ الجبيرةُ عليها، وأصابته هَشاشةٌ في العظام، فتأثرت بعض فقرات رقبته، وبعض فقرات عموده الفقري، فكان لا يستطيع القيام والقعود إلا بمشقةٍ شديدة، وأُصِيبَ بانحباسٍ في البول، فكان يحتاجُ عمليةً قسطرةً للتخلصِ منه، وثقلَ سمعه، فكان لا يسمعُ إلا بصعوبةٍ بالغة، وهكذا توالى الأمراضُ على هذا الجسدِ الضعيفِ المُنْهَكِ.

ورغمَ كلِّ ذلك، فقد كان الشيخُ محافظاً على صلاةِ الجماعةِ والجمعةِ في المساجد، ثم اقتصرَ على صلاةِ الجمعةِ في آخرِ ثلاثِ سنواتٍ من حياته، وكان يلتقي بطلابه في مجلسه ضحى أيامِ الخميس، وكان محافظاً على صيامِ رمضانَ إلى آخرِ حياته، ويصلي التراويحَ في بيته مع جماعةٍ من طلابه، وكان يقرأ القرآنَ وبعضَ كُتُبِ العِلْمِ بمشقةٍ شديدة، كالصحيحينِ وسيرةِ الخلفاءِ الراشدين رضي الله عنهم.

وكان يخصُّ دروسَ طلابه بعنايته إلى آخرِ لحظاته، فكان يزورهم على كرسيه المتحركِ من حينٍ لآخر، فيفرحُ لرؤيةِ ثمرةِ جهدهِ وجهادهِ، ويبيكي لعجزه عن مشاركتهم ومُنادمتهم، فكان يقول: «يا ليتني كنتُ معكم فأفوزَ فوزاً عظيماً»،

ثم انقطع عن الخروج إلى المساجد في آخر سبعة أشهر تقريباً.

في تلك السنوات الأخيرة من عمره أكرم الله الشيخ بعدة كرامات، منها أنه كان يرى مكتوباً على وسادته ولحافه وغترته عبارة: «كان الله لكم كما كنتم له»، وكان يُشير إليها، ويطلب من أولاده أن يقرؤوها، وقد تكررت رؤية الشيخ لهذه الكلمة التي تُبشّر بحسن خاتمة لشيخ كان همه في الحياة أن يكون لله علمه وعمله.

وقد كان للشيخ قبل ذلك كراماتٌ ظاهرة، منها أنه شاع في غزو العراق للكويت عام ١٤١١هـ أن المحتل العراقي سيضرب السعودية بالصواريخ والغازات الكيميائية، وتعزّزت هذه الشائعات عندما تمّ إلقاء صواريخ الظهران والرياض، فحصل خوفٌ ودُعرٌ، فكان الشيخ مواصلاً لدروسه العلمية، ولم يُوقفها في هذه الأحداث، وذات ليلة قال الشيخ لطلابه: «هذه سحابة صيف»، فنزلت كلماته برداً وسلاماً على قلوب طلابه.

ومنها أن أحد العلماء المقيمين في السعودية قدم الأحساء للعمل فيها، ولم يكن له معرفةٌ سابقةً بالشيخ، فاتّصل بهذا العالم أحد أصحابه، ممن ليس له معرفةٌ سابقةً بالشيخ أيضاً، وأخبره أن في الأحساء شيخاً، صفته كذا وكذا، يرفع الله به البلاء، فلمّا رأى الشيخ أوّل مرة وجد الصفات منطبقة عليه.

ومنها أن رجلاً أصيب بالأم شديدة في ظهره، فرأى الشيخ في منامه يقرأ عليه، فما حلّ مساءً ذلك اليوم إلا والشيخ يزوره ويقرأ عليه، فشفاه الله عز وجل. لقد كان لرقية الشيخ للمرضى نفعٌ ظاهر، وقد كان بإمكانه أن يتفرّغ للرقية الشرعية على المرضى، ولكنه آثر التفرّغ للعلم الشرعي، وتكوين جيلٍ

من طلابِ العِلْمِ الشريفِ، وقد صرَّحَ بذلك لبعضِ طلابِه قائلاً: «إنني لو بذلتُ وقتي للرقية الشرعية للمرضى لما وجدتُ وقتاً لتعليمِ طلابِ العلمِ».

ورغمَ تلكِ الكراماتِ المُبشِّرةِ إلاَّ أنَّ أعظمَ كرامةٍ أكرمَ اللهُ بها الشيخَ هي الاستقامة، فقد عاشَ قرناً من الزَّمانِ، مستقيماً على حالٍ وافٍ من الصَّلاحِ، هكذا نحسُّبه، واللهُ حسيبه، ولا نُزكِّي على اللهِ أحداً.

وقبلَ وفاةِ الشيخِ بليَّةٍ واحدةٍ، رأى أحدُ طلابِه في منامِه الشيخَ عبدَ العزيزِ العبيدِ اللهُ رحمه اللهُ، مُرتدياً بِشْتَه، فَرِحاً مسروراً، يَنْتَظِرُ الشيخَ، فجاءه الشيخُ، فاستقبله وانصرفاً معاً.

فلَمَّا كانَ اليَوْمُ التَّالِي زارَ الشيخَ في المستشفى بعضَ طلابِه بعدَ صلاةِ المغربِ، وكان في حالةٍ غيبوبةٍ، وكانت زيارةً وداعاً، إذ لم يُودِّ الناسُ صلاةَ العِشاءِ إلاَّ وانتشرَ الخبرُ بموتِ الشيخِ رحمه اللهُ، وفاضت الرُّوحُ لبارئها، وألقت عَصاً تسيارها، وكان ذلك يومَ السبتِ الرابعِ عشرَ من شهرِ ذي الحِجَّةِ من عامِ ألفٍ وأربعمئةٍ وأربعةٍ وثلاثينَ للهجرةِ النبويةِ ١٤ / ١٢ / ١٤٣٤ هـ، عن عُمرٍ يزيدُ على المئَةِ بسنَّتينِ.

واستفاضَ النَّبَأُ، ونزلَ على مُحبِّي الشيخِ من أهله وأصحابِه وطلابِه مُوجِعاً مُفجِعاً، وجيءَ بجسدهِ إلى بيتِه، وزاره طلابُه، ونظروا إليه نظرةً أخيرةً، وقَبَلُوا جبينَه، مؤمنينَ باللهِ وقدرِه، مُتَمالِكِي أنفُسِهِم، ضابِطِي تصرُّفاتِهِم، فلمَ تغلبهم إلاَّ دَمَعاتٌ حارَّةٌ، تُنبئُ عن قلوبٍ متألِّمةٍ متحسِّرةٍ.

وفي اليَوْمِ التَّالِي صُلِّيَ على الشيخِ بعدَ صلاةِ الظهرِ في جامعِ الجبري في حيِّ الكوت، ودُفِنَ في المقبرةِ التي دُفِنَ فيها أبَاؤُه ومشايخُه وأصحابُه، وكانت

جِنازَتُهُ مَهِيبةً، فقد اجتمعت حُشود، وأتت لِتَشيعِهِ وُفود، واستقبلَ أهله وطلابُه
جُموعَ المُعزِّينَ لمدَّةِ ثلاثةِ أيامٍ متتالية.

وقد طارَ نبأُ وفاةِ الشيخِ في الشَّرقي والغربي، وانتشرَ ثناؤُهُ مِن كُلِّ حَدَبٍ
وَصُوبٍ، ولعلَّ هذا جزاءٌ مُعجَّلٌ في الأُولَى، وما عندَ اللهِ خَيْرٌ وأبقى، وقد كان
يُكرَهُ المدحَ والثَّناءَ، وينهَى طلابه عنه بلا امتراء، إلا أنَّ يومَ وفاته يومٌ وفاءٍ
وبرٍّ مِن ربِّ كريمٍ - ولا نتألى على الله -، فقد وَرَدَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «يُوشِكُ
أَنْ تَعَلَّمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فقالوا: بِمَ ذاكِ يا رسولَ اللهِ؟ فقال:
«بِالثَّناءِ الحَسَنِ والثَّناءِ السَّيِّئِ، أنتم شُهَداءُ اللهِ، بعضُكم على بعضٍ»، رواه أحمدُ
وابنُ ماجه.

وقد ماتَ الشيخُ ولم يكنْ عنده ما يُوصِي به، وإنَّما أذِنَ بالحجِّ والعُمرةِ
عنه لمن شاء، إذ إنَّه لم يُورَثْ مالاً، وإنَّما خَلَّفَ رجالاً.

وقد خَطَبَ عن الشيخِ الخُطباءُ، ونَظَمَ فيه الشُّعراءُ، وأثنى عليه العُلَماءُ
والدُّعاةُ، وقد تمَّ جمعُ تلكِ الخطبِ والقصائدِ والكلماتِ، ونشرُها في كتابٍ
إلكترونيٍّ على شبكةِ الإنترنت بعنوان: «الشيخُ أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ الدوغان في
عيونِ محبيه»، وتمَّ انتقاءُ بعضها في هذا الكتاب.

ويمكن الوصول للكتاب الإلكتروني على العنوان التالي:

[https://ia601500.us.archive.org/14/items/Ahmed_Doghan/
Ahmed_Al-dogan.pdf](https://ia601500.us.archive.org/14/items/Ahmed_Doghan/Ahmed_Al-dogan.pdf).



الفصل التاسع

الشيخ في عيون محبيه

قصيدة ابنه الشيخ د. محمد بن الشيخ أحمد الدوغان

ثَقُلْتُ عَلَيَّ مَرَارَةً مَأْسَاتِي وَتَفَرَّقْتُ عِنْدَ الْمَصَابِ أَسَاتِي
 يَا أَيُّهَا الْأَفُقُ الْكَنِيبُ أَمَا بَكَتْ عَيْنَاكَ وَجَهَا مُشْرِقَ الْقَسَمَاتِ
 تَبْكِي لَه الْأَسْفَارُ فِي مَسْطُورِهَا يَبْكِي لَه الْمَحْرَابُ فِي الصَّلَوَاتِ
 لَبِسَ الْمَكَارِمَ وَالْمَحَامِدَ وَارْتَدَى حُلَّ الْوَقَارِ وَسُنْدَسَ الطَّاعَاتِ
 مَنْ يَنْظُرُ الْجَسَدَ النَّحِيلَ يَرُوعُهُ هَذَا الشُّمُوحُ بِقُوَّةٍ وَثَبَاتِ
 جَسَدٌ رَقِيقٌ كَيْفَ يَحْمِلُ هِمَّةً بِطُمُوحِهَا تَسْمُو عَلَى الْهَامَاتِ
 وَتَرَاهُ يُطْرِقُ صَامِتًا لَكِنَّهُ صَمَّتَ الْعَلِيمُ بِقِيَمَةِ الْكَلِمَاتِ
 تَسْتَنْطِقُ الْأَفْهَامُ مَا فِي صَمْتِهِ مِنْ حِكْمَةٍ وَبِقَافَةٍ وَعِظَاتِ
 يَا أَيُّهَا الْأَفُقُ الرَّحِيبُ فِضَاؤُهُ قَدَّمَ عِزَّكَ خَاشِعَ النَّظَرَاتِ
 حَدَّثَ عَنِ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ مَوَاقِفًا تَسْمُو عَنِ الْأَحْقَادِ وَالنَّعْرَاتِ
 حَدَّثَ عَنِ الْأَحْسَاءِ عَنِ عُلَمَائِهَا لَمْ يَسْقُطُوا فِي فَتْنَةِ النَّزَعَاتِ
 نُورُ الْهَدَايَةِ فِي جَبِينِكَ يَا أَبِي قَدْ أَسْرَجَتْهُ تِلَاوَةُ الْآيَاتِ
 طَالَتْ بِلَيْلِ النَّائِمِينَ مُضَاجِعُ وَخَلَوْتَ تَتْلُو أَطْوَلَ السُّورَاتِ

فَظَنَرْتَ لِلْأُخْرَى حَصَاداً مُقْبِلاً
 شَيْدَتْ قَلْعَةَ عَالِمٍ مُتَوَرِّعٍ
 وَبَعَثْتَ فِيقَهُ الشَّافِعِيَّ بِلْدَةٍ
 وَنَزَعْتَ أَشْوَاكَ الْخِلَافِ تَرْفُوعاً
 وَأَبَيْتَ أَنْ تَبْقَى رَهِينَ خِلَافِهِمْ
 مَا تُهْتَفَى فِي لُجَجِ الزُّحَامِ وَلَا التَّوْتِ
 قَدَّمْتَ لِلنَّشْءِ الطَّمُوحِ رِسَالَةً
 وَاخْتَارَكَ الْمَوْلَى نَهَايَةَ حَاجَةٍ
 وَتَوَقَّعْتَ وَجَنَاتِكَ الْبِيضَاءُ فِي
 حَمَلَتِكَ أَرْوَاحَ لَنَا وَعُيُونُنَا
 مَا طَارَتْ الْأَيْدِي بِنَعَشِكَ إِنَّمَا
 فَنَزَلْتَ فِي عُرْفِ الْجِنَانِ مُكْرَمًا
 طَافَتْ بِنَعْيِكَ فِي الْبِلَادِ صَحَائِفُ
 وَالنَّاسُ مَنْ تَشْهَدُ لَهُ بِمَحَبَةٍ
 وَأَقُولُ لِلْأَمِّ الْخَنُونِ تَصَبَّرِي
 يَا سُلَيْمِي نَحْوَ الْخُلُودِ وَجَنَّتِي
 وَأَقُولُ لِلنُّجَبَاءِ مِنْ طُلَّابِهِ
 لَوْلَا التَّقَاؤُ لَفِيكُمْ لَتَمَزَّقَتْ
 نَبَتٌ سَنَايِلَ عِلْمِهِ فِي أَرْضِكُمْ
 وَنَظَرْتَ لِلدُّنْيَا هَشِيمَ فُتَاتٍ
 مَدْعُومَةَ الْأَرْكَانِ وَاللَّبَنَاتِ
 كَادَتْ تَكُونُ فَرِيْسَةَ الْغَفَلَاتِ
 اللَّهُ تَبْغِي وَحُدَّةَ الرَّيَّاتِ
 وَطَرَحْتَ شَرْنَقَةَ النَّزَاعِ الْعَاتِي
 بِكَ نَزْعَةَ الْآفَاتِ وَالشَّهَوَاتِ
 وَرَسَمْتَ خَارِطَةَ الطَّرِيقِ الْآتِي
 مَا زَالَ عِطْرُ اللَّهِ فِي عَرَفَاتِ
 لَيْلِ الزَّفَافِ إِلَى عَلَا الْعُرْفَاتِ
 غَرَقِي مِنَ الدَّمَعَاتِ وَالْآهَاتِ
 طَارَتْ بِكَ الْأَمْلاكُ لِلجَنَّاتِ
 وَحَلَلْتَ صَيْفَ اللَّهِ فِي الرَّوْضَاتِ
 حَفَلَتْ بِكَ الْأَنْبَاءُ فِي الْقَنَوَاتِ
 فَشَهَادَةٌ وَجَبَتْ لَهُ بِنَجَاةٍ
 وَتَبَشَّرِي يَا أُمَّ بِالذَّرَجَاتِ
 أَنْتِ الْحَيَاةُ تَرْفَعِي بِحَيَاتِي
 مِنْ طَامِحِينَ إِلَى الْعُلَا وَدُعَاةٍ
 نَفْسِي وَدَامَتْ بَعْدَهُ حَسْرَاتِي
 فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ عَطَاءٌ مِثَاتِ



لولا محبته التي في خافقي
لولا سناه يضيء بين جوانحي
هطلت عليه من السماء سحابة
ما فاضت العينان بالعبرات
جف اليراع وأجدبت كلماتي
ملأى بعفو الله والرحمات



قصيدة أولى للشيخ عبد الرؤوف

ابن محمد العبد اللطيف

فاضت وملؤك أشواق لباريها
 فاضت إلى رحمة الرحمن خالقها
 تُظَلُّها من رضى المولى ملائكة
 تحفها في رياض العلم ما فتت
 فاضت عليها عيون العلم والهفي
 تبكي التواضع في أعلى مراتبه
 تبكي على الزهد في الدنيا وزخرفها
 فاضت ولكنها تحيى بأنفسنا
 أحسها بيننا هل تشعرون بها
 كم لذة لي في لقياك أرقبها
 أحببت كل كليمات تفوه بها
 كم همت في (سعد إن) لَمَا طربت لها
 كم رمت وصف أحاسيس أكابدها
 وكم تساءلت هل لي أن أوفيتها
 من بعد ما ناف قرن من تفانيها
 الشوق يحملها والشوق حاديها
 يا طالما رافقتها في مساعيها
 حتى نعاها إلى الأخلاق ناعياها
 كل المعارف قد فاضت مآقيها
 تبكي السماحة في أصفى معانيها
 من عاف زائلها واختار باقيها
 عزمًا وحزمًا وإرشادًا وتوجيها
 أم قد عرّنتني حال لست أدريها
 ونشوة لي في النجوى أرجيها
 عشقت كل خلال كنت تحكيها
 وكم شجّنتني دموع كنت تذرّيتها
 في فقدّه وجراح غاب آسيها
 صفاته الغرّ لكن كيف أوفيتها

في القلبِ ثم أبانتُ عجزَ ناديةِها
 مُقَصِّراً عن معانٍ كان يحويها
 وما أبرَّ عطايا كنت تُعطيها
 فليس إلا على الإحسانِ نُفِيها
 وخدمةُ العِلْمِ من أسمى أمانها
 ونعمةٌ لك بعدَ الله تُوليها
 سَطَّرَتْها أنتِ والأزمانُ تروِيها
 غرسَتْها أنتِ والرحمنُ يسقيها
 وظلَّتْ بالعلمِ والأخلاقِ تبنِيها
 وبتَّ تُمطِّرها علماً وتفقيها
 وامتدَّ وارْفُها واشتدَّ واهيها
 هَدَيْ الكِتابِ يُزَكِّيها ويُنجِيها
 وتاجُها أدبٌ دوماً يُحَلِّيها
 يكاد يرفعني فوقَ السما تِيها
 كواكبُ العِلْمِ أعشَّتْ عينَ شانِيها
 بالعلمِ والفهمِ كم تهَمِي غواديها
 لهم قوافلُ لا يخبو تواليها
 وكلُّ ذلكِ قوسٌ أنتِ باريها
 أضحتْ له هممٌ شمُّ رواسيها

وكم سألتُ قوافي الشُّعرِ فاختمتُ
 وكلما رُمتُ معنيَ جاني خجلاً
 لله نفسُك ما أمضى عزائمها
 نفسٌ على البذل والإحسانِ قد جُبلتُ
 نشرُ الهدايةِ من أعلى مطالبها
 كم من يدٍ لك بيضاء تجود بها
 للتضحياتِ حكاياتُ نُردِّدها
 وللمعارفِ نباتاتُ نمتُ وزهتُ
 ظلَّتْ تعاهدُها كفاك ما سئمتُ
 وبتَّ تغمرُها عطفاً ومرحمةً
 حتى استقامتُ على عودِ التقى وسئمتُ
 وأينعتُ بثمارِ العِلْمِ جلَّ لها
 الدِّينُ والفقهُ والأخلاقُ منهجها
 إنَّ انتسابي لجمعِ أنتِ قائدهُ
 يا سيدي نَمَ قريرَ العينِ مغتبطاً
 أضحتُ جهودُك في التعليمِ مدرسةً
 والحافظون كتابَ الله ما فتئتُ
 وكلُّ ذلكِ زرعٌ أنتِ باذرهُ
 الله يا طالبَ العِلْمِ الشريفِ ومن

وَمَنْ غَدَا لَجَنَانَ الْعِلْمِ مَتَجِعًا
 وَمَنْ حَشَا بِكَلَامِ اللَّهِ مَهْجَتَهُ
 أَبْشُرْ فَإِنَّ الْهُدَى وَالنُّورَ أَجْمَعَهُ
 أَبْشُرْ أَيَا حَافِظَ الْقُرْآنِ مِنْ حَمَلَتْ
 مَنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ الْقُرْآنُ سَاكِنَةً
 اللَّهُ اللَّهُ فِي مَنْهَاجِ سَيِّدِنَا
 اللَّهُ اللَّهُ سَعِيًّا فِي وَصِيَّتِهِ
 الْعِلْمُ فِي أَدَبٍ وَالْفَقْهُ فِي وَرَعٍ
 لَكِي يُرَوِّي صَدَاهُ مِنْ مَغَانِيهَا
 فَأَشْرَقَ الذِّكْرُ فِي شَتَى نَوَاحِيهَا
 أَضْحَى بِنَفْسِكَ لِلْخَيْرَاتِ يَهْدِيهَا
 أَضْلَاعُهُ أَيَّ رَبِّي سَوْفَ تَحْمِيهَا
 آيَاتُهُ سَكَنَتْ رُوحَ الْهُدَى فِيهَا
 فَالزَّمْ طَرِيقَتَهُ وَاغْنَمْ مَعَانِيهَا
 احْذَرْ تَجَاهُلَهَا واحْذَرْ تَنَاسِيهَا
 وَالذِّينُ فِي خُلُقِ أَسْمَى مَبَادِيهَا



قصيدة ثانية للشيخ عبد الرؤوف

ابن محمد العبد اللطيف

في صورةٍ معبِّرةٍ، كادت تعابيرُ الحزنِ والأسى على ملامحِ شيخنا الشيخ أحمد العرفج تنطقُ بفصيحِ الكلامِ بعدَ وفاةِ الشيخِ أحمدَ الدوغان؛ نتيجةً للتعلُّقِ الكبيرِ والحبِّ العظيمِ الذي كان يُكنُّه له، فوضع الشيخُ عبدُ الإله العرفج تساؤلاً على الصورة: «مَن فقدتَ يا شيخنا؟! فقلتُ على لسانِه مجيباً:

لا تَسَلْنِي مَنْ فَقدْتَا	إِنَّ قَلْبِي اليَوْمَ فَتَّأ
كان لي هَمٌّ وحيْدٌ	وهُمُومي الآنَ شَتَّى
مات شيخِي لَهْفَ نَفْسِي	فرايْتُ الكونَ ميْتَا
وغدا النُّورُ ظَلاماً	وانتهى المصباحُ زَيْتَا
وغدا بِشْرِي وُجوماً	وبياني صار صَمْتَا
كان للروحِ حياةٌ	تُنبتُ الإيمانَ نَبْتَا
كان لي حِصناً منيعاً	كان مأوىً كان بيْتَا
لا تَسَلْنِي أنتَ أدري	أَنَّ في الأحشاءِ أمتَا
لا تُقَلْ لي مَنْ فَقدْتَا	إنما قُلْ كيفَ عِشتَا

كلمة الشيخ محمد محمد عوامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

عرفت الشيخ تغمده الله برضوانه منذ خمس وثلاثين سنة برؤية نماذج وبراعم من وروده وأزاهيره، وصرت أسمع أحياناً وأتبع أحياناً أخرى أخباره، ثم تشرفت برؤيته عن قرب ومعاينة، فكان كما قال الإمام الحافظ الثقة علي بن خَشْرَم المتوفى سنة ٢٥٧هـ رحمه الله تعالى:

وأستكبر الأخبار قبل لقاءه فلما التقينا صغَّر الخَبْرَ الخُبْرُ

رأيت هلالاً وأنا في عالم الأرض، لكنه قِمَمَ شامخات في حقيقته، رأيت فرداً تجسَّد فيه العلم وأخلاق العلماء الربانيين، ترى فيه ما شئت من أخلاق العلماء العاملين، كأنه منحة إلهية ادخرها الله عز وجل بكرمه وفضله، لأهل هذا القرن، لكنه في سلوكه من رجالٍ وعلماءٍ مضوا من خمسة قرون. هذا شخصه الكريم.

أما الشيخ في أثره العلمي والعملية، في محيطه: فهو قدوة نادرة المثال،

ويتجلى ذلك في النتائج وخواتيم الأعمال، لقد ربّى رحمه الله تعالى أجيالاً منظمة، ولا أقول: جيلاً، بل أجيال، ووصلت الأجيال الأولى إلى درجة يطمئن الشيخ إليهم في الفتيا تمام الاطمئنان، مع وراثتهم له في العمل وأخلاق العلماء، والحمد لله.

وما تزال هذه الطبقة العليا سائرة على الدرب، متتهجئةً خطى الشيخ. والأركان التي قامت عليها هذه النتائج العظيمة كمّاً وكيفاً، وفي هذا المحيط: أربعة، أولها - وهو أول كل شيء وآخره -: إخلاصه رحمه الله في علمه وتعليمه، وكلمةً أكررها على إخواني طلبة العلم، أقول فيها: لقد أثبتت الأيام والتجارب، أن الإخلاص يصنع العجائب.

وثاني الأركان: الدأب والصبر والمصابرة دون كلل ولا فتور.

وثالثها: الحكمة في العمل والموازنة حركةً وسكناً.

ورابعها: الصمت والبعد عن الإعلان والإعلام، وما تأثر رحمه الله بشكليات عصره، بل كان يعيش عيش السلف في الخلف.

وأهم ما أرجوه من الله تعالى المنعم المتفضل أن يحفظ شيخنا العلامة الرباني الشيخ أحمد الدوغان في (مدرسته) وتلامذته، من عثرات المدارس الأخرى، وأن يديم هذا الفضل والشرف في آل بيته وذريته، وتلامذته وأبنائه الروحانيين. آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه:
محمد عوامة

المدينة المنورة
١٤٣٧/٢/٢ هـ

كلمة السيد الشيخ عمر بن حامد الجيلاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

من العلماء الربانيين المجددين الذين أحيا الله بهم علوم الإسلام: بقية السلف، وبركة الخلف، المعمر في طاعة الله، الفقيه المحرر العابد الزاهد الشيخ أحمد بن عبد الله الدوغان، بلّ الله ضريحه بشآبيب الرحمة والرضوان، وكافأه إزاء ما خدم به العلم وطلابه الكفاء الذي أعده للعلماء المخلصين.

تصدر الشيخ أحمد لتدريس العلم في المدارس والمساجد والمنازل عقوداً من السنين، شاباً وكهلاً وشيخاً معمرأً، لا شغل له ولا همّ إلا نشر علوم الدين والاهتمام بطلابها.

بذل الشيخ جميع أوقاته، واستغرق ساعات أيامه ولياليه في تدريس العلم، بعد فترة قلّت فيها الدروس وضعفت في بلادٍ ازدهرت في الماضي بالعلماء وكثرة المدارس العلمية القديمة، التي مازال أخلاف مؤسسيها قائمين على التدريس فيها من أهل المذاهب الإسلامية المتبوعة.

لقد عرفتُ الشيخَ أحمدَ قبلَ سنواتٍ، وعدادتُ تلكَ المعرفةَ من النعم، ورأيتُ في سمته وعلمه ما ذكرني بمن جَمَلتُ سيرهم كتبَ التراجم، وأذهلني قوة حفظه، فقد جرت في بيته الكريم المراجعة معه في مسألة فقهية، وكان قد ناف عمره على التسعين عاماً، فإذا بالشيخ ينهض ويعود من مكتبته حاملاً نسخة مخطوطة من كتاب فتح الجواد في فقه الشافعية للعلامة ابن حجر الهيثمي، ويشير إلى المسألة في الكتاب.

بعد حياة امتدت قرناً وسنتين رحل الفقيه الشافعي والعالم اللوذعي إلى الدار الآخرة، وترك بعده أبناءه صدوراً في المجتمع الأحسائي، وأخلاقاً صالحين، وأجيالاً من حملة العلم، كلهم يعتبر أن الانتساب العلمي إليه، والتربية السلوكية التي تربطهم به؛ أعلى وأغلى من تلك الشهادات والأوسمة التي يتفاخر الناس بحملها، وقد شيع إلى مقبرة الكوت في جموع لم يشهد لها مثل.

رحم الله الشيخ أحمد وأخلفه على أهله وتلاميذه ومحبيه وعلى البلاد والعباد بالخلف الصالح، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

قاله وكتبه الفقير إلى ربه الغني: عمر بن حامد بن عبد الهادي الجيلاني،
مكة المكرمة.



كلمة الشيخ د. محمد أبو الفتح البيانوني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فقد أكرمني الله عز وجل في أواخر الثمانينيات بزيارة عزيزة عليّ لا أنساها إلى بلدة الأحساء بغية التعرف عن كثب على فضيلة الشيخ العلامة والعالم الرباني والمربي المرشد: الشيخ أحمد الدوغان رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء فالتقيت به أياماً في البلدة الطيبة وسعدت كثيراً بالتعرف عليه وعلى ثلة كريمة من أبنائه وأحابه، فرأيت فيه صورة عن بقية السلف الصالح الذين نقرأ عنهم ونسعد بمعرفة أخبارهم، وليس المخبر كالمعادين!

فقد كان - رحمه الله - مرشداً بحاله أكثر من مقاله، يزينه التواضع الجرم، مع الحلم ورحابة الصدر، مما انعكس على سلوك أبنائه وأحابه والحمد لله، يعنى بالعلم والعمل، ويحرص على الالتزام والتطبيق، حرصه على التعليم والتثقيف.

وقد ذكرني حاله بحال والدي وشيخي الشيخ أحمد عز الدين البيانوني الذي كان مضرب المثل في ذلك بين أحابه وأقرانه من شيوخ العصر، مما زاد

محبتة في نفسي، وحرصني على اللقاء بأبنائه ومريديه، وجعلني أذكره في دعائي له بعد وفاته يومياً في كل تهجد عند ذكرى لوالدي وكثير من شيوخ رحمة الله جميعاً إلى اليوم.

كما جعلني أشتاق إلى مجالسة أبنائه وأحبابه، ومذاكرتهم في شؤون الدعوة والعمل، فأغتنم الفرص في ذلك كلما قدر الله لي اللقاء ببعضهم هنا أو هناك، وفقهم الله وزادهم من فضله، وجعلهم خير خلف لخير سلف، يتوارثون حاله ويورثونه فيمن حولهم، فما أحوج أمتنا اليوم إلى تلك النماذج القدوة العملية الصالحة، وما أقلها في عصرنا، فإن أمثال هؤلاء الأعلام أمان لنا في حياتنا من الفتن المضلات، كما كان ﷺ أماناً لأمته، فهم ورثة الأنبياء حقاً، والأمانة على هذا الإرث المبارك الذي ورثناه إياه رسولنا ﷺ.

أسأل الله عز وجل أن يديم نفعه ويعم بركته على أبنائه وأحبابه خاصة، وعلى المسلمين عامة وأن يبارك فيهم فيوثق أخوتهم ومحبتهم فيه، ويجعلنا جميعاً من المتحابين فيه والمتعاونين فيه، الذين يجتمعون عليه ويفترقون عليه، وأن يقرّبنا عيون شيوخنا، ويجمعنا معهم في عليين، مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وأن يرزقنا محبتهم الصادقة التي تؤهلنا لأن نحشر معهم، إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.

كتبه محب الشيخ:
محمد أبو الفتح البيانوني

إزمت - تركيا
في ٢ شوال ١٤٣٥ هـ - ٢٩/٧/٢٠١٤ م

كلمة الشيخ د. عبد المجيد بن أسعد البيانوني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد؛ فقد كان لي شرف التعرّف على العلم الربّانيّ، العالم العامل، المرّبّي الفاضل، الداعية الشيخ أحمد الدوغان الأحسائيّ، وأكرمني الله تعالى بالمثل بين يديه، وحضور مجالسه، والتتلمذ عليه في زيارات متعدّدة لمدينة الأحساء.

وقد كنت في كلّ مرّة ألتقيه أتذكّر مجالس بعد العهد بها، لشيخنا وأستاذنا الفاضل، الداعية المرّبّي الشيخ أحمد عزّ الدين البيانونيّ، رحمه الله تعالى، وأعلى مقامه عنده، وذلك أنّني وجدت تشابهاً كبيراً بين الرجلين ومنهجهما، فهما أحمدان في الاسم، ومنهجهما نبويّ محمّديّ من حيث المعنى.

لقد تجلّت في منهج الشيخ رحمه الله ثلاثة أصول كبرى، ورأيها في شخصه، وفي تربيته لتلامذته:

- ١ - حمل رسالة العلم وتبليغها.
- ٢ - الحرص على العمل بالعلم، والتربية والدعوة، وإحياء صفات الربّانيّة.
- ٣ - إحياء السنّة النبويّة وآدابها والمحافظة عليها.

فقد كان أهمّ معلّم من معالم منهجه تعليم العلم الشرعيّ، ونشره في كلّ

فئات الأمة، وفق أسلوب تربويّ متدرّج، يبدأ بالأهمّ فالهمّ، ويراعي سنّ الطالب ومستواه، ويحبّب العلم لطالبيه، ويجعله يطلب منه المزيد، ولا ينقطع عنه.

وقد كان منهج الشيخ العلميّ يقوم على الوسطيّة في الفهم، والبعد عن التعصّب، والحرص على اجتماع الكلمة، وسعة النظر في فهم اختلاف العلماء والمجتهدين، وهذا هو المنهج الحقّ للسلف، الذي كان عليه كبار أئمّة الدين.

وكان التواضع في حياة الشيخ طبعاً بغير تكلف، يعلم ذلك عنه كلّ من تعرّف عليه وخالطه.

وكّل الصفات الربّانيّة كانت مشهودة في حياة الشيخ للقريب والبعيد، وقد علم منها تلامذته ومحّبّوه وشهدوا الكثير الكثير من المواقف والنماذج.

وأما إحياء السنّة النبويّة وآدابها والمحافظة عليها؛ فقد كان سمّاً ظاهراً في حياة الشيخ الشخصيّة، وسلوكه اليوميّ، ومنهجه الدعويّ والتربويّ، وترى نماذجه المتألّقة في أبنائه البررة، وتلامذته الكرام، وفي توجيهاته المأثورة التي تحرص على أن يكون الشباب الناشئ متشبّعاً بحبّ رسول الله ﷺ وإحياء سنّته، وما أصدق الكلمة المأثورة فيهم: «من ثمارهم تعرّفونهم»!

ويكفيك أخي القارئ الكريم نموذجاً من حياة الشيخ تراه منه صباح مساء.. إنّه المحافظة على صلاة الجماعة، وفي الصفّ الأوّل، مع كبر سنّه ووهن جسمه.. إنّها التربية بالعمل والقدوة.

هذه الأصول التي قام عليها منهج الشيخ رحمه الله، وصدقه مع الله وإخلاصه، هي سرّ القبول الذي وضعه الله له في قلوب العباد، وسرّ نجاح

عمله وتألقه، وتأثيره وامتداده، وما كان له من آثار طيبة، يشهد بها كل من عرفه،
وعرف المجتمع الذي عاش فيه.

رحم الله الشيخ أحمد الدوغان، ورفع مقامه عنده، وجعله مع النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين، بما قدم لدينه وأُمَّته، ووفق أولاده وإخوانه
ومحبّيه للثبات على منهجه، والسير على سننه راشدين مهديين، ليبقى منهج
العلم والعمل، والتربية والدعوة موصولاً متجدّ العطاء والتأثير، والحمد لله
أولاً وآخرًا.



كلمة الشيخ عبد الله ابن عبد الرحمن بو عيسى العمير

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله
وصحبه ومن والاه.

وبعد؛

فقد كان الشيخ أحمد الدوغان رحمه الله تعالى منذ صغره طالب علم،
يتميز بالطيبة والعفاف والكفاف، درس عند مشايخنا الكبار من أهل الأحساء
كالشيخ محمد بن حسين العرفج والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف العمير وغيرهما،
وقام بتدريس المذهب الشافعي بعدهم رحمهم الله جميعاً.

إلا أن الفرق الذي بيننا في العمر لم يجعلني أجتمع معه في دروسه عند
المشايخ، لكن كانت تجمعتنا لقاءات كثيرة على عادة أهل الأحساء.

ولما كان الله تعالى قد منّ عليّ بالتميز في علم الفرائض، وكان الشيخ
أحمد رحمه الله يحب الفرائض محبة كبيرة، كانت لي معه رحمه الله جلسات
كثيرة، نلتقي فيها لتدارس هذا العلم، وكانت تعجبه بعض الطرق التي أتبعها في
حل المسائل وقسمة التركات، واستفاد رحمه الله منها، وكان رحمه الله لإنصافه
وفضله إذا سأله شخص في علم الفرائض قال له: اذهب للشيخ عبد الله بو عيسى.

وكان الشيخ رحمه الله حسن المعشر، صاحب طرفة ودعابة، يمازح جلساءه ويؤانسهم، فمن ذلك أنه لما سافر إلى الهند لطلب الرزق اجتمع بالسيد عبد الله بن السيد أحمد الخليفة هناك، ونعم الصاحبان كانا في تلك البلاد، وكان السيد إذ ذاك مؤذناً في أحد المساجد، وكان الشيخ يزوره في مسجده الذي يؤذن فيه كثيراً، فربما صادف وقت زيارة الشيخ له موعد إحضار ناظر المسجد طعام الغداء له، فيتغدى الشيخ أحمد معه، فيمازحه السيد عبد الله قائلاً: أكلت غدائي يا شيخ أحمد! فيضحك الشيخ، ويرد عليه مقابلاً مداعبته بمثلها: يا سيد، أنا وأنت واحد.

رحم الله تلك النفوس الطيبة المتحابة المتصافية رحمة واسعة، وجمعنا بهم ومشايخنا في مستقر رحمته ودار كرامته.



كلمة الشيخ عبد الرحمن بن أحمد الملا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

الشيخ أحمد بن عبد الله الدوغان عالم جليل فاضل، تقي ورع، له سمعة طيبة عند القريب والبعيد، يصدق فيه قول الشاعر:

أَنْزَهَهَا عَنْ بَعْضِ مَا لَا يَشِينُهَا مَخَافَةَ أَقْوَالِ الْعِدَا فِيمَ أَوْ لَمَّا
وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لَاحَ لِي يَسْتَفْزُنِي وَلَا كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ أَرْضَاهُ مُنْعَمًا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ وَلَوْ عَظَمُوهُ فِي النُّفُوسِ لِعُظِّمًا
وَلَكِنْ أَهَانُوا فَهَانُوا وَدَنَسُوا مَحِيَاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجْهَمَا

ولد الشيخ أحمد رحمه الله في محلة المرابدة بحي الكوت سنة ١٣٣١ هـ، وأدخل عند الشيخ أحمد بن عبد العزيز بن قرين لتعلم القرآن في مدرسة العثمان الواقعة بجوار الجبيري، فحفظ القرآن، وتعلم الكتابة والخط والحساب، ثم لازم الشيخ محمد بن حسين بن عرفج وقرأ عليه الفقه، وكذلك الشيخ أحمد بن علي ابن محمد بن عرفج، ثم اتصل بالشيخ عبد العزيز العلجي وقرأ عنده العربية،

ومكث عنده مدة مع جملة من مشايخ أهل الكوت، ثم أخذ من الشيخ عبد الله ابن عبد اللطيف العمير.

سافر رحمه الله في شبابه إلى الهند لطلب الرزق، والتقى هناك بالشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الملا صاحب المكتبة، وجاسم بن عيسى بن نصر الله من أهل الكويت، وقد سألتني ابن نصر الله عن الشيخ أحمد قبل وفاته بقليل، فأخبرته عن مرضه، فقال ابن نصر الله يخاطب نفسه: يا جويسم، ما بقيت إلا أنت، فتوفي قبل الشيخ رحمهما الله في الكويت، وابن نصر الله درس في الرباط، وقرأ عند الشيخ العلجي.

وآخر من بقي من طلاب الشيخ العلجي: الشيخ أحمد الدوغان وابن نصر الله والأخ عبد اللطيف والشيخ عبد الوهاب الفضل من أهل جليجلة.

ثم بعد رجوعه من الهند طلبه بنو خالد في جزيرة عنك في الخليج العربي حيث كان مقدمهم ابن مجدل يزورنا دائماً، وقد دخل يوماً مجلس عمي الشيخ عبد الله، وكان من الحاضرين والدي وعبد العزيز بن محمد بن جلوي، فدخل ابن مجدل مع أصحابه، وقال لنا: هذا نسيبي أبو زوجتي يقال له: درباس من بني خالد، فدعاهم والدي في اليوم التالي، فأتوا على العشاء، فقال ابن مجدل للوالد: يا شيخ، نحن فقراء في القطيف، ما عندنا طلبة علم، ونحن نحتاج طالب علم، يعقد بنا، ويصلي بنا، فمن عندكم من أهل العلم في الأحساء؟

فوضع الوالد نظره على الشيخ أحمد الدوغان، وكان شاباً يقرأ عند الشيخ عبد الله بن عمير، فأرسلوا في طلب الشيخ أحمد، فحضر، فقال له الوالد: يا شيخ، الجماعة يريدون إماماً، فهل تحب الذهاب للقطيف؟ وكانت مسافتها ثلاثة أيام، فوافق الشيخ رحمه الله، وذهب معهم، فدرسه في المسجد وأحبوه كثيراً.

وكان يرجع من عنك كل سنة مرة واحدة لمدة شهر، وفي إحدى السنوات رأيتَه وهو راجع من عنك فقلت له: يا شيخ، القهوة الليلة أو القابلة، فقال: القابلة، فسألني: مع من آتي؟ فقلت له: مع من تحب، فأخبر الشيخ أحمد بن عبد الله الجعفري والشيخ عبد اللطيف البراهيم العرفج والشيخ عبد العزيز العبيد الله، فجاءوني العشاء في أيام صيف، فكنت أجهز لهم القهوة، ووضعتها لأطحنها، وكان بيت الرحي فيه شاي، وخرجت قليلاً، فقام الشيخ أحمد فطحن القهوة ووضعها على الشاي، فلما صببنا القهوة رأيناها حمراء، فقال لي الشيخ أحمد: قهوتك محترقة! فقلت: أين الشاي الذي في بيت الرحي؟ فقال الشيخ رحمه الله: أحسن ما يكون الشاي والقهوة جميعاً، فشربوها رحمهم الله.

وقد درس الشيخ رحمه الله في مدرسة الهفوف بعد وفاة الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ محمد بن الشيخ حسين العدساني، وكان الشيخ عبد الرحمن مختصاً في علم التجويد، فأخذ الشيخ مكانه حتى تقاعد، ولما توفي الشيخ محمد بن أحمد العبد اللطيف ولم يبق أحد من المشايخ فتح الشيخ أحمد رحمه الله الدرس في مسجد العبد اللطيف، ودرس الفقه والفرائض والنحو، وكان رحمه الله يحب الطلبة الذين يقرؤون عنده ويهتم بهم.

كان الشيخ رحمه الله يزور والدي رحمه الله والشيخ محمد العبد اللطيف، يزور الشيخ عبد الله بن عمير في النعائل، والشيخ عبد الله الحمد العكلي في المبرز وآل مبارك في الأعياد وغيرهم، وكان يزورنا دائماً ونزوره، وكنت أذهب للصلاة في مسجد العبد اللطيف لأجله.

وكان يوم وفاته احتفاءً عظيماً، فتذكرت دفن الشيخ أبوبكر بحضور الأمير سعود بن جلوي، رحمه الله تعالى.

الخاتمة

هذا هو الشيخُ أحمدُ بنُ عبدِ الله الدوغان رحمه الله، رجلٌ عاشَ لله وبالله وفي الله، تعلَّم وعَلَّم، وجدَّ واجتهد، وصَبَرَ وغَفَرَ، ورَبَّى وزكَّى، ثم مَضَى شخصُه، وبَقِيَ أثرُه، وكانَه يقول:

قد مات قومٌ وما ماتت مكارمهم وعاش قومٌ وهم في الناسِ أمواتٌ
ويقول:

موتُ التَّقِيِّ حياةٌ لا انقطاعَ لها قد مات قومٌ وهم في الناسِ أحياءُ
ويقول:

يموتُ وما ماتت كرائمُ فعله ويَبَلَى وما يَبَلَى ثناءه على الدَّهْرِ
ويقول:

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّفْضِيلِ أَكْفَاءُ أَبُوهُمُ آدَمُ وَالْأُمَّ حَوَاءُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ فِي أَصْلِهِمْ شَرَفٌ يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطَّيْنُ وَالْمَاءُ
مَا الْفَخْرُ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّهُمْ عَلَى الْهُدَى لِمَنْ اسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ
وَقِيْمَةُ الْمَرْءِ مَا قَدْ كَانَ يُحْسِنُهُ وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ
فِعْشٌ بَعْلِمٍ تَفْزَحِيًّا بِهِ أَبَدًا النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ

وأقول: إن شاء الله، إننا على العهد ثابتون، وفي الطريق سائرون، والحمد لله

رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِهِ الْأَمِينِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَاجْعَلْنَا اللَّهُمَّ مِنْهُمْ وَفِيهِمْ
وَمَعَهُمْ يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ.

* * *

سُلَّم المدرسة الشافعية

اهتمَّ الشيخُ بتدريسِ جميعِ العلومِ الشرعية، ووَضَعَ لها سلالِمَ متدرجة، تهدي كلُّ درجةٍ إلى ما بعدها، إلا أنَّ عنايتهَ الكبرى كانت بعلمِ الفقه - وعلمِ الفرائضِ جزءٌ منه -، فقد كان يراه أهمَّ العلوم؛ لشدةِ حاجةِ الناسِ له، فوَضَعَ له سلماً تخصصياً، يتخرج به طالبُ العلمِ فقيهاً متخصصاً.

ثم وَضَعَ الشيخُ لعدةِ علومٍ سلالِمَ مفيدة، يتخرج بها طالبُ العلمِ عالماً مشاركاً فيها ومُطَّلعاً عليها، كعلمِ أصولِ الفقه وقواعده ومصطلحِ الحديث والنحو.

واعتنى الشيخُ ببعضِ العلوم - كالتفسيرِ والحديثِ والسيرةِ النبوية - ببعضِ كتبها المشهورة؛ لكيلا يخلو طالبُ العلمِ من فوائدها وفرائدها، بدون وَضَعِ سلالِمَ لها.

ونتيجةً لهذا التنوعِ العلمي الذي حرصَ الشيخُ أن يُنشِئَ عليه طلابه، فقد اتجهتْ همّةُ كثيرٍ منهم للاستزادةِ من بعضِ هذه العلوم، فواصلوا تحصيلهم عند مشايخٍ آخرين لهم عنايةٌ أكبرُ بها، فأضافوا إلى ما تعلَّموه من الشيخِ علوماً أخرى، كان له فضلٌ تنبيههم إليها وحرصهم عليها، فغدا الشيخُ وطلابُه مدرسةً شرعيةً، تحتوي على كثيرٍ من العلومِ الشرعيةِ واللغويةِ المتخصصةِ.

أولاً: الفقه

يوجد في كل مستوى عدة كتب، درّس الشيخ بعضها في الدرس العام بعد صلاة العشاء، وبعضها بعد صلاة الإشراق، وبعضها في دروس خاصة لبعض الطلاب.

الدرجة	الكتاب
١	متن الغاية والتقريب لأبي شجاع الأصفهاني مسائل التعليم - المقدمة الحضرمية - لبافضل الحضرمي
٢	عمدة السالك وعدة الناسك لابن النقيب المصري شرح متن أبي شجاع لابن قاسم الغزي مع حاشية الباجوري
٣	مواهب الصمد شرح متن الزيد للفشني المنهاج القويم شرح مسائل التعليم لابن حجر الهيتمي كفاية الأختيار في حل غاية الاختصار لتقي الدين الحصني
٤	الإقناع شرح متن أبي شجاع للخطيب الشرييني شرح التحرير للقاضي زكريا الأنصاري
٥	منهاج الطالبين للإمام النووي فتح المعين شرح قرّة العين للمليباري مع حاشية إعانة الطالبين لأبي بكر شطا
٦	فتح الوهاب شرح منهج الطلاب للقاضي زكريا الأنصاري أسنى المطالب شرح روض الطالب للقاضي زكريا الأنصاري تحفة المحتاج شرح المنهاج لابن حجر الهيتمي فتح الجواد لابن حجر الهيتمي

ثانياً: الفرائض

الدرجة	الكتاب
١	خير الحديث في علم المواريث لعبد الله بارحاء
٢	شرح متن الرحبية لبدر الدين سبط المارديني الفوائد الشنشورية شرح متن الرحبية لعبد الله الشنشوري مع حاشية الباجوري
٣	فتح القريب المجيب شرح الترتيب لعبد الله الشنشوري

ثالثاً: قواعد الفقه

الدرجة	الكتاب
١	إيضاح القواعد الفقهية لعبد الله اللحجي
٢	الأشباه والنظائر للسيوطي

رابعاً: أصول الفقه

الدرجة	الكتاب
١	شرح ورقات إمام الحرمين لجلال الدين المحلي
٢	غاية الوصول شرح لب الأصول للقاضي زكريا الأنصاري
٣	الرسالة للإمام الشافعي

خامسًا: مصطلح الحديث

الكتاب	الدرجة
شرح البيقونية لحسن مشاط	١
شرح البيقونية لعبد الله سراج الدين تيسير مصطلح الحديث للطحان	٢

سادسًا: النحو

الكتاب	الدرجة
الآجرومية لابن آجروم	١
شرح الآجرومية لأحمد زيني دحلان متممة الآجرومية للرعييني الخطاب	٢
قطر الندى وبَلُّ الصدى لابن هشام الأنصاري	٣
شرح ألفية ابن مالك لابن عقيل	٤

سابعًا: التفسير وعلوم القرآن

١- التبيان في آداب حملة القرآن للإمام النووي.

٢- مختصر تفسير ابن كثير.

٣- تفسير البغوي.

ثامناً: الحديث

- ١- زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم للشنقيطي.
- ٢- المجالس السنّية شرح الأربعين النووية للفشني.
- ٣- الأذكار من كلام سيد الأبرار للإمام النووي.
- ٤- فتح المبدي للشرقاوي شرح مختصر صحيح البخاري للزبيدي.
- ٥- بهجة النفوس لابن أبي جمرة شرح مختصره لصحيح البخاري.
- ٦- شرح صحيح مسلم للإمام النووي.

تاسعاً: السيرة النبوية

- ١- الشفا للقاضي عياض.
- ٢- مختصر سيرة ابن هشام.
- ٣- فقه السيرة للبوطي.

* * *

ملحق الصور



الشيخ في مراحل مختلفة من حياته







الشيخ في مجلسه العامر
في حي المزروع، ويظهر
عن يمينه الشيخ محمد بن
أحمد العلي العرفج، وعن
شماله المؤلف، وفي الخلف
الشيخ عبد الله الفلاح، وفي
الخلف الابن أنس بن حسين
العدساني



الشيخ في مجلسه العامر في حي
المزروع، وقد جرت العادة عند ختم
أي كتاب أن يُقرأ الدرس الأخير في
حضرته، ويظهر عن يمينه الابن
محمد بن المؤلف ثم المؤلف،
وعن شماله الشيخ د. أحمد بن
عبد اللطيف البراهيم العرفج

الشيخ في مجلسه العامر
في حي المزروع، ويظهر
في الصورة الشيخ د. عصام
ابن عبد العزيز الخطيب
والشيخ د. ناصر اللوغانى
من الكويت



الشيخ في مجلسه العامر
في حي الخالدية، ويظهر
عن يمينه السيد إبراهيم
ابن عبد الله الخليفة، وعن
شماله الشيخ عصام بن
عبد العزيز الدوغان

الشيخ في مجلسه
العامر في حي
الخالدية، ويظهر عن
يمينه المؤلف والشيخ
د. محمد بن عبد الله
الدوغان، وعن شماله
الشيخ عبد العزيز بن
عبد الله الجغيمان



الشيخ في مسجد جواثا الأثري،
ويظهر عن يمينه المؤلف، وعن
شماله الشيخ عبد الله بن عبد العزيز
الفلاح والشيخ طلال بن محمد
العرفج والشيخ د. أحمد بن
عبد اللطيف البراهيم العرفج،
ووقوفاً الشيخ عبد اللطيف بن
عبد العزيز العصفور والأبناء
صهيب بن خالد العدساني وإبراهيم
ابن عبد الرحمن الشعبي والسيد
عبد العزيز بن عبد الله الخليفة

لقطة أخرى للصورة السابقة، ويظهر فيها - إضافة لمن سبق - الابن عبد الله ابن عبد العزيز الدوغان واقفاً



كان الشيخ يكرر زيارة مسجد جواتا الأثري، ويظهر عن يمينه الشيخ وليد بن عبد اللطيف البراهيم العرفج والشيخ عبد العزيز بن الشيخ، وعن شماله الشيخ عبد الله ابن عبد العزيز الفلاح

الشيخ وخلفه ابنه الشيخ
عبد العزيز وبعض طلابه



الشيخ يتوسط ابنه
د. عبد الله وسبطه
د. فهد بن أحمد
النعيم

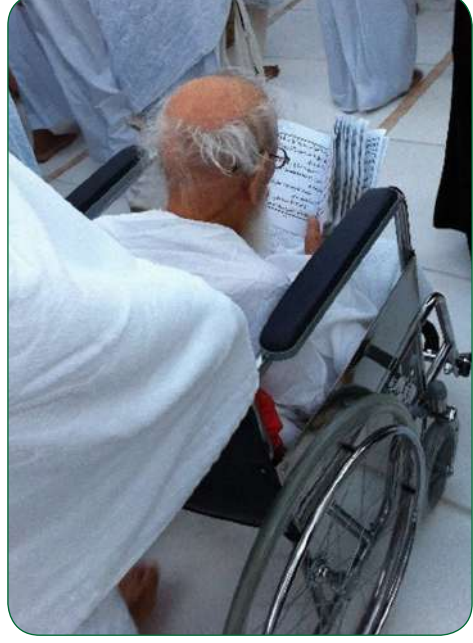
الشيخ مع سبطه الشيخ
باسم بن أحمد النعيم



الشيخ مع سبطه الشيخ
د. فهد بن أحمد النعيم



الشيخ يتوسط تلميذه
المؤلف والعم محمد بن
عبد الرحمن العثمان



الشيخ في الحرم المكي

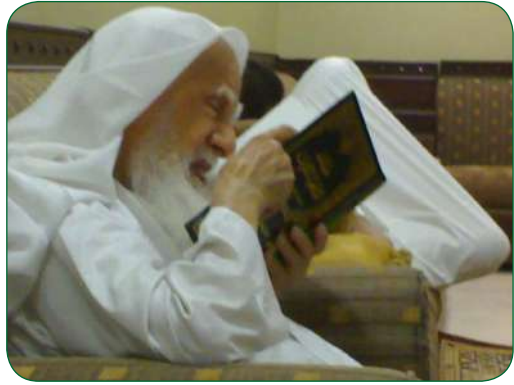


الشيخ في الحرم النبوي

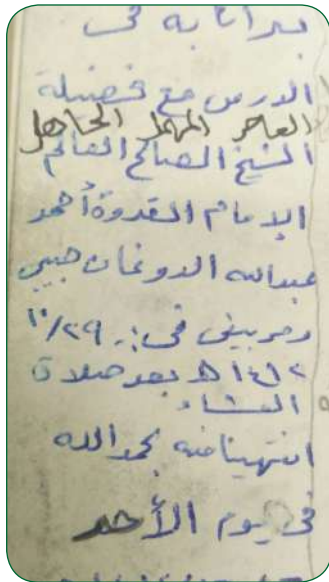




مع الكتاب ١



مع الكتاب ٢



نموذج من تواضع
الشيخ



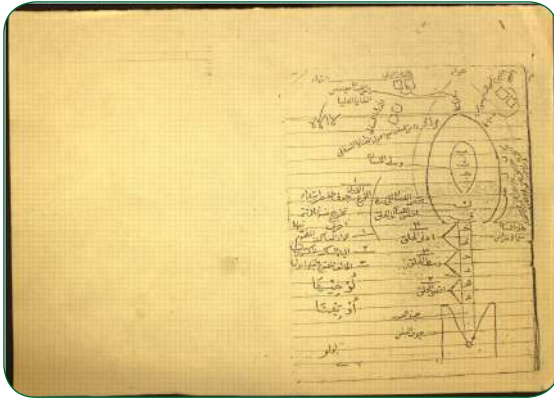
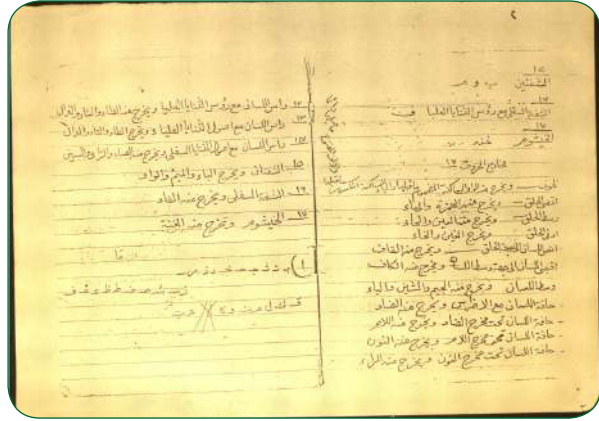
جنازة الشيخ ١



جنازة الشيخ ٢

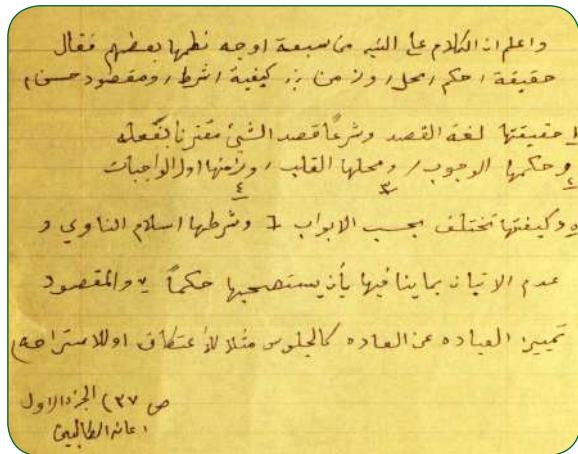


خط الشيخ لمخارج
الحروف ١



خط الشيخ لمخارج
الحروف ٢

خط الشيخ لأحكام
النية



فائدة: فمن بعد ر لا كمال العا تحم بلا منلثة اركان طرل
 ان رمب ضبط اللذي سربا عذر
 حتى له ثلاث اركان غير
 من قرأة لعجزه ... بطي
 او شك ان قرأ ومن لهنسي
 ورضف موافقاً لسنة عدل
 ومن لسكته انتظاره حصل
 من نام في تشهد او اختلط
 عليه تكبير الامام ما انضبط
 كذا الذي يكمل التشهدا
 بعد امام قام منه قاصدا
 والخلف في او اخر المسائل
 محققا فلا تكن جفا نل

خط الشيخ لأعداد
 التخلف عن الإمام



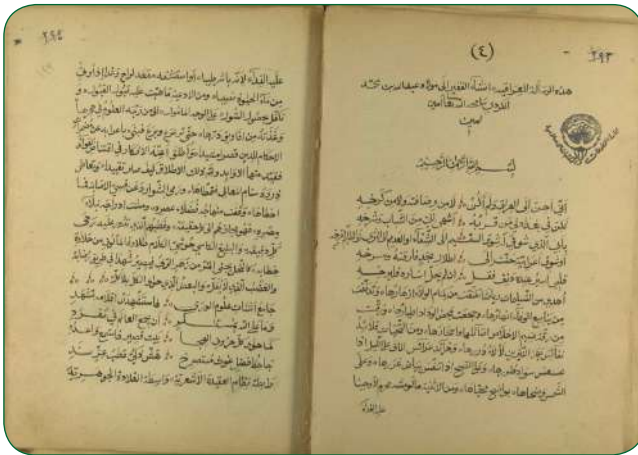
المقدمة

قال الفقير عمر بن الوردي ، الحمد لله أتم الحمد
 وأفضل الصلاة للأجباب ، محمد وآل والأصحاب
 وبعد فالعلم عظيم المنزلة ، قد امطس الله خيار الخلق
 والعمرين تحصيل كل علم ، يقصر فائدة منه بالأهم
 وذلك الفقه فان منه ، ما لا غف في كل حال منه
 وليس في مذهبا كالحاروي ، في الجمع والإيجاز والفتاوي
 وكنت ممن حله وأثقتة ، في الحفظ والفهم بان ما أكتة
 فاخترت أن أنظمه كالسراج ، أرجو به دعوة عبد صالح
 يزيد عن خمسة آلاف غرر ، فيه زيادات اليرب يعقتر
 منبراً بقلت في اليسير ، منرا ودون قلت في الكثير
 وفيه من قاضي القضاة البارزي ، شيعي تسمات الجمال البارز
 لا خشوفيه حسب الإمكان ، وإنما جميعه معافب
 وإن يكن حشو فذاك نادر ، يهرفه إلى المعاني الماهر

خط الشيخ
 للبهجة الوردية

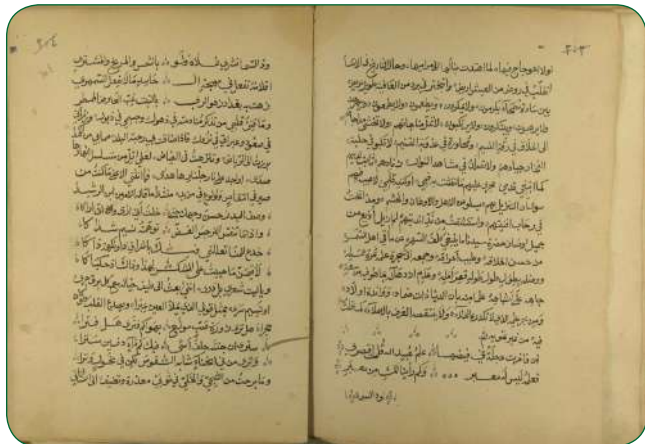


مخطوط فتح الجواد لابن حجر الهيثمي الشافعي



رسالة الشيخ عبد الله البيتوشي الكردي الشافعي ١

رسالة الشيخ عبد الله البيتوشي الكردي الشافعي ٢



المؤلف يتوسط اثنين من
كبار طلاب الشيخ وهما
الشيخ عبد اللطيف بن
عبد الله السعيد العرفج
والشيخ د. أحمد بن
عبد اللطيف البراهيم
العرفج



الشيخ د. أحمد بن عبد اللطيف
البراهيم العرفج

الشيخ أحمد بن عبد اللطيف
الملا الحنفي (١٣١٣-١٤٠٢)
والشيخ عبد الله بن فهد أبو شبيب
المالكي (١٣١٨-١٤٠٣)



الشيخ أحمد بن عبد الله الخطيب
الشافعي (١٣٤٠-١٤٢٩)

الشيخ أحمد بن عبد الله بن أبي بكر
الملا الحنفي (١٣٥٠-١٤٣٩)



الشيخ أحمد بن محمد السيد
الهاشم الشافعي (١٣٣٤-١٤٢٦)

الشيخ السيد عبدالرحمن بن أحمد
الهاشم الشافعي (١٣٠٨-١٣٨٧)



الشيخ القاضي أحمد بن عبد العزيز
آل الشيخ مبارك المالكي
(١٣٢٦-١٤٠٩)



الشيخ القاضي عبدالرحمن
ابن عبد الله العمير الشافعي
(١٣٣٩-١٤٢٣)

الشيخ القاضي عبد العزيز
ابن يحيى اليحىي الحنبلي
(١٣٤٧-١٤٣٤)



الشيخ القاضي عبد اللطيف
ابن عبد الله العبد اللطيف
الشافعي (١٣٣١-١٤٠٩)



الشيخ القاضي محمد بن عبد الرحمن
الخطيب الشافعي (١٣٣١-١٤١٩)



الشيخ القاضي محمد بن عبد اللطيف
الملا الحنفي (١٣٥٣-١٤٢٨)



الشيخ القاضي محمد بن
عبد الله العبد القادر الشافعي
(١٣٩١-١٣١٢)



الشيخ حسن بن حسين
العبد القادر الشافعي
(١٤١٠-١٣٢٨)

الشيخ عبد الرحمن بن
أبي بكر الملا الحنفي
(١٤٢١-١٣٢٣)



الشيخ عبد الرحمن بن
عبد الله العبد اللطيف
الشافعي (١٣٢٤-١٤٢٩)



الشيخ عبد الرحمن بن
محمد العثمان الشافعي
(١٣١٥-١٤٠٩)



الشيخ عبد الرحمن بن
محمد الملحم المالكي
(١٣٤١-١٤٣٢)



الشيخ عبد العزيز بن
محمد العبيد الله الشافعي
(١٣١٨-١٤٠٨)



الشيخ عبد اللطيف بن
عبد الرحمن الحسين
العرفج الشافعي (١٣٢٥-
١٤٠٩)

الشيخ عبد اللطيف بن
عبد الله البراهيم العرفج
الشافعي (١٣٤٢-
١٤١٦)



الشيخ عبد اللطيف بن
محمد النعيم الشافعي
(١٣٣٤-١٤١٨)



الشيخ عبدالله بن صالح
العمر الملحم المالكي
(١٣٤٠-١٤١٨)



الشيخ عبد الله بن
عبد الرحمن الملا الحنفي
(١٣٣٤-١٤٢٨)



الشيخ عبدالله بن
عبد اللطيف آل الشيخ
مبارك المالكي (١٣٢٢ -
١٣٩٤)



الشيخ عبد الله بن محمد
الرومي المالكي (١٣٣٧ -
١٤٣٩)

الشيخ عبد الله بن محمد
العبد اللطيف الشافعي
(١٣٣٩ - ١٤٣١)



الشيخ عبد الله بن
محمد العكلي المالكي
(١٣٢١-١٤١٠)



الشيخ عبد الله بن محمد
المبارك العرفج الشافعي
(...-١٣٥٦)

الشيخ في زيارة للشيخ
أحمد بن علي آل الشيخ
مبارك المالكي (١٣٣٧-
١٤٣١)



الشيخ محمد بن إبراهيم
آل الشيخ مبارك المالكي
(١٣٢٠-١٤٠٤)



الشيخ محمد بن أبي بكر
الملا الحنفي (١٣٢٢-
١٣٩٥)

الشيخ محمد بن
عبدالرحمن العرفج
الشافعي (١٣٣٦-
١٤١٩)



الشيخ محمد بن
عبد الرحمن العمير
الشافعي (١٣٣٥ -
١٤١٦)



الشيخ محمد بن عبد الله
ابن أبي بكر الملا الحنفي
(١٣٤٥ - ١٤٣٣)

الشيخ يوسف بن راشد
آل الشيخ مبارك المالكي
(١٣١٨ - ١٤١٦)



فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الطبعة الثانية
٩	تقريظ الشيخ يحيى بن محمد بن أبي بكر الملا الأحسائي الحنفي
١٢	تقريظ الشيخ د. قيس بن محمد آل الشيخ مبارك الأحسائي المالكي
١٤	تقريظ الشيخ د. أحمد بن عبد اللطيف العرفج الأحسائي الشافعي
١٦	تقريظ الشيخ عبد المحسن بن محمد البنيان الأحسائي الحنبلي
١٩	مقدمة المؤلف
٢٣	الفصل الأول: المكان والزمان
٣١	الفصل الثاني: السيرة الشخصية
٤٦	الفصل الثالث: تأسيس المدرسة
٦٥	الفصل الرابع: أخلاق الشيخ
٦٥	١. الإخلاص
٧٥	٢. الورع
٨١	٣. التواضع
٨٨	٤. الحلم
٩٠	٥. الصبر
٩٢	٦. الرحمة
٩٦	الفصل الخامس: الشيخ المعلم
١٢٢	السند العلمي

الصفحة	الموضوع
١٢٥	الفصل السادس: الشيخ المرَبِّي
١٤٥	الفصل السابع: الشيخ الداعية
١٥٧	الفصل الثامن: وفاة الشيخ
١٦١	الفصل التاسع: الشيخ في عيون محبيه
١٦١	قصيدة ابنه الشيخ د. محمد بن الشيخ أحمد الدوغان
١٦٤	قصيدة أولى للشيخ عبد الرؤوف بن محمد العبد اللطيف
١٦٧	قصيدة ثانية للشيخ عبد الرؤوف بن محمد العبد اللطيف
١٦٩	كلمة الشيخ محمد محمد عوامة
١٧١	كلمة السيد الشيخ عمر بن حامد الجيلاني
١٧٣	كلمة الشيخ د. محمد أبو الفتح البيانوني
١٧٥	كلمة الشيخ د. عبد المجيد بن أسعد البيانوني
١٧٨	كلمة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بو عيسى العمير
١٨٠	كلمة الشيخ عبد الرحمن بن أحمد الملا
١٨٣	الخاتمة
١٨٥	سلم المدرسة الشافعية
١٩١	ملحق الصور
٢٢١	فهرس المحتويات





عبدالإله بن حسين بن محمد العرفج:

مواليد الأحساء / السعودية، في ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

أستاذ مشارك بجامعة الملك فيصل بالأحساء.

مؤلفات وبحوث

• مفهوم البدعة وأثره في اضطراب الفتاوى المعاصرة (كتاب).

• المناهج الفقهية المعاصرة: عرض وتحليل (كتاب).

• أضواء على الحياة العلمية في الأحساء (كتاب).

• الشيخ أحمد الدوغان: مجدد المدرسة الشافعية (كتاب).

• ليتفقها في الدين (كتاب).

• البيئات في دروس رمضان وعشر ذي الحجة (كتاب).

• الأربعون الرمضانية (كتاب).

• ليلة النصف من شعبان (كتاب).

• التيسير في الشريعة الإسلامية (كتيب).

• كرامة في الاستغناء عن الطعام والشراب (كتيب).

• نبذة مختصرة عن الشافعية في الأحساء (كتيب).

• آداب المجالس (كتيب).

• لمحات من الحياة العلمية في الأحساء من ١٠٠٠ هـ إلى ١٣٠٠ هـ من

خلال الوثائق المحلية (بحث).

• المدارس الشرعية الأحسانية وأثرها على الحركة العلمية في

الخليج العربي (بحث).

• الضوابط الشرعية في العقود الإلكترونية (بحث).

• القواعد الفقهية (مقالات).



هاتف: 6 5163564 (00962)

جوال: 777925467 (00962)

ص.ب: 19163 عمان 11196 الأردن

www.daralfath.com info@daralfath.com



دارالفتح
للدراسات والنشر